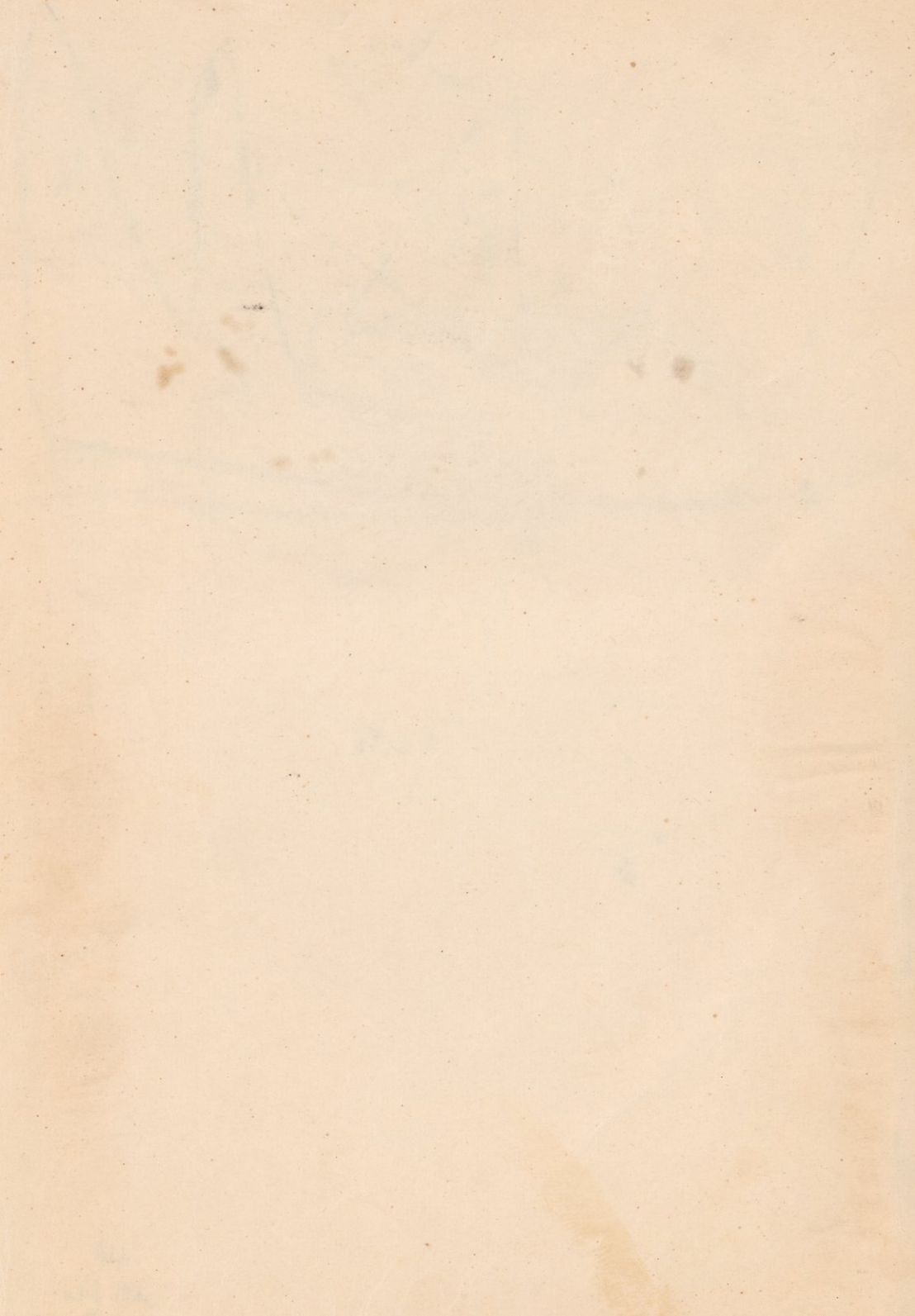




فَيْضُ الرَّحْمَةِ

تأليف

أبراهيم عبد القادر المازني

(الطبعة الثانية)

١٩٤٨

﴿ حقوق الطبع محفوظة للناسر ﴾

عنيت بنشره

المطبعة العصرية

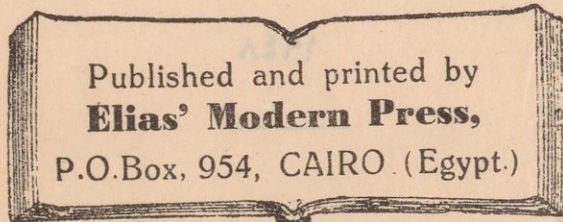
٦ ، الخليج الناصري ، بالفجالة ، بمصر

892.74

M4769A



المطبعة العصرية بمصر



Published and printed by
Elias' Modern Press,
P.O.Box, 954, CAIRO (Egypt.)

المقدمة

كتبْتُ هذه الفصول وغيرها — كثيراً غيرها — في الفترة الطويلة التي كان فيها شبَّح الماضي — أي نعم ، طيف الماضي — يعايشني . وكان أقرب جيرانني إلى نفسي ، السماء . وكنت يومئذ — وما زلت — في رقعة من الأرض مدحوةٍ للتفكير والأحلام واللموت . قد طال عهدي بها وإلني لها حتى ليكبر في وهمي — حين يستغرقني روحها — أني ههنا كنت قبل ميلادي ، وأنى بعضها ، وقطعةٌ منها ، لو علم الناس . وهي جملة الحالات ، وإن كان ظاهرها لا يكاد يلحقه تغيير ، وأقوى ما يروغي من أطوارها ، فقدانُها الوعي ، فلو نُفخ في الصور ما تنهت . وقد تبدو لي كأنَّ يد القدرة التي بسطتها قد ماتت وانصرفت عنها وشُغلت بسواها فيدركني عليها العطف ، وكثيراً ما خيل إلي كأنني أُلح فيها عروق العلة الأولى ، وشرايينها وأنسجتها ، وأنى أحس خفقها وأسمع نبضها . وهي ، على تفكك ذراتها ، كلُّها كامل في رأى العين وفي إحساس القلب . وربما توهمتها مخاً عارياً يُنشئ ما لا يدري . وقد يتمثل لي فيها رأى أرضنا — أو ما أحسبه رأياً — في الحياة والمساء حتى لا كاد أسمعها تقول باسنان هذه الصحراء للناس أو للمقادير . وما جدوى هذه المساعي ؟ ما خير أن تزخر على ظهري الحياة ؟ لاية غاية أو في أى سبيل إرهابي وكبدى وإملالى على الادهار ؟ انه عبث متواصل في الوسع رفع مؤونته بالمحو والسباب وقد تكون لهذا حكمة ، وإنكبتها حكمة كانت تكون عندى أعدل لو أنها شاءت ألا تكون هذه الحيات ،

وما ضربت في هذه الصحراء ، أو صافح وجهي نسيمها ، أو سفت الرياح عليَّ رمالها ، أو أدت عيني في عريها الأزلى ، إلا هتف بي من ناحيتها هاتف يقول ابن داود

« باطل الأباطيل ، الكل باطل . ما الفائدة للإنسان من كل تعب الذى يتعبه تحت الشمس ؟ دور يمضى ودور يحى ، والارض قائمة الى الأبد ... كل الأنهار تجري الى البحر ، والبحر ليس بملأن ... كل الكلام يقصر . لا يستطيع الإنسان أن يخبر بالكل . العين لا تشبع من النظر ، والأذن لا تمتلىء من السمع . ما كان فهو ما يكون ، والذى صُنِعَ فهو الذى يُصنع ، فليس تحت الشمس جديد ... »

« أنا الجامعة ، كنت ملكاً على إسرائيل فى اورشليم ، ووجهت قلبى للسؤال والتفتيش بالحكمة عن كل ما عمل تحت السموات ... فاذا الكل باطل وقبض الريح ! »

« وأنا أيضاً كالجامعة ، وجهت قلبى الى المعرفة ، وامتحنْتُ نفسى بالسؤال ، وعملت روحى بالتفتيش « بنيت لنفسى « آمالاً » غرست لنفسى « أوهاماً » عملت لنفسى جنات وفراديس غرست فيها « أحلاماً » من كل نوع ثمر ... وهذا كان نصيبى من كل تعبى ... قبض الريح ! »

واستنفد العناء مجهودى كما تنفد السحابة أراقت ماءها على الأرض . وكل بما عنده وجود ! زرعت حصى فى أرض صفوان وهذا حصادى ، وقبضت الريح من كل تعبى تحت الشمس وهأنذا أؤديها الى القارىء وأطلقها عليه كما تلقيتها لو يقنع الطالب المدل ! وقد خرجت ، كما سيخرج القارىء ، وكما سيخرج جميعاً من هذه الدنيا ، وليس فى يدى شيء .

ابراهيم عبد القادر المازنى

سبتمبر سنة ١٩٢٧

بين القراءة والكتابة

مضت شهور لم أكتب فيها كلمة في الأدب ، لأنني كنت أقرأ ! والقراءة والكتابة عندي نقيضان ، وقد كنت - وما زلت - أمراً يتعذر عليهما ، ولا يتأتى له ، أن يجمع بينهما في فترة واحدة . ولكم أطلت الفكرة في ذلك فلم يفتح الله على بتعليل يستريح إليه العقل ويأنس له القلب . وما أظن بي إلا أن الله ، جلت قدرته ، « قد خلقني على طراز عربات الرش » ! التي تتخذها مصلحة التنظيم - خزان ضخم يمتلئ ليفرغ ، ويفرغ ليمتلئ ! وكذلك أنا فيما أرى : أحس الفراغ في رأسي ، وما أكثر ما أحس ذلك ! فأسرع إلى الكتابة ألتهم ما فيها وأحشو بها دماغي هذا الذي خلقه الله لي خلة عربات الرش كما قلت ! حتى إذا شعرت بالكد ، وضايقتني الامتلاء ، رفعت يدي عن ألوان هذا الغذاء وقت عنه مشاقلاً متثاقلاً مشفقاً من التخمة ، فلا ينبغي إلا أن أفتح الثقب وأسح ! ؟ وهكذا دواليك !

ولكم قلت لنفسي : أهذا الذي ركبته الله لك يامازني بين كتفك رأس كرؤوس الناس أم معدة أخرى ؟ وأداة نظر وإدراك وتفكير هو أم مخزن يكتظ حيناً ويخلو أحياناً تبعاً لانتقال الأحوال بك ؟ والحق أقول أن الجواب يعينني ! وإذا لم أكن قد ركبته من الوهم شر الخير ! فإن الناس في الأكثر والأعم إنما يعالجون الكتابة لأن في رؤوسهم فكرة أو حاجة ، كائنة ما كانت ، ييغون العبارة عنها والافضاء بها ، ولست أراني كذلك ، ولقد يخيّل إليّ في بعض

الاحايين أن في نفسى معنى معيناً ، ويؤكد ذلك عندى ويقرر اعتقاده ، ما أحسه من جيشان الصدر واضطرابه ، فأذهب ألتس هذا المعنى أو الخاطر فاذا به قد تبخر ! وإذا بى كبنى حين يجلس إلى جانبى ويحاول أن يقبض على الدخان الذى يتصاعد من سيجارتى ، وأنا أضحك من هذا الذى يحاوله ، وألهو به وأقول انه يجرب في عالم المحسوسات بعض ما أعانيه في عالم المعنويات ! وكثيراً ما يدفعنى الى الكتابة احساس غامض إلا أنه من القوة بحيث لا يسعنى مغالبته فأتناول القلم ، وأنا كالمسحور ، وكأن القلم هو الذى يثب الى يدى ، كما ينجذب الحديد إلى المغناطيس ، وأسرع في الكتابة وأمضى فيها إلى غايتها المقدورة ، شأنى في ذلك شأن الذى يسير وهو نائم ! ينهض من فراشه ويخطو ، ويذهب هنا وهناك ، ويتكلم أو يباشر بعض الأعمال ، ولكن وعيه ليس تاماً ، وإرادته لا دخل لها في شيء مما يصدر عنه .

وأحياناً أفعل هذا : أسأل نفسى « أتى رأسك شيء ؟ » وأعنى بالشىء ماله قيمة ، لا أى شىء على الإطلاق ، فتساورنى الشكوك فأنقر بأصبعى على جوانب رأسى كمن يريد أن يتبين من الرنين مبلغ الخلو ! وربما أسفت لأنى لا أستطيع أن أتناول رأسى هذا وأن أقلبه بين كفى وأن أفعل به ما يفعل المرء حين يختبر البطيخ ! ثم أقول لا بأس ! القلم حاضر والورق تحت عيني فلا أقم حد هذا على صفحة ذاك ، ولافتح ثقب هذه « الحنفية » ثم فلا أنظر ماذا يقطر منها أو يسيل . أو لا يدير أحدنا صمام « الحنفية » أحياناً ليرى أفيها أم ليس فيها ماء ؟؟ نعم ! وكذلك أمتحن نفسى من حين إلى حين كلما شككت وكبر في ظنى أن رأسى قد أصبح فارغاً ! ولا أفعل هذا ، حين أفعله ، إلا على سبيل الاختبار وطلباً للاطمئنان لا رغبة في الكتابة ولا عن قصد إليها . حتى إذا وجدت القلم يجرى وألفيت مراعه تقطر ، قلت الحمد لله ! وأقصرت !

× ٥ وقد أبدأ المقال معتمداً شيئاً بعينه فيجري القلم بخلافه ! وشبيه بهذا أن تريد السفر الى الاسكندرية فتحملك رجلاك الى قطار يذهب بك السويس ، وأحسب ذلك إنما يكون كذلك لأن الكلام يفتح بعضه بعضاً وقد يفتنك وأنت تكتب ، معنى يعنى لك فيلهيك عما كنت فيه ويدفعك من طريقه الى غير ما قصدت إليه . وقد تأخذ في كلام تحسبه هيناً فتتكلمك الوعور وتتعاظمك العقبات فتميل عنه الى ما هو ألين . ومن هنا كان آخر ما أكتبه هو العنوان ! وكثيراً ما استخير الله في الكتابة على نية معقودة ثم أعدل في بعض الطريق عنها وأتحول الى سواها ويحجى الكلام متناولاً طرفاً من هذا وأطرافاً من ذاك ويعجزني أن أختزل مضمونه في عنوان فأدع المقال بلأرأس وأقدمه هكذا الى الأستاذ أمين بك الرافعى فيضع هو — جزاه الله عنى خيراً — ما يوافقه من العناوين !

وأمرى مع الكتب أغرب . كنت في أول عهدي بها — أى منذ عشرين سنة أو نحو ذلك — أذهب في أول كل شهر الى واحد من باعها فيتقدم الى العامل سائلاً عن حاجتى فأبينها له فيرفع رأسه الى الرفوف ويدور حول نفسه وهو في مكانه ثم يلتفت الى وعلى شفتيه — دون عيني — ابتسامة جهل وغباء ، ويهزلى رأسه أسفاً . فأنجيه عن الطريق وأمضى الى الرفوف وأجبل عيني فيها وأخذ منها ما يروقني وأنصرف عن الخانوت بأثقل من حمل حمار ! وأغرق فيها بقية الشهر الى ما فوق الأذنين ان كان فوقهما شيء يستحق الذكر ! وكنت لا أتخطى عتبة البيت إلا متابطاً كتاباً ، ولا تمضى على ليلة إلا طالعت في بعضها قليلاً أو كثيراً ، وكانت الكتب أنيسى في وحدتى وسميرى في خلوتى ، وكنت أستغنى بها عن متع الحياة ولذات العيش وأقول انها تدخل في متناول الحس ، العواطف والمدركات وكل ماله وجود فى العقل ، وانها توقظ الحواس الخاملة والمشاعر الراكدة وتملأ القلب وتشعر النفس كل ما تستطيع الطبيعة البشرية احتمالها وكل ماله

قدرة على تحريكها وابتعاثها ، وتدريب المرء على الاستمتاع بتدبر عظمة الجلال والابد والحق ، وانها تمثل ذلك للاحاساس وتحضره للذهن وتكشف لنا عن وجوه الألم والحزن والخطأ والاثم ، وانها تعين القلب على تعرف الهول والفرع والسرور واللذة وتخفق بالوهم على جناح الخيال وتفتنه بسحر عواطفه وخواطره ، وانها تسد النقص في تجارب المرء وتثير فيه تلك العواطف التي تجعل حوادث الحياة أشد تحريكاً لها وتجعله أشد استعداداً لقبول المؤثرات على اختلاف أنواعها ودرجاتها ، لأنه ليس بالانسان حاجة الى التجريب الشخصى لستحرك فيه هذه العواطف بل حسبه « ظاهر » التجريب الذى تهيؤه له الكتب وانما تستطيع الكتب أن تقوم مقام التجربة الشخصية الواقعة بما تمثل للمرء لأن كل حقيقة واقعة يجب أن تمثل فى رأى قبل أن يتعرفها الذهن أو تؤثر فيها الارادة ، ومن أجل ذلك كان سواءاً على المرء أن تؤثر فيه الحقيقة الواقعة بالذات أو يأتى التأثير من طريق آخر كالصور والرموز التي تمثل هذه الحقيقة ، فان فى طاقة الانسان أن يصور لنفسه ما ليس له وجود حتى يعود وكأن له جسماً يحس ويلبس ، فسيان عند الانسان أن يؤثر فيه الشئ أو مثاله ، لأنه يحرك فيه عوامل الفرح والحزن مثلاً على كل حال ، وسواء أكان الشئ حاضراً أم ماثلاً فى الخيال بصورته ، فان الانسان لايسعه إلا أن يحس حركات الغضب والبغض والرحمة والقلق والفرع والحب والاجلال والعجب والشهرة . فكأن هذه الرموز هى اللسان المترجم — كما يقول هوريس — عن الحقائق

كنت أقول مثل ذلك وأصدقه ، وكان مثلى كمثل أشعب الذى حكوا ان صبية التفوا به وأثقلوا عليه فأراد أن يصرفهم عنه فقال لهم ان فى مكان كذا وليلة فاذهبوا اليها وأصيبوا منها ، فلما مضوا عنه بدا له الأمر كأنه صحيح فذهب يعدو فى أثرهم . وكما أن أشعب عاد بالخيبة والحسرة والسخر من نفسه كذلك

انقلبت عن الكتب ، فلا أنا أفدت شيئاً سوى قمع الشباب واضاعة فرصته و اراقة
 مائه في تلك الصحراء العارية ، ولا أنا فهمت الحياة كما ينبغي أن تفهم أو سددت
 نقصاً في تجاربي أو استطعت أن استغنى « بظاهر » هذا التجريب عن التجريب
 الشخصي ، وشر من ذلك أنى اطلعت من هذه الكتب على صورة أو صور للحياة ،
 ليس اكذب منها ولا أبعد ! ولا نكران انها أيقظت نفسى وفتحت عيني ونبت
 حواسي وابتعثت مشاعري وجعلتني أشد تأثراً بالحياة وتحركاً لها واستعداداً
 لتلقى مؤثراتها ولكن أليس معنى ذلك انها جعلتني أتعس وأشقى مما كنت اكون
 لو ظلمت أرتع في بحبوبة الجهل والغفلة والبلادة ولم أفز بهذه النعمة التي لم أعد بها
 غنياً ؟ ماذا يكون لو أخذنا كنوز هذه العقول ورميناها من حالق للرياح والمدر ،
 كما أقول من قصيدة صنعتها بعد ان فطنت الى ما أضعت من عمرى ؟

كم غصت في لجة الحياة فما	فزت بغير الصخور والحجر !
وكم نفضت اليدين من حجر	حسبته درة من الدر !
نخل كأس العفاء تسلبني	كنزى وتسحو سلاسل الخبر
ما ضرني لو جهلت ما علمت	نفسى وما قد أفادنى نظرى ؟
أو لو نسيت الذى شعرت به	فى كبرى الآن أو لدن صغرى ؟
أو لو سلوت الذى كلفت به	على الذى كان فيه من سُكر ؟
أو لو فقمت الذى فرحت به	وما وجدنا فى حدة الظفر ؟
أثم صوتٌ تعيد نبرته	إلى ذكر الربيع والزهر ؟
أثم عينٌ تشير نظرتها	أحلام نفسى فى ريق البكر
وتنشر اللذة المضيفة لى	حلياً من العيش جد مبتكر ؟
نعم لعمرى فى الارض زينتها	من مسمع فائن ومن نظر
وروضة العيش جد حالبة	من زهر موق ومن ثمر

كأنها لا فتار بهجتها
 واهاً لقمرية إذا اتسقت
 واهاً لسحر في لحظ نرجسها
 واهاً لا يكتها إذا همس الذ
 لكن أغصانها يا أسفا
 أصبت في العزم ، لا الشعور ، فان
 وان مددت اليدين خانهما
 يذعرنى الشيء كان يجذبني
 أحمل عبئاً من السنين فما
 ولى من الذكريات حاشية
 فهاتها أذعر الشجون بها
 لم لا أبت الذى يقيدنى
 انى أراى قد حلت وانتسخت
 وصرت غيرى فليس يعرفنى
 ولو بدا لى لبت أنكره
 كأتنا اثنان ليس يجمعنا
 مات الفتى المازنى ثم أتى

تحير نطقاً لمدمن البصر
 أسجاعه واستراح للسحر !
 يسطو بوقع السجود والفترا !
 سيم في أذنهما مع القمر !
 بعيدة من منال مهتصر
 أدت لحظى فى الشيء ، لم يدر
 عزم الشباب الجرى ذى الاشر
 لشد ما أستجير بالحذر !
 عسى وراء الغايات منكدرى ؟
 فى حيث أمضى ، محشودة الزمر
 حتى أراها تطير كالشر
 بما مضى وانقضى من العصر ؟
 مع الصبي سورة من السور
 - اذا رأتى - صباى ذو الطور
 كأتنى لم أكنه فى عمرى
 فى العيش إلا تشبث الذكر
 من مازن غيره على الأثر

وما أحسننى بالغت ، فقد مات « الفتى » المازنى حقاً ولم يبق منه شيء !
 وانى لأمر الآن بالمكاتب فأشيع بوجهى عنها وأغمض عيني دونها ، ويردنى
 الكتاب بكرهى فأتركه حيث يقع وأهمله الاسابيع والشهور ، واذا فتحتة اكتفيت
 بأن أعبره تزجية للوقت ، ولم أبال من أى موضع بدأت ، وسيان عندى أن
 أقرأه من أوله الى آخره ، أو من آخره الى أوله أو أن لا أقرأه ، وقد تعاودنى

الحى القديمة ، ويتأوبنى الحنين الماضى الى الكتب فأدافع نفسى عنها ما استطعت ، فان عجزت وغلبت على أمرى طاوعتها على حذر وسايرتها متحفزاً وذهبت أتخير لها الكتب وأنتقيها ، ومهما يكن من الأمر فلست الآن ذلك الذى كان كأنما يعبد منها دُئى وأضناماً ، ولقد اغتصمت أول فرصة سنحت فبعثتها جملة وتحريت بعد ذلك أن أزداد جهلاً !

ولكن الزامريموت وأصابعه تلعب ! كما يقول المثل العامى ، وللعادة حكم لا يقوى المرء فى كل حين على مغالبته ، والنفس لا تطاوع المرء دائماً على ما يريد لها عليه من الخنود والتبلىد ، وقد يزعج المرء أن يرى نفسه يقضى أيامه بطين الجسد وحده ، أو يموتها على الأصح ، فان من الموت أن يستحيل الانسان جثة خامدة المنقذ لا ينقصها إلا الرمس ، وما لا يصلح سلوى ومتمعة قد يصلح دواء ، وعسير على من تعود أن يحس الحياة بأعصابه العارية أن يروض نفسه على التبلىد ويخلد الى الركود ، فلا عجب اذا كنت أقبل على المطالعة حيناً بعد حين

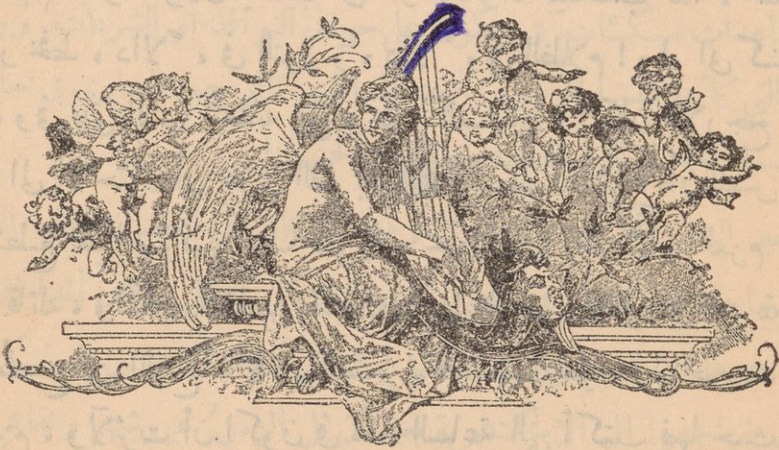
ولقد قرأت فى هذه الفترة الطويلة طائفة صالحة وأخرى غير صالحة من الكتب بعضها فى الآداب والفلسفة ، على بغضى لها واستثقالى ظلها وعجزى عن فهمها ، وبعضها يزعمه واضعوه أدباً وفلسفة وهو ليس من ذلك لا فى كثير ولا فى قليل . واحسب القراء لا يعينهم إلا ما أخرجته لهم المطابع المصرية . وهذا هو الذى سنقصر مقالاتنا عليه ونحاول أن نعقد له فصولاً نستطرد فيها ومنها إلى أبواب من البحث متصلة بموضوعاته وسنبدأ بحديث الأربعاء ، الذى وضعه صديقنا الدكتور طه حسين ولستنا ندرى بأى كتاب آخر يمكن أن نثنى فان كتاب الدكتور يضطرننا الى النظر فى أمور عديدة ، والخلاف بيننا وبينه طويل يتناول أصول المسائل ، ولنا فيمن كسر كتابه عليهم من مثل ابى نواس وبشار

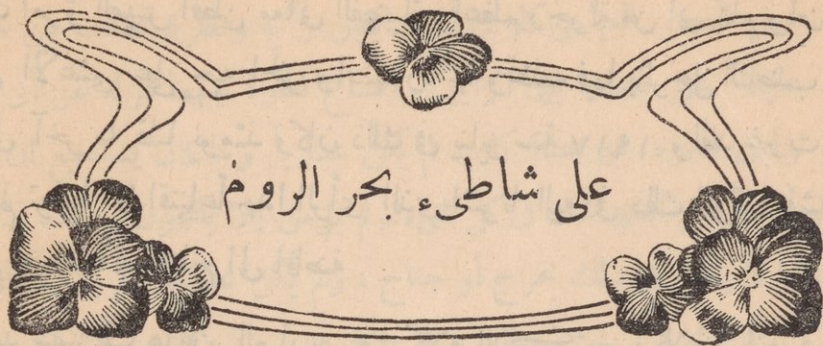
وغيرهما ، وفي العصر العباسي كله ، رأى يناقض رأيه ونظرة تختلف عن نظرتة ، وحسبك دليلاً على بعد ما بين الرأيين واتساع الهوة بينهما قوله عن أبي نواس « أما أبو نواس فأمره غير هذا كله ، لم يكن عذرياً وما كان يستطيع ان يكون عذرياً ، وهو الرجل الذي شك في كل شيء ولم يؤمن إلا بالمجون واللذة يلتصق بهما حيث يجدهما لا يتقيد في ذلك بخرج أو جناح ، ولم يكن عذرياً ولم يكن يتكلف أن يكون عذرياً وإنما كان يسخر من العرب ومما كان العرب يتكلفون . لم يكن يتكلف العذرية وإنما كان يهتم باللذة وبلذة غير التي كان يهيم بها عمر ابن أبي ربيعة . . . الى ان يقول . . . ان ابا نواس يكرهك حين تقرأ غزله بالغلمان على ان تعجب بهذا الغزل رغم ما فيه من منافرة للطبع والخلق والدين الخ »

أما نحن فقد قلنا في المقدمة الى وضعناها للجزء الثاني من ديواننا « فلا جرم كان الشاعر أحسن الناس وأعظمهم حكمة وأصحهم ادراكاً خلال الخير وخصال الفضل — نقول الفضيلة والخير ولا نخشى أن يهز الفراء رؤوسهم انكاراً فان الشعر أساسه صحة الادراك الاخلاقي والادبي ، ولست بواجد شعراً الا وفي مطالويه ادراك اخلاقي ادبي صحيح ، وعلى قدر نصيب الشاعر من صحة هذا الادراك الادبي تكون قيمة شعره . ولا يتعجل القارئ فيحسب انا نقصد الى اظهار الاحساس الديني في الشعر فليس كلامنا على مادة الشعر بل على مصادره وينابيعه ، ولا ينبغي كذلك ان يستخلص أن الشاعر يجب أن يكون صاحب مبدأ عملي لا يتحول عنه ، فقد كان بيرنز الشاعر الانجليزي وأبو نواس وأمرؤ القيس متقلبي وجوه الحياة ومظاهرها ولكن نصيبهم مع ذلك من صحة الادراك الاخلاقي والادبي عظيم ، ولئن كان لهم معائب نؤاخذهم بها فقد أحالها الزمن هباء لا قيمة له ولا وزن ، وأنت خليك ان تنظر الى ما وراء ذلك . فان ابا نواس اصح مبادئ وانقى ضميراً من البحتري على كثرة ما تقرأه للأول مما يروع ويخجل ،

وكذلك امرؤ القيس افطن معاني الفضيلة واعظم رجولة من ابى تمام وابن المعتز ،
ولم يكن الأعرشى على حبه الخمر واستهتاره بها وتخلعه فيها بالرجل الناضب الفضيلة
الخ ، الى آخر ما قلنا يومئذ وكان ذلك فى يناير سنة ١٩١٧ ولقد غبرت أعوام
ثمانية فلم تردنا الا اقتناعاً بهذا الرأى الذى اشرنا اليه فى ذلك الوقت اشارة من
لا يحس ان المسألة تحتاج الى افاضة

ولقد سقنا لك هاتين العبارتين من كلام الدكتور وكلامنا لتعرف مدى
الخلاف بين الرايين ولتدرك ما فى المسألة من دقة وتعويض ، لا يسع المرء
حيالهما إلا ان يسأل الله السلامة





بين البحر والصحراء !!

أكتب هذا الفصل على شاطئ البحر الأبيض أو بحر الروم ، وقد كتبت
الذى قبله على حدود الصحراء ، وللإكلام ، كما للناس ، حظوظ ، والمعاني والخواطر
أرزاق ، ولقد أذكر أنى كنت ذاهباً الى مصر الجديدة مع طائفة من الاصدقاء
فى واحد منهم شذوذٌ وكان يكتب فى الزم ! وانه ليسكتب كلمة « السؤدد » إذ
انطفأ النور نخط « دالاً » فى النور و « دالاً » فى الظلام ! ولو انى كنت اليوم
فى القاهرة وفى بيتى الذى اتخذته على « تخوم العالمين » لكان الأرجح فى رأى
والاقرب الى الاحتمال أن يجرى القلم بغير ما يسطره الآن ، فأن النفس كالزجاج
الحساس تنطبع عليها وترسم فيها صور ما يحيط بها ، ولقد كان العزم أن أقول
غير ما أنا قائله ، ولكن المقادير قدفت بى الى البحر ، لافيه والحمد لله ، فتحلل
العزم ، ومُسح من اللوح ما كانت الصحراء قد نقشت عليه ، ولو خُيرت لاخترت
مقامى القديم ، ولاثرت أن اكون فى هذه الساعة التى أكتب فيها حيث كنت فى
الاسبوع المنصرم : الى يمينى الصحراء ، والى يسارى المقابر ؟ واحدة تعلو بى ،
وأخرى تهبط ، واذا استأثرت معانى الأبد والجلال بالقلب ردت الى الدنيا ومصائر
الخلق فيها هذه الأجداث المتلاصقة والعوالم الانسانية التى خرجت من التراب
وعادت اليه وتحللت واستسرت فيه .

غير أنى ألفت نفسى جالساً على شاطئ بحر الروم أنظر إليه وأنا أمل عيابه
المزبد وموجه المتجدد، والشمس تنحدر عنه وتبسط عليه أشعتها المتوهجة،
وأواذيه كقطع الجبال المتقلعة تتدفع الى الشاطئ وتستبق سيفه فيغيب بعضها
في بعض وترغى وترعد وتصفر وتهمس وترقص وتضحك وتمحو ما أخطه على
الرمل ! ولا أدري لماذا أذكرنى هذا المنظر ما أنستنيه الأيام من الأقايصيص التى
كانت تسلينا وتروعنا وتعمربها فضاء حيواتنا الصغيرة، العجائز من ذوات
قرابتنا أو جيراننا، إذ يجلس الطفل منا الى إحداهن ويرهف أذنيه ويود
لو صارت كل جارحة فيه مسمعاً، وقلبه الصغير يخفق وكلها أغربت العجوز فى
القصة وتبسطت فى وصف الجان والمردة أو السحرة وأسهبّت فى سرد أعمالهم،
أدار هو لحظه خلسة فى المكان كالذى ينفضه بعينه أو يخشى أن يظهر له عفريت
من أحد أركانه، وراح يدنو منها ويزحف اليها حتى يلمسها، على حين كانت
الفتيات الناهدات متكئات فى سكون على حوافى النوافذ أو الشرفات، ووجوههن
الصبيحة، التى كأنما غدتها الورود، يضيئها القمر الواجم السارى فى حاشية من
النجوم اليتيمة العذراء التى ينقصها، مثلهن، الحب !

ولم يتغير البحر عما عهدته ! كل شئ فيه كما كان فى العصر الخالى الا المدينة
القائمة على ساحله فقد كانت فى بعض أيامها الخوالى تشغل مكان أثينا فلم يبق لها
من سالف عزها الا البوم والسفسطائيون ! حتى آلهة الاغريق استنكفوا على
ما يظهر أن يتراجعوا الى الاسكندرية بعد أن ثل الزمن عروشهم ونفاهم وشردهم
عن ملك السماء، ولم يرض ملك السماء ذو الخصل البيضاء أن يأوى اليها ويعوذ بها
بعد أوليمبيا، وآثر عليها التشرّد بصاعقته الخامدة، ورض بنفسه عليها زيوس
وتجافى عنها وان كان لم يربأ بنفسه عن عزل أبيه وطرده أعمامه وعن الاستهتاك بين
الغلمان الذين كان يهبط الى الارض على خلقه الفسّر ليخطفهم ويصعد بهم إلى

ملكوته ويكايد بقبلاهم زوجته ! وكم عدلته في جنميد وأنبته على مشاربته في
كأس واحدة فكان يقول لها مستهترا لو شربت بعده من هذه الكأس لأقصرت
ولم تلومي ! وشاهدي على صحة الرواية « لوسيان » .

وما وقفت قط على هذا البحر الا أحسست اني مثله ، وإلا هممت أن أنظم
هذه الأبيات مرة أخرى :

أنا البحر — لا كرمأ ! — إنني	تكفل بالفقر لى المفضل ؟ !
ولكننى البحر ما إن له	قرار وما أن له موئل
وتجلده الريح إن زمزمت	جنوب لها أو زفت شمال
ويجذب أمواهه كوكب	ويدفعها وهو لا يحفل
وفى قاعه دره راسب	ومن دونه الخطر الأهل
وتعتام صفحته ركدة	وفى سره ثورة تشعل
ويلتسم الشط مستروحا	فيهزمه الرمل والجنـدل
أنا البحر ، لكننى غارق	بنفسى فمن ذا عسى يئشل ؟
أصارع تياره جاهدا	وفى أذن رعدة المرسل
وأومى الى الناس لو أبصروا	وقد يخطيء العون من يسأل
فهل عاذر إن ونت همة	وناء بما يحمل المثل ؟
وهل شاهد ؟ أن بي حاجة	الى شاهد صادق يعدل الخ

وكأنما ضاق صدرى بما أجن وقلبي بما أثار البحر من خليط الذكريات وحرك
من الآمال فنهضت عن الصخرة التى كنت قاعدا عليها ودهورت هذه الأبيات
فى أشداق وانطلقت أنشد الريح إياها !! ومن عساني أنشد سواها ؟ فى أى اذن
غير اذنها أفرغها أو أهمس بها ؟ فى أية نفس انسانية أجد لنفسى كهفا يتجاوب بأصـداء
عواطنى وخوالجى ؟ عند من من الخلق أفوز بالتجاوب الذى تمنحنيه الرياح ؟

أين في الناس وردتان تميلاً ن معاً للنسيم من حيث جاء ؟
 كما تساءلت قديماً ؟ ثم أهبت بقصائدي التي لم أنظمها — قصائدي الجياد التي
 لم تند قط عن صدرى وان كانت تعمره ، ولم ينطلق بها لسانى وان تكن على
 طرفه ، والتي لولا مشيئة الأقدار لذهبت بأصيل هذه الشمس الغاربة ونسجت
 منها تاجاً لرأسك الذي يتوسد التراب ، ولفصلت من زرقة السماء الحالية بنجوم
 الليل المتواضعة ، ثوباً متألهاً ينسجم على كتفك وينسدل الى قدميك !

وغابت الشمس وانتشرت على الأرض غياباتُ الطفل ، فعدت الى مقعدي
 أنظر الى الموج المشرب ، وجاش صدرى مثله وجعلت طيوفُ الماضى تبرز من
 ظلامه وتخطر أمامى ثم تغيب ويلفها ما هو أظلم ، ولكن طيفاً واحداً ظل ماثلاً
 لعيني في حيثما أدرتها ، ومالئاً شعابَ نفسى بالاحساس به ، ومناجياً لى من زفيف
 الرياح وتهزم الأمواج ، وفيه وفي تمثل الحب المفقود والامل الضائع ! وخامرني
 هذا الخاطر وألح على حتى خلستى جثة غريق ردها الموج الطاغى الى رمال الشاطئ !
 ولج بي هذا الوهم حتى ملت عن الصخرة الى الرمال ورقدت عليها وأومأت الى
 الأمواج أن اركدى فقد ذهب كل شيء : انتسخ الامل وفاض معين الحب
 وجفت الحياة !

ثم تناولت عوداً كان ملق الى جانبي ، وخططت به كلمات على الرمال البليلة ،
 غير أن الأمواج طغت عليها وغسلتها وعادت بها ولم تترك لى حتى اسمى الذى
 رسمته فى آخرها ! فيأما أوهى العود وأخون الرمال وأطغى هذه المياه المتحدرة !
 بأى شيء إذن أكتب ؟ ؟ أقتطع جذع شجرة بلوط وأغمسه فى بركان وأسطر
 به ما اريد على صفحة السماء ليقب ! ؟ !

ولسكنم وقفت من قبل على شاطئ هذا البحر بعينه ، وفي مثل هذا الأوان ،
 بجيلا عيني في قبة السماء اللازوردية ، ومرسلاً لحاظي في البحر والرمال والصخور ،
 وقائلاً لذوات المناقير السوداء إذ تعب بها من الماء وتلقط ما يتقاذف منه : « أيتها
 الأطيار ! أن حياتك مرة مشنوءة كطعامك وشرابك ! ولشد ما أتمنى أن أعطيك
 بما أعطانيه الله ، وأن أنشئك ما أشمه من الأزاهير والرياحين ، وأطعمك بما
 آكل من لحم غريض وخضر مسـتطابة وفاكهة شتى ، وأن أشعرك ما أشعر
 وأتمتع به من لذاذات الحب المتبادل ! فأن لي لشريكة تحبني ، واني لأراها الآن
 بعين الخيال مطلة من النافذة منتظرة أوبتي الى وكرها ومشتاقه رجعتي الى عشها ،
 وكانت الأطيار تقضى وطرها وتذهب عني ولا تحفل غبطتي ولا تبالي طعامي
 ورياحين أنفي وعيني ونفسي ، وما أظنها الآن الا قائلة لي « يامن كان يفاخر بغبطته
 ماذا أنت اليوم ؟ ماذا صنع الله بآمالك التي أنشأتها ووربيتها واعتزت بها ، وأحلامك
 التي نسجها قلبك حول حياتك ؟ انظر الظلمة التي تغشى ذهرك ! وتأمل الخفافيش
 التي تمرح فيه ! اليس الماء المالح الذي نكرع منه وقذائف البحر التي نلتقطها
 أهناً وأرغد ! ،

فأطرق وأقول : أي والله صدقت ! ولشد ما أتمنى أن يكون لي منقارك
 الاسود !

كلا ! صحرائي أرفق بي من هذا البحر العاتي الذي لم يتغير منه شيء ! والذي
 يهيج النفس الى ما بها « ويُعيدها ، فتجيش مثله وتتدفع فيها العواطف وتتلاطم
 وتتزاخر ، ومن لي بالقدرة على نقل هذه الصحراء التي ألفتها وأحببتها ، معي في
 حلي وثرعالي ، وفرشها وبسطها حولي في حيثما أكون من الأرض ؟ ؟ نعم ليت
 هذا في وسع انسان !! اذن لاستطعت أن أطويها كلها غادرت بقعتها ، وان الفها

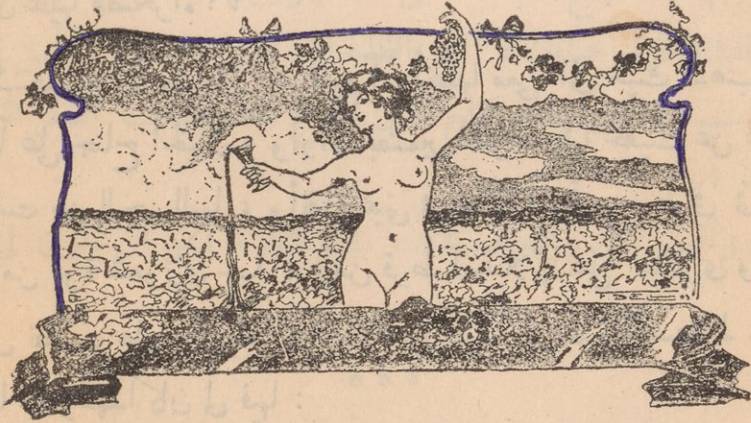
مع ثيابي وأشياء في حقيقتي ، حتى اذا نزلت مكاناً واستوحشت نفسي أنست بأن أخرجها وأنشرها امامي وأتأملها وأذكر بها ليالي فيها بما اشتملت عليه من خير وشر ، وسرور ، وحزن ، وغبطة واكتئاب ، ورضى وألم ، ومن أحق بها مني أو بي منها ؟ مالي وللماء الذي لا تطمئن اليه قدم ولا يثبت على حال ولا ينفك ينقلب فيه القديم جديداً ، والماضي مقبلاً ، والمقبل مدبراً ، ولا يفتأ بعضه يفتني في بعض ؟ ولعل السبب في حبيبها واشارها ان بي مشابهة منها ! وأني أجتلي في انبساط رقعتها وترامى اطرافها وتقاذف أرجائها وجدبها وعريها وتجردها من كل زينة تحفل بها رقع الأرض الأخرى ، صورة من نفسي التي تنبسط للحياة ولا تزيد الحياة بها ، وللدنيا لتُحسب عليها ومنها ، ولا تزيد الدنيا بها عماراً ، وعسى أن يكون كفي بها لذكرياتي ومعاهدي فيها ، وعلى انه أى داع يستوجب ان اعلى هذه « العاطفة » التي انطوى عليها للصحراء ؟

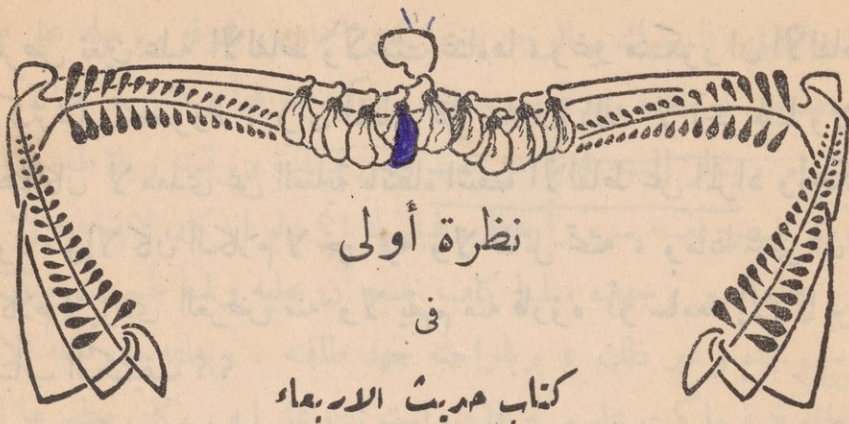
ولما كنت مع الأسف لا أستطيع أن أنقلها معي الى حيث أذهب فاني اكر اليها راجعاً على جناح الخيال ، وأراها بضمير الفؤاد كلها خفيت عن عيني . واني الآن لا تلفت من البحر اليها ، وأنقل عيني في جنباتها وأسرح طرفي في أرجائها ، وحسبك من قوة شعوري بها ، ومن فرط استيلائها على خاطري واستبدادها بنفسى ، انى نظمت هذه الابيات في بقعة منها فيها آثار بلدة الفسطاط ، أناجى بها ليلة سهرتها بها وعهداً كان لي فيها :

أيا بلدة الفسطاط ما انت بلدة
واكننا طيفاً لمؤتف الخفض
طواك قضاء الله في الأرض حقبة
وانشرك الانسان نقضاً الى نقض
خطوط وانقاض كما جاهد الفتى
ليحيى ذكرى وهي تمنع في الغمض
خرائب من حولي وفي النفس مثلها
وأهول منها ويل بعضى من بعض !
وكم خلت نفسي بعض ادراس نؤيها
فأقررت حتى كان يفزعني نبض !

قضيت بها ليلاً طويلاً قصيرُهُ
فوا أسفا ! لو ههنا كنت لانتني
لاوحشتني لما خلت منك رقعتي
أسفة للموت أم أنت يا ترى
فأنت ترى كيف تغلب طيف الصحراء على البحر المسأج ، ولا عجب ! فان
نفسى ، كما قلت ، بالصحراء أشبه وإليها أقرب !

صغيرة بينا انظر الى البحر





كلمة في الأسلوب أولاً ...

لنا في الأسلوب رأى قديم يعرفه من يعرفنا ، ذهبنا إليه في صدر حياتنا ، وثبتنا عليه الى يومنا هذا ، ولسنا نتخذ من الثبات على رأى مفخرة ، فانه لا يخفى علينا ان هذا قد ، يكون مرده في بعض الأحيان الى الافلاس العقلى — ان صح هذا التعبير — أو الى ضعف الخيال ، أو غير ذلك مما أترك للقارىء استقصاءه إذا شاء ، فقد علمتني الأيام أن أكون أرفق بنفسى من أن أرهقها أو أحمل عليها اكراماً لسواد عيون القراء !! ولماذا لا يتكلف القارىء شيئاً من النصب ؟؟ والله ، فاعلم ، معشر فقراء العقول ، يفرح أحدهم ان يكون له رأى ما ، فيضن به ويحرص عليه ، ولسنا من هؤلاء فيما نرجو !

وسنبسط رأينا ونعيده بأوضح مما فعلناه قديماً حين كنا نعتقد ان المسألة أدخل في باب البديهيّات من أن تحتاج إلى افاضة أو تحتل اسهاباً ، فنقول ان الغرض الأول من الكتابة على العموم هو الإفهام أو نقل الخاطر من رأس إلى رأس ، والخاتمة ، كائنة ما كانت ، من نفس الى نفس ، ومعلوم ان الالفاظ ليست هي المعانى وإنما هي رموز لها ، تدل عليها وتشير إليها ، كما تفعل ايماءات الخرس التى يتفاهمون بها — ونظراتهم وحركات وجوههم وأصواتهم القليلة التى يستطيعون اخراجها ، ولو ان إشارات الخرس كثيرة كالالفاظ فى اللغة ، لو فت

بكل غرض تعين عليه الألفاظ ولا غنت غناءها ، وغير منـكـور ان الألفاظ مهما بلغت كثرتها ، محصورة ، وان المعانى على خلاف ذلك لا آخر لها ولا نهاية ، ومن هنا كان لا معدى عن العناية بانتقاء اشف الألفاظ عن المراد وأحكمها أداء المقصود ، وإلا كان الكلام لا خير فيه ولا طائل تحته ، وماذا عسى أن تكون قيمة كلام لا يؤدى الغرض منه ولا يفهم منه قارؤه أو سامعه إلا كما يرى المرء فى الضباب الكثيف ؟ ؟

فالإفهام أو نقل الحاجة على العموم إلى نفس أخرى هو الغرض الأول من الكتابة على وجه الاجمال ولكن هذه ليست إلا درجة أولى فوقها أخرى يحاول من يسميهم الناس أدباء وشعراء أن يرقوا إليها ، وهى طبقة الكتابة الفنية التى لا يكون المطلوب فيها مجرد الإفهام وإيلاج المعنى أو الخاطر ذهن القارئ بل التأثير ، وكما ان الانسان لم يكتف بالأصوات الكلامية وأبى إلا أن يغنى وأن يرفع عقيرته ، حين يحس الحاجة إلى ذلك أو الرغبة فيه ، بتواليف صوتية تطربه وتشجيه ، وكما أنه لم يسعه أن يقنع من المساكين بما يقيه الشمس والرياح والأمطار والضواري ، ومن الثياب بما يعينه على احتمال الأجواء المختلفة ويستتره ، بعد أن أرهفت الحياة إحساسه ورقته ، ومن الطعام بما يسد الرق ويدفع غائلة الجوع ويؤتية القوة ، ومن المراكب على أنواعها بما فيه الكفاية فحسب ، نقول كما ان الانسان أبى له طبيعته التى ركبها فيه خالقه ، إلا أن يجاوز ما تتطلبه الضرورة القصوى فى طعامه وشرابه وملبسه ومسكنه وفى كل شىء آخر ، كذلك لم يطق صبراً على الاكتفاء من الكتابه بما تبلى إليه من الأغراض الأولى ، وطمع فيما هو أكثر من ذلك وبغى ما وراه فنشأ الأدب

وليس من الضرورى أن يكون المرء على جانب عظيم من الثقافة والتهديب ليطلب الفن فى حياته ، فان الانسان حيوان فنى ، وانك لتجد الرجل الأمل

الكشيف العقل ، السميع ، الوجه يضفر شعر حماره ويفرقه ويرسله على صفحتي عنقه ويفضض له لجامه ويذهب سرجه ويركبه مترفقاً ويمشي به مختالاً وينزل عنه ويسايره وينظر إليه باديأ من بعيد ومن قريب ويربته ويلطفه ويمسح له وجهه وقد تفيض نفسه سروراً بمنظره فيقبله ! ؟ ولو انه كان لا يتخذة إلا مركباً يريجه من عناء السير وجهده ، لما كلف نفسه أن يحليه ولما عني بتجميل أدواته من سرج ولجام وغير ذلك ، وبازاحته جهد طاقته ، وبعلفه ما وسعه الانفاق ، فهي عاطفة فنية ملكت عليه قلبه واستولت على لبه ، وكان مظهرها العناية بتجميل اتانه !

✕ ولكن الخير ، والحمد لله ، ليست كل ما يمكن ان يكون مظهراً لهذه العاطفة الفنية ! وما استطاع في عالم الخير واشباهها من أبناء ائينا الشيخ آدم رحمة الله عليه وغفرانه له ! استطاع مثله في عوالم الكتابة والشعر والموسيقى والتصوير وما منا الا من ينبغي ان يكون في فنه افعـل باللب وأسحر للقلب وأملأ للعين وأوقع في النفس ، ولكن الكتابة لا تكون فنية من تلقاء نفسها ، وانما تصير كذلك بما يحدثه المرء فيها من الصور ، وما يوفق اليه من الاحسان والتجويد ✕ ولا بد لذلك فيما نظن ! من صحة النظر وسلامة الذوق وصدق السريرة والاستعداد ، فان الالفاظ موجودة ، وهي ملقاة في طريقنا جميعاً وعلى طرف كل قلم ولسان ولو ان العبرة كانت بالالفاظ وحدها . وكان المعول على مقدار محصول المرء منها لكان اكبر الادباء هم جماعة اللغويين والحفاظ ، وليكان ابن منظور والفيروزبادي مثلاً شيخى ادباء العرب وشعرائهم ، كذلك الموسيقى اصوات ، وليس يعني أحداً أن يتوفر عليها ويحذقها ويمهر في توقيعها ، وقد لا يعجزه أن يصنع بضعة ألحان قليلة او كثيرة ، ولكن ليس كل احد بمستطيع أن يكون بيتهوفن أو فاجنر أو شوبان ، والتصوير أيضاً اصباغ وألوان ، أو قل - ان شئت - ان هذه هي مادته

ووسائله ، ولكن العلم بها وبأصول الرسم وقواعده ليس حسب المرء ليكون مصوراً حتى من الاوساط فضلاً عن الفحول من أمثال روفائيل وتيتيان ، وما لنا لا نسوق الامثال مما هو ألصق بحياتنا اليومية ؟ خذ صناعة النجارة مثلاً وقل لي لماذا لا يستطيع كل نجار أن يكون ككل نجار ؟ ما السر في أن واحداً يُخرج قطعةً تدخل السرور على كل نفس وتحب أن تتعلق بها وتتمهل عندها كل عين ، على حين يُخرج لك غيره ممن لا يقلون عنه علماً بالصناعة ودربةً عليها ما لا يروق ولا يعجب ولا يعدو أن يكون قطعة منجورة وأخشاباً بعضها الى بعض والسلام ؟

✕ نريد أن نقول ان فن الكتابة ، ككل فن ، يتطلب استعداداً طبيعياً وأنه - ككل فن أيضاً - لا غنى عن الجمال فيه ✕ وماذا يكون قولك في رجل يزعم ان سيفنسيك ثم لا يسمعك الا أصواتاً متنافرة أو ضوضاء منكرة ؟ او في آخر يقول لك هذه صورة فنية فاذا نظرت اليها لم تلمح فيها ما يميزها عن النقل الفوتوغرافي ؟ وكالنقل الفوتوغرافي الكتابة العادية التي لا يقصد منها الا الى الافهام ، وكالتصوير الفني لغة الادب

✕ ولا يفهم أحد من كلامنا أننا نقصد الى التكلف وإثقال الكلام بالحلي والزينة ، فما يخطر لنا شيء من ذلك ، وإنما نعني ان الادب فن ، وأنه لا بد في كل فن من الاحسان والتجويد ، ولكل امرئ طريقة هو مؤثرها أو موفق اليها . لا برار المعنى في أحسن معرض ، وليست المزية في التألق والتجوير فان للجمال العاطل أيضاً موقفاً حسناً وروعةً ونضرة ، بل المزية في إبراز المعاني في أحسن حلاها كيفما كانت ، وكل ميسر لما خلق له ، فواحد يوشى الكلام ويطرزه ، وثان يرسله غفلاً ، وثالث يدق لفظه ويشف حتى تستخطاه العين كأنما يعرض لك المعاني في ظروف من النور ، ورابع يفرغ خواطره في قوالب مائت قوة وجمالاً وهكذا . والاحسان في كل ذلك والقدرة عليه ، ملصة لا تحصل بالمعاناة ولا تنهياً

بالدرس والتحصيل وان كان هذا مما يقويها وينميها . ولا نطيل القول . فأيا رجل
زعم نفسه كاتباً أدبياً وخلا كلامه من عناصر الجمال فقل له لست به

والآن ، ما رأينا في اسلوب صديقنا الدكتور طه حسين ؟ الحق أن هذا
موضوع يدق فيه الكلام ! ولقد بدأت الكلام وفي عزمي أن أفيض في بيان رأيي
في الاسلوب ولكنني لم اكـد أسود بضعة سطور حتى الفيت نفسي أوجز وأوجز
وأوصد كل باب مؤارب في طريق واضيق دائرة البحث ثم اذا بي اسأل نفسي
ما رأيي في اسلوب الدكتور ؟ ولقد تغمصني والله عفريت النقد ! واني لأحس
ان عيني قد احمرت ، ويبلغ من احساسى بذلك او توهمى اياه انى اهم بالتطلع الى
وجهى في المرأة ! ولا اكتم القراء انى صرت اؤمن بأن لكل منا شيطاناً ،
واحسب شيطاني من اخبث الشياطين ، فانه يزوج بي في مآزق لا ارضاها لنفسي لو
كان الامر لي ، وان على مكنتي لاكثر من خمسة عشر كتاباً استطيع ان اتناولها
بما شئت من النقد وانا آمن أن القى اصحابها اذا كنت لا اعرفهم ، ولكن شيطاني
الحبيث ظل يخيلني بكتاب الدكتور حتى اخرجته من بين اخواته وقلت له :
« تعال يا هذا ، واخذت اقلب صفحاته كما يفعل المرء بالحروف يريد أن يشتريه
لعيده الاضحى ؟ ! » والحق اقول انه اعجبني ! وانا القى الدكتور كل يوم واحادثه
اكثر مما احادث نفسي ، ولكنك قلت لنفسي وهو لا يدري : « لا يا شيخ ! دع
كتاب الدكتور الى سواء ، فان للزمالة حقاً واجب الرعاية وستخجل ان تلقاه
بوجهك هذا إن نقدته ، ثم لا اكاد اخلو بنفسي حتى يهمس في اذني ذلك العفريت
اللعين ! ان الادب فوق الصداقة والزمالة ، وان بروتوس كان يقول « انى احب
قيصر ولكن رومية احب الى » ، وان لك كتاباً كما له كتاب فلينقده اذا احب ،
اوليس من شأن النقد الادبي أن يفسد ما بين الصديقين ! وهكذا حتى اقتنعت
وتناولت القلم فكتب به الشيطان ما يأتي : —

« الدكتور طه حسين رجل أنيس المحضر ذكي الفؤاد جرى القلب، تعجبك منه صراحته وتقع من نفسك رجولته وانفته، ويعلق بقلبك اخلاصه ووفاءه، ويشغل عليك أحياناً اعتداده بنفسه ! ولما كان قد ألف ان يملئ كتيبه ورسائله ومقالاته، فان كتيبه وحديثه، حين يجد، في مستوى واحد، كائناً ما كان ذلك المستوى، فلست تفتقد في احاديثه ما تجده في كتابته من الخصائص والشيآت، ويندر في غيره مثل ذلك، ومن شأن الاملاء ان يحول دون مط الكلام وأن يجعل الجمل قصيرة فلا تطول مسافة ما بين اولها وآخرها، وان يغري بالتكرير والاعادة الى حد ما، كما هو الشأن في الخطابة، ومن هنا كان اسلوب الدكتور طه خطابياً او قل ان الصبغة الخطابية فيه اغلب من الصبغة الكتابية، وخصائص تلك وميزاتها اوضح، فهو في الاغلب والاعم يوجه الخطاب الى القارئ كما تفعل حين تحدث جليساً لك، ويقصر جملة ويؤكد عباراته بالتكرير والاعادة، ويلتمس التأثير من طريق ذلك، حتى لتحس وانت تقرأ كلامه كائناً كان يهز قبضة يده حين بلغ هذه العبارة، ويومئ بأصبعه لما وصل إلى تلك الى آخر ذلك.

« والخطابة فن مختلف جداً عن فن الكتابة، واحسب انه لو كان الدكتور قد اتى هذه الرسائل ولم يكتبها، لما جاءت إلا كما هي الآن لو من شاء ان يكون منصفاً وان يوفى كتابة الدكتور حقها ولا يعدو بها مكانها فليست اليها بهذه العين وليزنها بما توزن به الخطابة لا بما تقدر به الكتابة.

« اذن أنا اخرجها من عالم الكتابة؟ نعم ! ولا أراها الا خطباً مدونة. ولست أريد أن أقف حتى هنا. بل ازيد على ذلك وأضيف اليه انها خلت من مزاي الفنين جميعاً. ! فاما مزاي الكتابة فقد عطلت منها لأن صاحبها يملئها املاء ثم لا يعود اليها بتقحيح أو تهذيب، ولو انه كان يتعهدا بعد أن يملئها بشيء من الاصلاح خلت على الأرجح من اكثر ما فيها من التكرير ولعولج بعض ما يعثرها من

العيوب ، ولكنه لا يفعل ، وقد صدق في قوله « انى ما كتبت فصلا الا وانا أعلم انه شديد النقص محتاج الى استئناف العناية به والنظر فيه ، وأنا أقدر أن سيتاح لى من الوقت وفراغ البال ما يمكننى من استئناف تلك العناية وهذا النظر حتى اذا فرغت منه ونشرته السياسة عرضت لغيره فى مثل هذه الحال العقلية التى عرضت له فيها معتمداً ان استأنف العناية به والنظر فيه مستحيماً أن أقدمه الى الناس على ما فيه من نقص وحاجة الى الاصلاح ، والأيام تمضى والظروف تتعاقب ، مختلفة متباينة أشد الاختلاف وأعظم التباين ، ولكنها كانت تحول دائماً بينى وبين ما كنت أريد من تجديد العناية واستئناف النظر ، وأى الكتاب وأى الباحثين لا يشكو مثل هذا فى مثل هذه الأيام التى نعيش فيها ؟ »

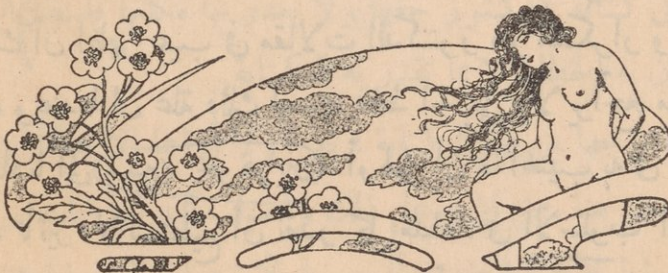
واما خلوها من مزايا الخطابة فلأنه لا يملها على انها خطب تاتى بل على انها مقالات وفصول تقرأ وان كانت طبيعة اعتياد الاملاء تجعلها أقرب الى الخطب منها الى الرسائل . ومتى كان هذا هكذا فأى غرابة اذا قلنا أنها خالية مما لم يتحرره فيها : أى من خصائص الخطب ومزاياها ؟ وكما أن الخطب تفقد كثيراً من قوتها وتأثيرها فى نفوس الناس حين يقرأونها ، كذلك مقالات الدكتور من عيوبها ان الناس يقرأونها ولا يسمعونها يلقيها !

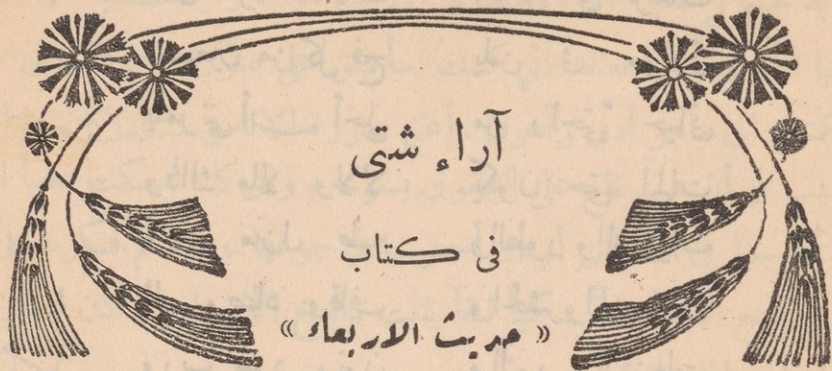
« ولا شك أن اظهر عيب فى مقالات الدكتور هو التكرار والحشو وما هو منهما بسبيل ، وعندنا ان علة ذلك ليست فقط انه يمل ولا يراجع ما يمل بل الامر يرجع فى اعتقادنا الى سبين جوهريين : أولهما أن ما أصيب به فى حياته من فقد بصره كان له تأثير لا نستطيع أن نقدر كل مداه ، فى الأسلوب الذى يتناول به موضوعاته ، وفى طريقة العبارة عن معانيه وأغراضه ، ولسنا نتحرج أن نذكر ذلك ، فانه اعرف بنا من أن يشك فى عطفنا ، بل نحن أعلى به عيناً واسمى تقديرأ من أن نعتقد ان به حاجة الى هذا العطف ، وليس يخفى أن المرء اذا حيل بينه

وبين المزيئات ضعف أثرها في نفسه ، ولم تعد الكلمة الواحدة تغني في احضار الصورة المقصودة الى ذهنه بالسرعة والقوة الكافيتين ، فلا يسعه فيما نعتقد الا الاسهاب ومحاولة الاحاطة ومعالجة الاستقصاء والتصفية .

« وثاني هذين السببين انه استاذ مدرس وقد طال عهده بذلك ، والتعليم مهمة تعود المشتغل بها التبسط في الايضاح والاطناب في الشرح ، والتكرير أيضاً ، بل تفعل ما هو شر من ذلك : واعني انها تدفع المرء عن الاغوار والاعماق ، الى السطوح . وبعبارة أجلى تضطر المدرس أن يجتنب التعمق والغوص ، وأن يكتفي — ما وسعه الاكتفاء — بما لا عسر في فهمه ولا عناء في تلقيه . وتلك آفة التدريس ولولا اني أعرف كلفه به واقباله عليه وهشه له ، لدعوت له الله أن يريحه منه كما أراحي ،

قال المازني : وهنا صرف الله عنى السوء واذهب عنى الشيطان فوضعت القلم وأنا احمد الله على ان لم يستكسبني إلا هذا التحليل البريء .





نما يحبني في الصحراء أن لي فيها سميرين : أحدهما رجل ساذج لا يزال على
 الفطرة على الرغم مما يحمل من عبء السنين على كتفيه ، ومن ثقل لحيته الكثة
 على خديه ! وخير ما فيه أنه يسمح لي أن أمشط له شعراتها الطويلة وأفتلها ،
 بقرش يأخذه ؟ ! وناهيك به من منظر ليس أروح منه للصدر : منظر وجه حوله
 مثلُ الاطار من هذا الشعر المقتول ، وفوقه عمامة خضراء ضخمة تهوى الى
 الحاجبين وتخفي حتى الاذنين ! ولصاحبنا هذا رأى طريف في صديقنا الدكتور طه
 حسين ! فهو عنده من أولياء الله الصالحين ! ولكتابته في نفسه روعة وحرمة ،
 اذا رآه انبسطت أسارير وجهه والتمعت عيناه ثم مد اليه كلتا يديه ، كالمتسول حين
 تدفع اليه صحناً فيه طعام ! وتناوله مُبسملاً محركاً شفتيه بما شاء الله . وسبحان
 الوهاب ! وأمسكه مقلوباً ! فان صاحبنا بفضل الله أمي ؟ ! وأخذ ينظر اليه
 ويُغض رأسه المثلث بالعمامة ويبسبس بشفتيه اعجاباً ، وسر ذلك كله أنه يعتقد —
 على ما فهم مني ! ان الدكتور لا يكلم الناس الا يوم الأربعاء ! ! وانه يتناول في
 كتابه سيرة والبة بن الحباب رضى الله عنه ! وحماد مجرد قدس الله سره ! ! وأبي
 نواس القطب الأعظم ! وقد توسل إلي مرة أن أقرأ له شيئاً من فيض الدكتور
 فتعمدت أن أنشده للنواصي هذه الايات :

مالي وللعاذلات زوقن لي ترهات
سعين من كل فج يلن في مولاتي
يامرتي أن أخلى من راحتي حياتي
وذاك مالا ولالا يكون حتى المات
والله منزل طه والطور والذاريات
الر وصاد وقاف والحشروالمرسلات
ورب هود ونون والنور والنازعات

ثم امكسبتُ لان الرجل كان قد سرى في مفاصله كحميا الخمر فجعل يدق ركبتيه بكفيه ويهز رأسه في كل ناحية هزاً غنياً أشفقت عليه منه وخفت أن ينكسر عنقه. ومنذ ذلك الحين صار النواصي قطباً والدكتور ولياً نفعنا الله بهما. آمين ؟ وبلغ من اكباره لصديقنا وحسن اعتقاده فيه ان سألتني أن أشفع له عنده ليعطيه عهداً ! وهاءنذا أودى الرسالة ! فهل بلغت ؟ اللهم اشهد !

وثنائي السمرين الانيسين سحلية . نعم سحلية ! وأى غرابة في ذلك ؟ ألا يتخذ الناس الكلاب ويصطحبونهم في غدواتهم وروحاتهم ؟ ألم يكن اباؤنا المصريون القدماء يعبدون حتى القطط ؟ والسحالي كثيرة في صحرائي هذه . ويظهر انها أحست مني الحب لها والشوق الى الاتصال بها فخرجت الى الصحراء مرة أو جلست على باب البيت الا برزت لي السحالي من الشقوق وراحت تدور حولي مطمئنة غير وجلة ، وتخطر أمامي وترفع لي ذيلها بالتحية ؟ وبعضها مخطط الجلد منقوش الذيل على نحو ما ترى على آثار آبائنا الفراعنة . وما يدرينا ويدريك ؟ لعل ههنا هيكل قديماً مدفوناً ولعل هذه السحالي كهنة مسحورون ! فان صح هذا فقد تكون على هذه الذبول القصيرة أسرارٌ عويصة منقوشة لو ظفر بحلها واحد من أمثال « برستيد » لجلا لنا من أنباء القرون الخالية وحقائق الطبيعة الماكرة ما ينقب عليه أمثاله عبثاً في فداقد الصعيد !

ولا بد لحبها والفتها اياى واطمئنانها الى من سر ، وأحسب به انها لمحت فى
مشابه منها ! أو كآني بها تعتقد أني كنتُ سأخلق على صورتها ثم عدل بي خالق ،
جلت حكمته ، الى ماهو أدنى وأهون . أعنى صورة الاناسى ! فان كان هذا هكذا
فاعله السبب فى أن عيني تقع على الشقوق بسرعة ، وانى كلما أمسكت عصاً الفيتنى
أعالج أن أغرسها فى الأرض أو أن أحفر بها فى جوفها ، ولكم فكرت فى هذا
فتمنيت أن يتيح الله لنا عالماً ذكياً لبقاً يثبت تناسخ الأرواح ! اذن لكان هذا
أبسط حل لهذه المعضلة !

وأنا ألا حظها وأجعلها قيد عيني كلما ذهبت تنساب على الرمال أمامى . ولقد
خيل لى يوماً ، وأنا أرامق واحدة منها ، انها أطرقت قليلاً ثم رفعت رأسها الدقيق
وحملت فى وجهى بعينين خلتها عيني كاهن مسحور ، وقالت لى بصوت أجش
يفيض عطفاً ومرثية « مساكين أبناء آدم ! ما أشد جهلكم وأقل استغناءكم عن
الكتب . أوليس هذا الذى يمينك كتاباً ؟ » قلت « نعم غير انى لا أقرأه لا تعلم
منه بل لا نقده » فابتسمت كالساخرة وقالت « وما أشد غرورك أيضاً ! » ثم أمالت
رأسها وأغمضت احدى عينيها وسألتنى بلهجة مبطنه بالزرايه « وأى كتاب تقرأ ؟
حدثنى ، فقلت « هذا كتاب وضعه من يدعى الدكتور طه حسين فى بعض من
كانوا يدعون أبانواس ويشاروا والحسين بن الضحاك وكلهم ، فيما أرى من هيئتك ،
مغمور خامل الذكر لم ينتشر به الصوت الى عالمك ! ، فدارت حول نفسها من
فرط الضجر دورتين أو ثلاثاً ثم لفّت ذيلها حتى أدنته من رأسها ولبثت هنيهة
تأمل نقوشه الخفية السر ، ثم التفتت الى وقالت « وما دكتورك هذا ؟ » قلت
استاذ فى الجامعة يدرس الادب والتاريخ أو كليهما أو لا أدري ماذا ! ، فبدا
عليها الاهتمام وتركت ذيلها يعود فيمتد خلفها على مهل ، وقالت « أدب ؟ وماذا
كانت تخسر الدنيا لو لم يظهر فيها أدباؤكم هؤلاء ؟ بل لو لم تخلقوا فيها يا أبناء آدم ؟
أكانت تكف الأرض عن الدوران ؟ أم كانت تستوحش خلوها منكم رائحين

غادين فوق ظهرها ومن جشك المُرمة في جوفها ؟ ودكتورك هذا الذى يدرس
في الجامعة هل يستمع اليه أحد ، فقهقهت ، فغيظت وابتدرتني بهذا التعنيف
« ماذا يضحكك يا هذا ؟ » فقلت « معذرة سيدتى ان كنت أسأت الأدب ! نعم
يذهب اليه الظماء الى المعرفة ليكرعوا من معين علمه وأدبه . ولا نكران انه ليس
سوى إنسان ، لا سحلية ، ولكنه يعرف بعض الشيء » فقاطعتنى بقولها
« اجبنى ماذا تخسر الدنيا أو تخسرون انتم لو فقدتم هذا الكتاب بل ما عندكم
من الكتب ؟ » فخرّ في نفسى هذا التحقير الذى تلج فيه ونهضت عن كرسيّ وقلت
« انى احتج ياسيدتى على هذه اللهجة وأؤكد لك . . . »

« اتكلم نفسك ؟ »

فالتفت مذعوراً الى مصدر الصوت فاذا قريب لى ينظر الى قلقاً وقد زوى
ما بين عينيه ! فعدت الى كرسي وعالجت نفسي حتى ثابت الى ثم شرعت أطمئنه
ولكن هيهات . . . !!

وقد كفت بعد ذلك عن محادثة السحالي العالمة واعتضت منها محادثة القراء . . . !
غير انى اذني ما انفكت تطن بقولها « ماذا تخسر الدنيا أو تخسرون انتم لو فقدتم
هذا الكتاب بل كل ما عندكم من الكتب ؟ » وانى لأردد سؤالها هذا الآن
وأعيده على سمعى ويؤلمنى ويكوى غرورى الجنسى وكبريائى النوعى أن يكون
الجواب سلباً قاطعاً ونفياً جازماً ، أى لاشئ ! فأما الدنيا فلا تخسر شيئاً على
التحقيق . وأما الناس فبههم كأجهل ما كانوا أو كأكمل ما يمكن أن
يكونوا علماً ، فما أرى هذا يقدم أو ذاك يؤخر . ليس الفناء الشامل هو المال
على كل حال ؟ أجيال تمضى وأخرى تأتى ، كالحيلالات التي تراءى للحالم ، حتى إذ

استيقظ المرء اختفت ! كذلك الطبيعة تحلم بنا الآن ثم في الصباح يخلو رأسها من أشباحنا !! ولعن الله السحالي فقد سودت بسؤالها عيشي حتى لقد صرت كما أقول :

أرى رونق الحسناء في ميعة الضبا فيوضع بي شؤمُ الخيال . ويعنق
ويُشهدنيها في التراب مرمةً وقد غالها غولُ الحمام الموفق !

ونطبق سؤال السحلية على كتاب الدكتور ونسأل نحن بدورنا : هل فيه من جديد ؟ هل زادت معارفنا به قليلا أو كثيراً ؟ أكننا نكون أجهل مما نحن الآن لو لم يكتبه ! واذكر أن الأدب العربي ليس إلا بعض الأدب العالمي ، وإن الدكتور لم يتناول في كتابه سوى جانب واحد من فترة من عصر من عصور الأدب العربي . والجواب على هذه الأسئلة التي أوجت بها إلى السحلية اللعينة ، نعم ولا . وأعني بذلك أن الدكتور لم يزدنا علماً بالعصر العباسي ولم يضيف إلى ما نعرفه عنه جديداً ، فلو لم يكتب هذه المقالات لما فاتنا شيء يذكر من هذه الناحية . ولكن هذه المقالات كشفت عن جانب من جوانب نفسه هو ، لم يكن يتأتى لنا العلم به والاطلاع عليه لو فقدنا هذه المقالات . وهذا هو الذي رجحناه . والواقع أننا جميعاً نترجم لنفوسنا ونحدث الناس عنها ونكشف لهم عن دخالها حين نكتب مؤرخين أو مترجمين أو متفلسفين أو ناقدين أو غير ذلك . واحسبني لم أعد الحقيقة حين قلت - والشاهد في البيت الخامس :

يميل الفتي طولَ الحياة ولا يُسرى على الموت إلا ساخطاً جدّاً واجد
ويطلب ، اما مات ، أن يصبوا له معالم تستجدي دموع الخرائد

وتستمنح الأحياء ذكر البوائد
 ليسبي حريم الذكر حر القصائد
 يعرفنا ، من صادر بعد وارد !
 وتخلع ديباج الربيع المعاود
 وتعلم أسباب الردى بالفراقد !
 ولا يحسب أحد أن من الخسارة أن يعرفنا المرء بنفسه ولا يعرفنا بسواه .
 كلا ! فهذا مكسب كبير ورجح طائل .





بسم الله أبتدىء وعليه أتوكل ! فما بقيت مندوحة عن تقلد السلاح وملاقة
دكتورنا في الخلية التي اختارها لنفسه وآثرها على سواها . وعزيز على أن أنزله
وأقارعه ، فاني أنطوى له — أو صرت على الأصح أنطوى له — على الحب
والاحترام . وليتني ما عرفته ولا خالطته ! اذن لبقيت يدي حرة ترتفع حين تشاء
وتهوى بكل قوتها على رأس كتابه فتهشمه ، أولا تضيره وتوهي عظامها ، على
قدر ما فيه من مناعة وقدرة على المقاومة ، دون أن أجعل بالي الى صاحب
الكتاب أو يبرز لي وجهه من كل صفحة فيه كائما ظهر كتابه في الدنيا بفعل
الهواء وتأثير الجو كما يفت العشب من تلقاء نفسه على الصخور ، أما الآن
فوا أسفاه ! ألف الدكتور كتاباً ودفعه الى الناس وقال لهم في تواضع كله كبر :
هذا مارضيت لكم ! وما هو بسفر أو كتاب ، كما أتصور السفر والكتاب ،
 وإنما هي مباحث متفرقة ، لست تجد فيها هذه الفكرة القوية الواضحة المتحدة التي
يعبر عنها المؤلفون حين يؤلفون كتبهم ، وبالغ في هذا الضرب من التواضع
المقلوب ، فأعلن إلى الناس انه لم يعن بهذه المباحث « العناية التي تليق بكتاب
يعده صاحبه ليكون كتاباً حقاً ، وانه يعلم انه شديد النقص محتاج الى استئناف
العناية والنظر ، كائما أراد أن يقول : لستم أهلاً للعناية وان في وسعي أن أولف
خيراً من هذا الكتاب ولكن لمن ؟ ألقراء الصحف السيارة وهم — فلا نفس ! —

جمهور القراء في مصر؟ كلا يا سيدي: «لم يكن بد من أن يتجنب (الدكتور) التعمق في البحث والالحاق في التحقيق العلمي إذ كانت الصحف السيارة لا تصلح لمثل هذا، ولستم وددت أنا — أنا المازني ~~ك~~ حين قرأت هذه المقدمة التي صدر بها الدكتور كتابه، وقبل أن يصل حائك الأقدار ما بين أسبابي وأسبابه، ان أعلمه احترام القراء! ولكنني خالطته فأحببته مع الأسف! واني لا تمرّد أحياناً على هذه العلاقة التي توثقت عراها بيننا، ولا يستقصي عفريت النقد الذي لا يحابي الأصدقاء ولا يجامل الأوداء، فارفع بالفأس كلتا يدي وأشب عن الأرض، وأهم بالضربة تفلق اليافوخ، فيطالعي وجهه الساكن وجبينه المشرق، وهو جالس إلى يحاذيني ويقاسمني ما أعانيه من المضض ويحمل عني شر شطريه، فتهدى قبضتي وتفلت الفأس، وتهوى ذراعي إلى جانبي وتسلمكني عاطفة فنية تجعاني أقول: خسارة! نعم من الخسارة ان أحطم هذا الرأس! فان في الجبين لا تماعاً وفي العظام قوة، وفي التركيب — متانة وأولى بذلك كله ريشة المصور لا فأس التحطيم ومعول الهدم! وليتني كنت مصوراً! إذن لأنطقت هذا الوجه بما عجز عنه قلم صاحبه!، وهكذا كلما نويت للدكتور نقداً أراني أمسح له جبينه وألاطفه وأربته! واني لأنقم من نفسي هذا ولكن ما حيلتي؟ لست أرى لي خياراً: هذه هي الأسلحة ملقاة أمامي. تتخطى يدي من بينها كل درع مسرّدة تتكسر عليها النصال ولا تنشق إلا درعاً من الكتان لا تقى ولا تغني! وتدع المعاول والفؤوس والقواضب والسوط وتتناول ما هو بخيط الحرير أشبهه. لا بأس! ولنبرز له عزلاً من كل سلاح!

وما أظن بالقارئ الا أنه يقول وهو يتلو هذم السطور. وهل أنت أشد احتراماً لقرائك من الدكتور؟ ألم تصدر «حصاد هشيمك» بكلمة قال كل من قرأها انها زراية على القراء وتضاحك بهم؟ وجوابي كلا بالخط الثلث! وبراءة إلى

الله من هذا الوهم الذى ركب بعض الناس ! وهل من الزاوية والتهكم أن أقول ان هذا أقصى ما وسعه جهدى فان رضى عنه القراء فيها والله الحمد والا فماذا لا يصلح كتاباً قد يصلح وقوداً ؟ وفرق ولا شك بين أن أصرح القراء بأن هذا كل ما فى الطوق وبين أن أزعمنى قادراً على خير منه كما ترى أصدق تواضعاً من الدكتور : هو يستخف بقرائه ولا يراهم أهلاً لان يتكلف من أجلهم « التعمق فى البحث والالحاق فى التحقيق العلمى » وينشر لهم كتاباً « شديد النقص محتاجاً الى استئناف العناية والنظر » وأنا على خلافه أقدر فى هؤلاء القراء الذكاء والفطنة فأسبغهم الى الحكم على كتابى على حد قول القائل بيدى لا بيد عمر !

ولم يكذب الدكتور حين قال فى هذه المقدمة « ولقد يكون من الحق على نفسه وللأدب ولقراء هذه الفصول أن أعترف بأنى ما كتبت منه (كذا) فصلاً الا وأنا اعلم انه شديد النقص « محتاج » الى استئناف العناية به والنظر فيه » والدكتور رجل صادق صريح وقد اعترف فوق ذلك بأن الأيام كانت تحول دائماً بينه وبين ما كان يريد « من تجديد العناية واستئناف النظر » وقد احسنت الأيام بما حالت دون مراده ، ولو أنها اتاحت له أن ينقح ما يكتب ويتعقبه بالأصلاح ، لما تركت لنا معاصر النقاد من عمل نبيض به وجوهنا ونسوغ به طول السفتنا . فهل يسمح لنا صديقنا أن ننوب نحن عنه فى تجديد العناية واستئناف النظر ؟؟ ويسوءنا اننا لانحب أن نحكى أسلوبه ونضرب على قلبه فى ارسال الكلام . وليس ذلك لأن أسلوبه الكتابى شاق يتعذر تقليده ، بل لأن لنا أسلوبنا الخاص ومن فضل الله علينا أن ليس لنا فيه مقلدون !

ولقد سمعت الدكتور مرة يقول ، وقد عرض ذكر أسلوبه ، ما معناه انه لا يطمع من الشهرة فى أكثر مما وفق اليه من كثرة المقلدين الذين يقتاسون به

ويحتذون مثاله في طريقة الأداء وفي تأليف الكلام ، وعندى أن الأساليب التي
يسهل محادثتها هي أختل الأساليب من المياسم الشخصية والميزات الخاصة التي
يختلف بها كاتبٌ عن كاتب ، أو بعبارة أخرى هي التي لا تنطبع عليها صورة بارزة
مؤكدة من شخصية أصحابها . وتقريباً لذلك من أذهان القراء نقول لهم أن المتنبي
مثلاً ينطق شعره باسمه وينسب نفسه له ، دون أن يحتاج القارئ أو السامع —
إذا كان قد حصل شيئاً من الأدب — الى النص على أن هذا البيت أو الأبيات
للمتنبي . وما من مطلع على الآداب الغربية يعنيه أن يفتن إلى أسلوب كارليل
الانجليزي مثلاً ولو سيق غفلاً من كل نسبة والآن فلنساءل : من الذي استطاع
أن يقلد المتنبي أو كارليل ؟ اجمع أدباء الدنيا وشعراءها قاطبة وكلفهم أن ينظموا
لك قصيدة على غرار المتنبي أو يكتبوا فصلاً عن مثال كارليل يعجزوا جميعاً
ويبوموا بالفشل لذلك لأن الأسلوب صورة من النفس ، ولكل ذهن التفاتاته
الخاصة وطريقته في تناول المسائل وعرضها ، وكلما كانت هذه الخصوصيات
أوكدَ وأعمق ، كانت المحاكاة أشق والاختفاق فيها أقرب ، فهي لا تسهل الا حيث
يكون الأسلوب خالياً من الخصائص التي ترجع في مرد أمرها الى النفس
وما رُكبت عليه وانفردت به . واليك مثلاً من عالم الموسيقى : ونعني به هذه
الآغاني الشائعة على الألسن والتي يسمونها « الطقاطيق » : يوقعها الرجال والنساء
والغلمان والأطفال على السواء توقيعاً مضبوطاً ، ولا يكادون يتفاوتون الا من
حيث حلاوة الصوت وصلاحه للغناء . ومعلوم ان الذين وضعوا هذه الألحان
وصنعوا فيها هذه الأصوات ، هم من رجال الفن ، ولكن الناس يصنعون أصواتاً
مثلها في كلام غير كلامها ، أى يقلدونها ولا يجدون في ذلك عسراً . أما الأدوار
الكبرى والقطع التي هي ادخل في باب الفن من الطقاطيق ، والتي يشتهر بها
واضعوها ولا تُذكر في الأغلب والأعم ، الا مقرونة — على الأقل في الذهن —

بأسماء اصحابها ، نقول اما هذه فما أقل مقلديها بل حفاظها ! وانت قد تستطيع أن تصنع بركة او بحيرة تشرع فيها على الزوارق ، وتأتى اليها بشقى الاسماك ، وتجعل لحوافها صخوراً ، وتنثر على سيفها الحصى ، وتفرش الأرض على مستدارها بالرمال ، ولكن ايدخل فى مقدورك أن تحفر لنفسك فيما شئت من أرض الله الفضاء بجرأ أعظم طامى الموج ، متدافع الاواذى ، مختلف التيارات ، يتعاقب عليه المد والجزر بتأثير القمر الذى فى السماء ؟ ؟

فليس من دواعى الفخر ان يكثر مقلدوك وأن يكونوا موفّقين فى الحكاية . ولعمري ما ذا يبق من المرء اذا كان يكتب على أسلوب اذا رأيت تقليده حسبته الأصل ؟ ألا يكون الانسان فى هذه الحالة عبارة عن صورة طبق الأصل من سواه ؟ ومعنى ذلك انه يكون انساناً عادياً من الاوساط ، أمثاله كثيرون ، إذ كان لا ينفرد بشئ يرتفع به عن مستواهم

ومن حسن حظ الدكتور ان له مقلدين ولكنهم لا يوفّقون كل التوفيق فيما يعالجون من احتذائه ، لأن أسلوبه ليس خالياً من الخصائص وان تكن من اللطف والدقة بحيث تخفى على مقلديه . وأعرف اناساً يخلطون بين كلامه وكلام سواه غير أن هذا مرجعه الى ضعف التمييز وعدم التفطن الى الخصائص الدقيقة التى لا تأخذها العين أول ما تأخذ

لا أعرف ، ولا أستطيع أن أفهم ، مسألة اسمها « مسألة القدماء والمحدثين » ، ولكن الدكتور الذى أثار نقعها بلا مسوغ يبدى فيها ويعيد ، ويشغل بها من كتابه حيزاً كبيراً فلنسمعه يتكلم : قال « لم يخل عصر أدبى فى حياة الامم التى كان لها نصيب من الادب وحظ فى اتقان القول واجادته من هذه المسألة ، مسألة القدماء والمحدثين . ولم تظهر هذه المسألة فى عصر من العصور أو عند أمة من الامم

إلا أحدثت خلافاً عظيماً وجدالاً عنيفاً وقسمت الأدباء على اختلاف فنونهم الأدبية أقساماً ثلاثة : قسم يؤيد القدماء تأييداً لا احتياط فيه وقسم يظهر المحدثين مظهرة لا تعرف اللين وقسم يتوسط أولئك وهؤلاء ويحاول أن يحفظ الصلة بين قديم السنة الأدبية وحديثها وأن يستفد من خلاصة ما ترك القدماء ويضيف إليها ما ابتكرت عقول المحدثين من ثمرات أنتجها الرقي وأثمرها تغير الأحوال وتبدل الظروف ،

وهو كما ترى — أو فيما أرى أنا — كلام يحتاج الى إيضاح فلنستزد الدكتور سطوراً أخرى :

« وفي الحق أن الاختلاف بين القديم والمحدث ليس مقصوراً على الأدب وحده... لأن الحياة الإنسانية تقوم على أصليين لا ثالث لهما ولا محيد عنهما ، هما البقاء من ناحية ، و الاستحالة من ناحية أخرى . فنحن بحكم البقاء وحاجتنا اليه مضطرون الى أن نصل بين أمس واليوم والغد ، مضطرون الى أن نصل بين القديم والجديد ، مضطرون الى أن نشعر بأن حياتنا الآن هي ، ان لم تكن نفس حياتنا قبل الآن ، فهي أثر قوى من آثارها ونتيجة لازمة من نتائجها . ونحن بحكم الاستحالة والتطور مكرهون على أن نشعر بأن يومنا يغير أمسنا وبأن حياتنا الآن ، ان اشبهت حياتنا أمس من وجه أو وجهين ، فهي تغايرها من وجوه .

« واذن ، فنحن بين الشعور بالبقاء ، والحاجة اليه ، وبين الشعور بالتطور ، والحاجة اليه ، مترددون في ميولنا واهوائنا وآرائنا فمننا من يؤثر هذا الشعور بالبقاء فيغلبه على كل شيء في نفسه حتى تصبح غايته الحقيقية ألا يكون الا ابن أمس ، والا حلقة من حلقات هذه السلسلة المتصلة التي لا نعرف لها أولاً ولا آخراً ، وهي سلسلة الحياة . ومننا من يؤثر هذا الشعور بالتطور والاستحالة ، فيكف بالجديد ويرغب فيه ، ويندفع في هذه الرغبة وذلك السكف ، فلا يفكر الا في

شيء واحد ، هو ان يعدو ، وأن يعدو ما استطاع ، الى الامام ، دون أن يقف فيفكر في حاضره ، أو أن يلتفت فينظر الى ماضيه . ويشدد الخلاف ويعظم بين هذين الطرفين المتناقضين ، بين أنصار القديم المسرفين في نصره ، وأشباع الجديد الغلاة في التشيع له يشدد هذا الخلاف ويعظم حتى يشعر به أوساط الناس وجماعاتهم المختلفة التي تخضع للحياة وتحياها هادئة وادعة غير شاعرة بتطور ولا بقاء ، وانما هي محقة لهذين الاصلين تحقيقاً طبيعياً ، غير متكلف ولا منتحل . تشعر هذه الجماعات الوسطى بما بين هذين الطرفين المتناقضين من جدال عنيف وخلاف عظيم فتتوسط بينهما ويظهر منها هذا القسم الثالث الذي هو خلاصة الامة والذي هو المحقق الوحيد لاعتدال الطبع وصفاء المزاج ، والذي هو المحقق الوحيد للصلة الصحيحة المنتجة بين القديم وبين الحديث « اهـ

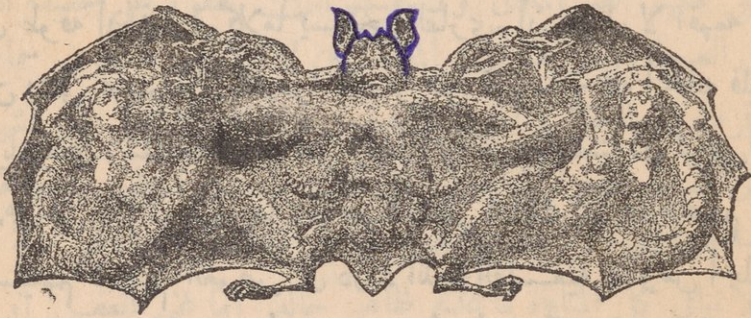
والآن أفهت ؟ كلا ؟ ولا أنا ! وأحسب الدكتور أراد أن يتفلسف فأخذ بأيدينا الى اعماق مجهولة من الهواء الراكد فيما وراء المادة ولم يزد على أن اذكرنا تلك السرايب الرومانية التي تذهب في كل اتجاه والتي احتفرتها أيدي الناس بجشاً عما لا ندري ! وخير لنا أن ندع الدكتور وشانه في هذه السرايب وانرفض أن نتحدر وراءه الى هذا الظلام الدامس الذي أفاضه على موضوعه ولنبق حيث نحن تحت سماء الله المجلوة وبين مظاهر الحياة والطبيعة ، وليهنه البقاء والاستحالة ، نسأل الله له السلامة !

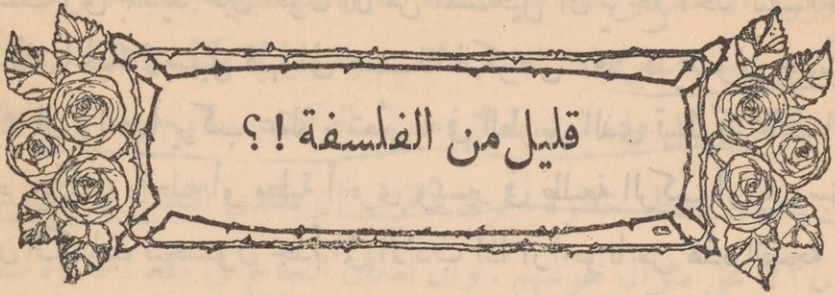
المسألة أبسط من ذلك : أدب خلفه لنا الآباء يحسبه بعض المعاصرين المثل الأعلى ، وقد يكون كذلك ، أو لا يكون ، ويتوهمون انهم يستطيعون بالمحاكاة أن يبلغوا مبلغهم ، وانهم اذا استعاروا أجنحة النسور حلقوا مثلها في سماء الحياة وان في وسعهم أن يوفقوا بين روح العصر الحاضر وأساليب التفكير والحياة القديمة . وهناك قوم آخرون مثلي ومثل الدكتور لا يعنون أنفسهم بهذا التوفيق

ولا يتحرون الا شيئاً واحداً هو الابانة عما في نفوسهم . وهؤلاء فريقان : فريق يُعنى بأن يدرس براءات الادب القديم وفريق لا يكثرث لذلك . فالامر كما ترى لا يحتاج الى كل هذه الفلسفة التي حصب الدكتور بها وجوهنا في فاتحة كتابه . وأريد أن أخطو خطوة أخرى لأقول ان مقلدى القدماء لا يقلدونهم ولا يفسجون إلا على منوال نفوسهم . وان امكان النجاح في هذه المحاكاة مستحيل ، وانهم حين يكتبون لا يحتذون مثلاً قديماً ، وانهم واهمون إذ يظنون انهم يطبعون على غرار السلف . وان السبب بسيط جداً وهو أن نجاح التقليد يستلزم أن يتكلف المرء أساليب تفكير عني عليها الزمن ، وأن ينظر الى الحياة من وجهة غير ما كثر الايام ، وأن يتخيل جواً لا عهد له به ، وبيئة ووراثة انقطع فعلهما في هذه الايام . ولو أن رجلاً من رجال العصر استطاع أن يتجرد من زمنه الحاضر وأن يكر الى الماضى ويحىء بكلام لا يختلف في شىء عن كلام رجل من كتاب العرب أو شعرائهم ، لكان في نظرى أعظم من ذلك العربى ، وحسبك أن تقدر جهد الخيال الذى يتطلبه أن يرجع المرء بنفسه قروناً !

وخطوة أخرى أخطوها : ذلك انى أنكر انكاراً باتاً أن فوق ظهر الكرة الارضية في هذا العصر رجلاً يكتب كالعرب . وهذا صادق افندى الرافعى زعيم من نسيمهم المقلدين وأنصار الأدب القديم : أى عربى كتب أو يمكن أن يكون قد كتب مثله ؟ وليس المقام مقام مفاضلة وانما هو مقام محاجة . وهذه جملة مستقلة من كلامه فيما سماه من كتبه « السحاب الاحمر » ، لم أتخيرها ولكن وقعت عيني عليها اتفاقاً ، ويجدر بى قبل أن أنقلها أن أعلن انى لم أفهمها ! وهى قوله « قد يتغير الرجل في نظر امرأته حتى تقول له : يا أنت الاول ويا أنت الثانى ، ولكنى عرفت رجلاً قال لامرأته : يا أنت الخامسة والخمسين ! »

ولست آتى بجديد حين أقول ان من المستحيل أن يرجع أحد بنفسه الى عهد العرب لأن الحياة لا سبيل فيها الى هذا النكوص . فلا قديم ولا جديد ، وكل ما هنالك ان واحداً يركب عقله ويتعثر به في الطريق الذي تسلكه قافلة العصر ، وأن آخر يركب رجله أو مطية أخرى ويسير في طليعة الركب أو بين سواده وان الكتاب ليحسنون جداً الى الأدب اذا أراحونا من هذه الضجة الفارغة التي أثاروها حول القديم والجديد ، فان الزمن ماض لا يثقل رجلاً ، فمن سايره فهو معه ومن شاء أن يتكلف المحال فسينقطع عن القافلة وأمره الى الله





قليل من الفلسفة !؟

نستأذن القراء الكرام في قليل من الفلسفة . ولهم علينا عهد الله ألا نعود الى ذلك . لا لان الفلسفة بما يعسر عليهم « هضمها » ولا لان « الصحف السيارة لا تصلح لمثل هذا » كما يزعم صديقنا الدكتور طه حسين في مقدمة كتابه الذى ملأته لكثرة ما ذكرته ، بل لاني لا أحسن هذا الضرب من الكلام . وما لنا لا نتفلسف وقد تفلسف الدكتور ؟ أترى ما تيسر له يُعجزنا ؟ ألا يدخل فى طوقنا كما دخل فى طوقه أن نسوق كلاماً يستحى القارىء أن يقول لا أفهمه ؟ وما دام فى الدنيا من يشق عليهم أن يعترفوا بالعجز عن فهم ما يزعمه أصحابه فلسفة ، فان الدنيا بخير ياسيدى ، ولنتفلسف فيها نحن أيضاً ! وأحر بفلسفتنا أن ترضى القراء وأن تكسبنا ثناءهم حتى اذا لم يفهموها ، كما هو المنتظر ! ذلك انها دفاع عنهم ! فما أطيبنا والله ! فى سبيلهم نتجشم الغوص فى درك اللجة الفلسفية ، ومن أجلهم نقامس حيتانها المخوفة ونعرض لان يُطبق علينا أحدها فكّه الرهيب ويتلعبنا بكل ما ننطوى عليه من قدرة وحذقة ، أو لأن نغرق ونرسل فى النهاية الى جانب الدر الذى لا نعود به ، وبين الحصى والطين والحجارة التى نرتطم فيها . ولن ينفعنا القراء حينئذ ، وقانا الله شر خدمتهم !

ويغرينى باعتساف الفلسفة ومحاولة الركض بين وعورها ما أشرت اليه فى مقالى السابق ، وأسلفت عليه القول من زراية [✕] دكتورنا على القراء ، واعتباره إياهم غير أهل لأن يتكلف من أجلهم « التعمق فى البحث واللاحاح فى التحقيق العلمى

إذ كانت الصحف السيارة لاتصلح لمثل هذا ، لا يا صديق الدكتور . غلادة ،
لو وسعك هذا الذى تقول انك تجنيه لما أحجمت عنه ولا صدك الاشفاقُ على
رؤوس القراء والترفقُ بأدمغتهم . ولو كان فى جعبتك ما هو أغلى وأثمن لما طويته
عن العيون ولا حشمت وتلطفت وألححت فى عرضه ولرفعته قبلنا من كل ناحية
وليس الدكتور وحده هو الذى يفعل ذلك فاننا جميعاً مع الأسف هذا
الدكتور ، وما منا الا من يطيب له أن يدعى أنه قادر على خير مما يصنع ، وكما أن
الفقير يتظاهر بالثراء ويحب أن يوهم الناس انه أغنى مما يدل عليه ملبسه ومسكنه
وطعامه وسائر ما عسى أن يبدو لهم منه ، ويستنكف أن يعترف بخصاصته ورقة
حاله ، كذلك نحن معاشر الكتاب : نزعم كل معدم منا أو من لا يملك الا فكرة
واحدة انه غنى العقل ، وربما أغرق فى الدعوى فقال انه مليونير ! والناس فى
العادة لا يخفى عليهم الغنى المادى ولا يعيهم أن يقفوا على حقيقة الدعوى فيه
ونصيها من الصحة ، ومن هنا ترى المفلسين لا يزالون يكتبون جماع دعواهم
ليجعلوها أقرب إلى العقل وأحرى بالتصديق ، إذ كان لا يقبل ممن يمشى فى أسمال
بالية ويسكن كوخاً حقيراً أن يقول أن المال عندى قناطير مقنطرة ، ولكنه
لا يدفع السامعين إلى الانكار والجزم بكذبه إذا ادعى انه ادخر مائة جنيه . فان
مائة جنيه لا تنافى كل المنافاة ما عليه ظاهرُ حاله . أما غنى العقل أو الفكر فما
الحيلة فى دعواه ؟ ما طريقة حسابه والحكم عليه ؟ انه غنى يدعيه لا الكتاب
والشعراء والعلماء وحدهم — ولو اقتصر الأمر عليهم لكان الخطب وسهل الوزن
والتقدير — بل كل من له راس بين كسفيه . وهبك عرفت ما فى رأسه وأخصيته
فقد بقى أن تعرف أهو من ماله الخاص أم بما اقترضه من سواه أو بما يستريبه ؟
فمجال الدعوى كما ترى واسع رحيب ، والحدود هنا غير قائمة ، وكل ذى دعوى
يرى من الاوفق له أن يغض عن دعاوى سواه ليغضوا عنه وليتبادلوا الموافقة
ويتقارضوا التأييد !

وليس من مسكين مغموط الحق غير جمهور القراء . نكتب لهم طلباً لا عجبهم
والتماساً لشأنهم ونشداناً للشهرة واستفاضة الصيت بينهم وتأبى لنا طباعنا المنكرة
إلا أن نجعل الاستخفاف بهم وسيلتنا الى اكتساب ذلك : يعرض أحداً على القراء
بضاعة مزجاة فاذا عوتب أو نوقش اعتذر بالسوق وأنها لا تحتل إلا الخسيس
الرخيص من الأصناف ، ويُصفي ثاب ويغدو كالدجاجة انقطع بيضها فيكبر عليه
أن يقول فرغ رأسي ، ويروح يقول أن الأرض غير صالحة للبذر ومن الحق أن
أحاول زرع أرض ظهرها صفوان ، وقد علم أن العيب عيبه لا عيب التربة ، وأن
ما لا وجود له إلا في رأسه — أن كان فيه شيء — هو في حكم المعدوم ، وأنه
لا وجود لخاطر على الحقيقة إلا اذا ترجمه الجمهور عن صاحبه ، ويجيء ثالث بكلام
لا يكتبه بالقلم كما يكتب الناس ، بل بالبرجل كما يقول صديقنا الاستاذ العقاد في
وصف واحد من هؤلاء ، فاذا قلت له أنك تكتب ما لا يفهم استشاط وسب
الشمس والقمر وقال ان منزلي أن اكتب ومنزلتكم أن لا تفهموا ، اذ كنت
أختلف عنكم في الحس وفي التفكير وفي الحكم على الاشياء ، وأصدر فيما اكتب
عن الالهام الذي لا ينزل على العامة وأشباهاها ! وهكذا . .

والآن فلنتفلسف ! وفلسفتنا هذه جديدة الا أنها مستمدة من سوانا ، كالحياة
نفسها ، والحياة ابدأ جديدة غير ان حاضرها متسلسل من ماضيها ومرتبطة به .
ويسرنى ان اعترف في مستهل فلسفتي التي ارجو ان اوفق الى بسطها وايضاها اني
مدين على الاكثر لصديقي الاستاذ العقاد وان ما كتبه في « فلسفة الجمال والحب »
وذهب اليه في هذا البحث من ان « الجمال هو الحرية » كان فتحاً مبيناً في عالم
الفلسفة وان قوله في مقدمة كتابه (١) « ان الكون كله والحياة (وهي اعم من
الكون في نظري) والفن ومناظر الارض والسماء — كل اولئك مظهر للتألف

او للتنازع بين الحرية والضرورة ، او بين الجمال والمنفعة ، او بين الروح والمادة ،
 او بين افراح الفن واوزانه : قوى مطلقة وقوانين تحكم هذه القوى المطلقة ، وكلما
 اتسفت القوى والقوانين اقتربت من السمة الفنية والنظام الجميل الذى يبين بالمادة
 صفاء الروح ويسبر بالقيود أغوار الحرية ؟ وهذا الائتلاف هو دستور الفن
 الالهى المحيط بكل شئ وهو فلسفة الفلسفات فى هذا الوجود ، أقول أن قوله
 هذا على الخصوص هو الذى فتح لى الابواب المغلقة التى طالما أوهيت رأسى بنطحها .
 نعم هذا هو دستور الفن الالهى : قوى مطلقة تحكمها وتنظمها قوانين ، وبغير
 ذلك لا نستطيع ، ولو فاضت أرواحنا من شدة التفكير ، أن نعلل ما نلمحه من
 مظاهر التناقض فى الحياة ، وهذه الفقرة بعينها من مقدمة العقادة التى أعلن
 الدكتور طه انه لم يفهمها ، هى مفتاحى الذى سأديره فيما سأتناوله الآن . واذ كان
 لكل شيخ طريقته الخاصة به فسأبدأ بحثى من حيث أريد أنا لا من هذه الرباوة
 العالية التى أشرف العقاد من قمتها على الحياة . وفى مرجوى أن آخذ بيد القارىء
 وأن أصعد معه درجة بعد درجة حتى نبلغ جميعاً هذه القمة

بأيهما يحس الآدمى أولاً : بنفسه أم بغيره ؟ أظن أنه لا شك فى أن أول
 ما يحس به المرء بعد أن يأتى الى هذه الدنيا ويشعر بشئ فيها ، هو نفسه . وفى
 وسع كل امرئ أن يتحقق من ذلك ويقطع الشك فيه باليقين ، وذلك بأن
 يلاحظ طفله لأول عهده بالحياة ، فان كل طفل يظل زمناً غافلاً عن كل
 ما يحيط به من الأشياء والناس ، حتى أبويه بل حتى أمه أو ظئره . وظاهر
 أن احساسه بوجود غيره لا يكون إلا على الأيام ، أى شيئاً فشيئاً ، ولا ينمو
 ويقوى إلا تبعاً لنمو إدراكه لما بينه وبين ما حوله من الناس والأشياء من
 الصلات . ومعنى ذلك أن الاحساس بالنفس أو بالفردية سابق للاحساس بالغير
 ونأشئ قبله . ولك أن تقول بعبارة أخرى أن الغرائز الاجتماعية مكتسبة إلى حد

كبير . وليست كذلك الغريزة الفردية أضف إلى ذلك أن الفرد وجد قبل النوع
فالفردية هي السمة الأولى التي تبديها الحياة أو تبدو معها **ب** وثم سمة أخرى
لا خفاء بها هي أنه لا سبيل إلى الخلط بين اثنين وان التطابق التام حتى بين التوأمين
لا وجود له ، وبعبارة أخرى ، ليس في الحياة فردان يمكن أن تصفهما مترادفان
كما تصف بعض الألفاظ تساهلاً في التعبير . نريد أن نقول أنه لا آخر للتنوع
في صور الحياة . أي أن الحياة مطلقة الحرية في انتقاء الصور التي تبدو فيها
وتتشكل بها وان سبيل الحياة أن تخرج أشكالاً متنوعة وانها لا تتقيد في ذلك
بقالب معين ولا تلتزم فيه ما نلتزم نحن مثلاً في الشعور أحياناً من الوزن أو القافية .
ولا يتعجل القارئ فيعترض فما نريد أن نذهب إلى أبعد من أن « الأصل ، هو
الحرية المطلقة في اختيار الصور والأشكال . ولو أن هذا لم يكن كذلك أي لو أن
الحياة مقيدة بصورة أو صور معينة لا تخرج عنها لكان تعاقب الأحياء تكراراً
سخيفاً لا معنى له . وتصور أن الناس مثلاً يخلقون على طراز واحد لا يتغير
ويصبون في قالب لا يتعدد ! ألا يكون كل جيل في هذه الحالة صورة معادة لكل
جيل سبقه ؟؟ نعم بلا شك ! وماذا يكون معنى هذا التكرار المستمر ؟ لا معنى على
الاطلاق ! وأحر بالحياة أن تكون إذن مسرفة سفينة مملدة . وما أحقها حينئذ
بأن يحجر عليها من يستطيع ؟ !

كلا ! ليس في الحياة إسراف ولا إملال لأنه لا تكرار هناك ولا إعادة .
وكل فرد يخرج من يدى الحياة يكون الأصل فيه أنه نمط قائم بذاته مختلف عما
عداه وحريتها في ذلك مطلقة لا نهاية لها ولا حد **ب** ولكن - نعم « ولكن » -
لا بد من القيد الذي تنظم به الحرية وتضام من التبدد والانحلال المفضيين إلى
العدم : وهذا القيد هو أن الناس لا يخلقون في هذه الأيام كما خلق أولهم من الطين
مباشرة أو من المواد الأولية . وإنما يأتي من إنسان مثله وتخرج صورة الحياة

✍

الجديدة من صورة سابقة أى من أبوين . وهذا الجهاز الذى تمر به مادة المخلوق الجديد يطبعه بطابعه ويترك أثره فيه فيجىء الجديد مشابهاً للقديم . وإذا كان هذا هكذا فكل فرد يأتى إلى دنيانا يكون نتيجة عاملين : حرية الاختيار التى تتوخاها الحياة فى صورها ، والوراثة الناتجة من التناسل والتى ترمي إلى الاحتفاظ بالصورة القديمة وإلى إعادتها ، وهذا هو علة الاختلاف من ناحية والتشابه من ناحية أخرى . والمسألة كما ترى بسيطة سهلة المساغ وليس فيها تعويض بل لا جديد فيها فى الحقيقة ولا فلسفة ! وعسى من يسأل : ولكن ما علاقة هذا بالدكتور طه حسين وبما افتتحت به هذا المقال ؟ وجوابنا ، ان العلاقة وثيقة والصلة متينة . ذلك أولاً أن الدكتور قد شاء أن يتفلسف فى كتابه فلم يبق لغيره عذر إذا لم يتفلسف ؟ ! وثانياً أننا أردنا أن نعلل هذه الظاهرة العجيبة : ونعنى بها تزلزل المرء للجمهور وتظاهره بالاستخفاف به وبرأيه واستصغاره لقدرة . فأردنا أن نقول بلسان الفلسفة (ان من الدلائل القوية على ان الأصل ان الحياة مطلقة الحرية فى أخذ صورها وتنويعها ان كل واحد منا يجب أن يرتفع عن المستوى العام ، بالحق أو بالباطل ، لأن التميز دليل على وفرة الحيوية وإربائها فى المرء على النصيب العادى) ، وهذا التميز هو الدليل من جهة أخرى على تغلب الفردية ، أى قانون الحياة ، على الوراثة التى تحاول ، كما قلنا وكما تعلم ، أن تجعل الناس صوراً متطابقة . ومن الذى يرضى أن يكون صورة مكررة من سواه لا تختلف عنه فى كثير أو قليل ؟ من الذى لا يجب أن يسمو فى نظر نفسه أو فى نظر سواه ، وهو المهم ، عن هذا المستوى العام ؟ وانها لرغبة تنبى عن احترام الحياة وتكشف عما بين قانونها والوراثة من التنازع . فإذا رأيتنى أو رأيت سواي يتسامى عن منزلة الجماهير فاعذره فقد عرفت الداعى الى ذلك والباعث عليه ، واعلم ان « الجمهور » لفظ مرن يسهل فى كل لحظة أن تضيقه وتوسعه وأن تجعله كلما شئت يشمل كل الناس إلا « أنت وأنا » .



القديم والجديد

من الأوهام الشائعة أن الناس مولعون بكل جديد، ومن الأمور التي يشكوها من يتنكبون الطرق المعبّدة أن الناس لا يبادرون إلى متابعتهم حيثما يذهبون. فأى القولين أصدق؟ وبأيهما نأخذ؟

لقد أشرنا من قبل إلى أن سبيل الطبيعة أن تصل إلى غايتها من أهون سبيل، أي أنها تتوخى أسهل السبل وأقلها كلفة وأعظمها اقتصاداً. ولا بأس من أن نعود إلى ذلك بشيء من البيان يحلو غامضه ويحل مشكله. ولنضرب مثلين، أحدهما من الإنسان وثنانيهما من غيره. ولنبدأ بثنانيهما فإنه أخف وأيسر إيضاحاً. تسقط الأمطار على الجبال أو سواها فينحدر الماء ويحتفر لنفسه مسيلاً. فهل علم أحد أن هذا الماء الجارى أثر، منذ سال على وجه الأرض أن يخترق الصخور أو يعالوها وزهد في اللين الدمث الذي لا يشق عليه أن ينساب فيه؟ كلا؟ ما علمنا عن الماء من حماقة كهذه! فهو إذا صادفته أرض صخرية لم يتلبث عندها ريثما يحفر فيها مجراه بل راح يترقرق فوقها. وإذا اعترضته وعور ذاهبة في الجو لم يتجشم أن يعلوها ويطم فوقها إذا وجد مجازاً له عن يمينها أو شمالها. ودع هذا وتأمل الإنسان، وسل نفسك، ما السر في أن المرء يصعب عليه أن يغير ما كوّن لنفسه من العادات؟ أليس لأنها لا تتقاضاه من الجهد ما تكلفه مخالفتها؟ مثال ذلك، أن تكون قد ألفت أن تسلك طريقاً معيناً بين بيتك وبين المكان الذي تزاوّل فيه عملك اليومي. فأنت كلما

ذرت الشمس تكرر ما عملته في الصباح الماضي وتزاييل بيتك ، وتقودك رجلاك وأنت لا تشعر إلى هذا الطريق المعين ، وتدبان بشقلك عليهما فيه كعادتهما في كل يوم . ومن المؤكد أن سلوك هذا الطريق لا يكلفك تنبهاً خاصاً أو تفكيراً ، وأنت حين تمشي فيه وتمر بما تمر به كل يوم لا يلفتك فيه شيء . شأنك في ذلك ، من بعض الوجوه ، كمشأنتك حين تأكل ، تمتد يدك إلى اللقمة فتتناولها ثم ترتفع إلى فمك ومنه تهوى إلى جوفك . وليس لديك عين ترى بها مكان فمك من وجهك . ولسنا نعلم أن يد المرء تخطئ وترتفع إلى الأنف . فقد اعتادت أن تحسن تقدير المسافة وأصبح الجهد اللازم لذلك يبذل بطريقة آلية . وكذلك رجلاك تحملانك في الطريق المألوف وتذهبان بك في منعطفاته دون أن تفكر أنت في شيء . ولكنك حين تسلك طريقاً آخر غير الذي ألفته تلقى نفسك تستعمل عينيك وتجهلها فيما هو أمامك وعن يمينك وشمالك ، وقد تفكر في طوله أو قصره بالقياس إلى طريقك المعتاد ، وفيما هو قائم على جانبيه من المساكن أو الأشجار وغير ذلك ، وقد يعقد ذهنك مقارنات ومقاييس كثيرة ويجرك هذا إلى مواضع شتى قد تشغلك النهار أو بعضه أو أكثر من ذلك وهذا كله جهد لا تبذل شيئاً منه حين تأخذ في طريقك المألوف . وكذلك الحال حين تتناول طعامك بغير اليد التي ألفت أن تتناوله بها

ولم تكن الحياة نفسها تعجز عن أن تخلق الناس في أيامنا هذه كما خلقت أولهم وأسبقهم في الوجود ، أعني من طينة الأرض التي صيغ منها المخلوق الأول — كائناً ما كان هذا المخلوق — ولست أعني بطينة الأرض وحلها ، وإنما أعني المواد الطبيعية الأولية كما هو ظاهر بالبداهة . ولكن الحياة لا تفعل ذلك الآن وقد كفت من زمان طويل لا يعرف حسابه إلا الله سبحانه وتعالى ، عن إخراج المخلوقات على هذا النحو العتيق ، وصرنا نخرج إلى الدنيا بطريقة التوالد إذ كان

خلق الانسان بالتوالد أسهل من اعادة كل أدوار التطور الماضية كلها أريد خلق انسان. ولأن التوالد يتيح المرور بمختزل هذه الأدوار وبسرعة فلا حاجة لتكلف المرور بها على نحو مطابق للأصل. وإذا كان هذا الكلام يحتاج إلى تفسير فليعلم القارئ - إذا كان ممن يجهل ذلك - ان المرء يعيد على صورة مصغرة مختزلة ما مرت به الانسانية من أدوار النشوء، وللقارئ أن يصدق هذا أولاً يصدقه، فان كانت الأولى فله منا الشكر الجزيل على الثقة بنا والاطمئنان إلينا، وإن كانت الثانية فلا ضير عليه أو علينا ولن يمنع إنكاره ان الأمر كما نقول والحال على ما نصف ووقتنا وصدرنا أضيق من أن نتجشم إثبات ذلك له على حين يستطيع هو أن يريحنا بأن يقرأه في أكثر من كتاب واحد

والآن فلنتقل الى شيء آخر، وليحضر القارئ الى ذهنه تلك الآلة الموسيقية التي يسمونها القانون. وهي آلة ذات أوتار كثيرة يحتاج الضارب عليها أن يعيد إصلاح أوتارها كلها أراد أن ينتقل الى « نغمة » مغارة للنغمة الأولى، ومن باب غير بابها. ولكنه لا يحتاج إلى اعداد أوتاره وتهيئتها من جديد إذا كان الانتقال بسيطاً وفي موضع واحد أو مواضع قليلة من الصوت الذي يوقعه ولم يكن عاماً شاملاً. ونحسب هذا معروفاً مفهوماً. وما منّا إلا من رأى ذلك وشهده بعينه. فصاحب القانون لا يغير شد الأوتار ولا يكف عن التوقيع عليها ليعالجها من جديد إذا كان الخروج عما هيأ له أوتاره جزئياً غير تام + وهو حين يحدث هذا الخروج الجزئي عما استعد له بآلته لا يتعبه هذا الخروج ولا يصدمه، ولا يكلفه أو يكلف الأوتار فوق طاقته وطاقتها فيستمر العزف أو التوقيع كأن لم يحدث انتقال ما.

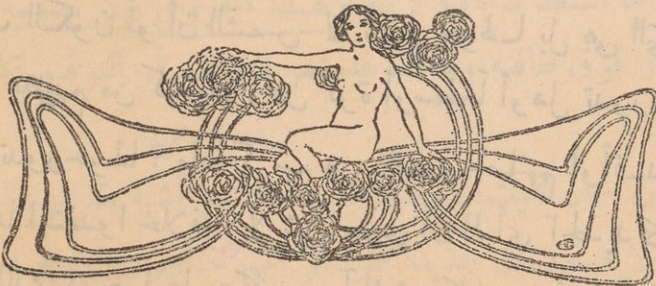
كذلك الناس حين يجيئهم واحد منهم بما هو أشبه بقديمهم الذي ساروا عليه وأفوه، لا يحسون أن جديداً طرأ أو انهم يحتاجون أن يصلحوا نفوسهم

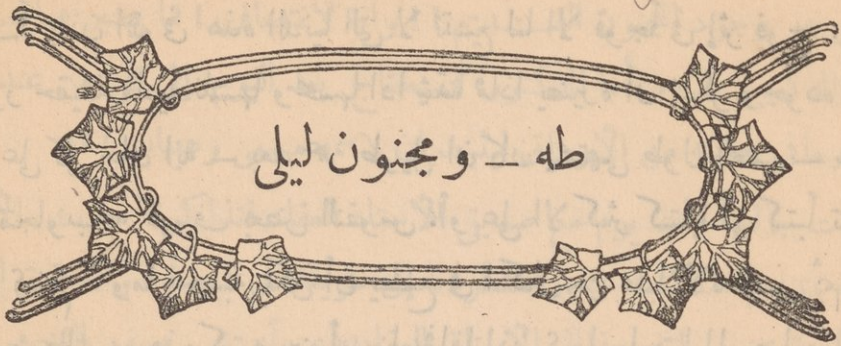
ويهيئوها تهيئة خاصة لتلقى هذا الطارىء واستقباله . ولا يشعرون بدافع إلى المقاومة اتقاء لما يكلفهم اطراح ما اعتادوه من الجهد . ومن الأمثلة كتابات المنفلوطى ، رحمه الله . وهذه لم يكن فيها جديد ، بل كلها مما شبوا وشابوا عليه . وكل ما فى الأمر أنه جعل لكلامه طلاء أو لوناً لا يحمله عن أصله ولا يخرج به عن تياره .
 وشبيه بذلك أن تستحدث ألواناً جديدة فى الملابس دون أن تغير الشهرة (المودة) فى تفصيلها — فلا يصدم الناس منها شيء كبير ولا يحملهم على التردد فى قبولها والاقبال عليها أنها مخالفة لما يجرى عليه العرف . ولكن لنفرض أن حائكاً سن لنا « شهرة » جديدة كل الجدة كأن يرتد بنا إلى خمسين أو ستين سنة ليحي طرازاً كان شائعاً يومئذ ، أو كأن يستحدث أسلوباً تكون فيه الأزارار من الخلف لا من الامام أو تكون السترة أو ما يسمونه « الجاكته » أشبه بالشملة ~~فهل~~ يقبل الناس على تلقف هذا الطراز ؟ كلا ! يتخرجون فى أول الأمر وينكرونه ويظنون يتهيئونه زمناً طويلاً أو قصيراً على قدر بعده من مألوفهم ، حتى يتهيئوا لقبوله شيئاً فشيئاً ويتقنعوا بصلاحه وجماله على الأيام ، ان كان له نصيب من الجمال أو الصلاح . وهذا هو الذى يحدث حين يخرج كاتب أو شاعر على التقاليد والسنن وينهج سبيلاً غير الذى ألف الناس أن ينهجها الكتاب ، أو حين يأتى عالم أو فيلسوف برأى يقلب ما نشأ الجمهور على اعتقاده . ولماذا فى ظنك كان أهل أوروبا فى القرون الوسطى يستنكرون أن يذهب أحد إلى ان الأرض دائرة أو انها ليست محور الوجود وقطب الكون أو أن الشمس لا تدور حولها بل هى التى تدور حول الشمس؟؟ ماذا يعنينهم من كون الأرض كرة أو سطحاً أو هل تدور حول الشمس أم الشمس التى تدور حولها ~~فماذا~~ كرههم من ذلك فى حياتهم أو أفسدها عليهم حتى آذوا القائلين بما اعتقدوا خلافه ؟ لا شيء سوى أن رأى الجديد كان خطوة فى عكس الطريق الذى درجوا عليه كما درج آبائهم وكان من شدة المغامرة وفرط

المعارضة لما لو فهم بمثابة القول بأن الأنف مجعول لمضغ الطعام ، والأذن للشم ،
والعين للسمع ، والناس إنما يسهل عليهم الأخذ بالجديد اذا كان مقارباً لما اعتادوه
وكان كأنه امتداد له ولم يكن مغايراً في جوهره لآرائهم أو أذواقهم

وقد قلت حين سُئِلْتُ مثل الحائك : لنفرض انه سن لنا شهرة جديدة كل الجدة
كأن يرتد بنا خمسين أو ستين سنة ليحيي طرازاً كان شائعاً يومئذ . وأعني بذلك
أن القديم الذي مضى زمنه وانقضى عهده يكون في حكم الجديد وله وقعه وصدمة
حين يراد احياؤه ، لأنه يكون جديداً في نظر من لم يألفوه ، واعتبار من لم
يدرکوا زمنه وعلى ان هذا فرض قائم على استحالة إذ كان احياء القديم يتطلب
أن تتوفر الأحوال والمقتضيات والحالات النفسية والفكرية التي عني عليها الزمن
وطوى صفحاتها

وبعد فليس بصحيح أن الناس مولعون بكل جديد ، وإنما الصحيح انهم يقاومونه
ويهيئون له على الأيام وان جديد اليوم اذا كان صالحاً خليق أن يصبح مألوف
الغد . ومن حق الجمهور علينا أن نحمد له ذلك ، وأن نشكر الله عليه . اذ حقيق
بالدنيا أن تنقلب بيمارسنا أضعافاً لو أن الناس فيها كانوا يبادرون الى الأخذ بكل
جديد واجابة كل مهيب فليس كل جديد صالحاً ، والاتزان في الحياة أزم وأجدي
وأكفل باطراد التقدم من طيش التعجل .





طه - ومجنون ليلي

بسم الله، وما توفيقى الا بالله . وبعد، أيها القراء، فقد هداني البحث والتقصي، مع الاسف الى حقيقة خفيت عليكم - حقيقة ان سرني أنى وفقت اليها . لقد ساءنى والله انها نسخت حلماً لذيذاً عشت به زمناً رغداً، فليست كل حقيقة سارة، وما كل حلم يشتهى المرء أن يفيق من أضغاثه . ولكنه « التعمق فى البحث واللاحاح فى التحقيق العلى » قاتلهما الله، والتحقيق العلى كالجيلوتين ! لا يرحم، ولا يدركه العطف على الاوهام التى يحصدها، والخرافات التى يطير رؤوسها عن أبدانها التى تتكون على الايام كجزائر المرجان .

أ) وأوجز، على خلاف عادتي، فأقول : ان « صديق » الدكتور طه حسين الذى سمعتم به، وقرأتم ما كتبته عنه، شخص لا وجود له فى دنيانا هذه، وانه من مخلوقات الخيال ليس الا ... !!

أتهزّون رؤسكم انكاراً ؟ يا سبحان الله ! وهل هو أضخم شأنأ أو أحق بأن يكون مخلوقاً حقيقياً من « هومر » الذى يذهب الكثيرون من جلة العلماء المحققين الى أنه اسم خرافى ؟ أو من شكسبير الذى يزعم بعضهم انه اسم انتحله واستتر وراءه خلافة ؟ كلا ! لا محل للانكار ورفض التصديق : والقـدرة الالهية التى تقضى الوجود لا يعجزها أن لا توجد أصلاً . والمرء بعد أن يعود تراباً فى تراب تحت تراب، كما يقول الخيام، يجرى ذكره على « بعض » الالسنه، ثم يقل وروده عليها يوماً بعد يوم حتى تطوى صحيفته ويتم محوه فكأنه ما كان . وذلك مرجوعنا

جميعاً باذن الله في هذه الدنيا التي لا تتسع لنا الا فوجاً في إثر فوج . وهبوا الدكتور حقيقة مادية نلسمها ونحسها اذا شئنا فماذا يضيره أن ينكر وجوده ؟ أليس الثابت على كل حال انه — بعد عمر طويل ان كان يشتهي طول العمر — سيحور صدى تتجاوب به كهوف بعض النفوس ، أو على الاكثر كتاباً أو كتباً تتداولها الايدي ؟ نعم . وما أحسبه يمكن أن يطمع في اكثر من هذا لانه ليس ثم ما هو اكثر من ذلك ، وهذه كسبه بين أيدينا ، فماذا اذن ؟ ما حاجتنا الى صاحبها ؟ لماذا ينبغي أن يكون لها صاحب موجود ؟؟ (وياسيدي القارىء ان هذا الذى « يتسمى » الدكتور طه حسين ينكر فى احدى مقالاته ، المعزوة اليه ، ان شخصاً اسمه مجنون ليلى دب على ظهر الأرض ويزعمه طائفة مشودة من القصص ابتكرها اكثر من واحد . ودليله على ذلك ان الرواة تضاربوا فى هذا المجنون وبالغوا وجاوزا المعقول ، ولا أدري ماذا صنعوا أيضاً ! أفلا نستطيع نحن قياساً على هذا المنطق أن نشك فى وجود من نشاء بل ان ننكر وجوده بتاتاً ؟؟ نعم ، يسعنا ذلك بلا ريب ، ومن ترى أحق بأن يطبق عليه هذا المنطق من صاحبه ؟؟ ويعز علينا أن نمحو من الدنيا رجلاً قبل أن تعفى عليه الأيام كما ستعفى علينا أجمعين . ولكن المثل يقول « كما تدين تُدان » ولقد أسلفنا لك ان الدكتور لم يتحرج أن ينكر أن مجنون ليلى وجد فى الدنيا ولم يصدده عن هذا الانكار القاسى حتى ولا العاطفة الفنية . ورحم الله ابن الرومى فقد كان يقول :

ولو أننى أحييت ميتاً ، عشقته بحسن الذى آثرت فيه من الحسنى

ولكن الدكتور يعمد إلى صورة حية فيحاول بمنطقه أن يقضى عليها ويفجعنا فيها ويسلبنا إياها ويحسب أن قصة المجنون يمكن أن تبقى لها روعتها وجمالها وأخذها بعد أن تفقد الأصل وتخسر عنصر الوحدة فيها ، وبعد أن تصبح مرقعة كأسمال المتسولين ! فهذا قد قيض الله للدكتور مجنوناً آخر ينكر وجوده

كما أنكروا وجود المجنون القديم !! وانه لا تتصاف ! فما يضير صاحب ليلي
ما يقول الدكتور فيه . فأما الدكتور فسيحتاج بعد اليوم إلى كل من عنده من
الشهود وما في جعبته من الأوراق ليثبت ان لاسمه مسمى وهيات !!

كنت جالسا ذات يوم مع صديقي الاستاذ العقاد فتذاكرنا حديث الأربعاء
وصاحبه ، بمناسبة ما كتبته عنه ، واستطردنا إلى طريقته في البحث « والتحقيق العلمي »
ثم إلى سيرة مجنون ليلي . فقال الاستاذ العقاد ~~عن~~ عن أى شيء يسفر البحث يا ترى
لو نسجنا على منوال الدكتور فيما كتبته عن المجنون ؟ انه لا يبقى منه شيء كما لم يبق
هو شيئا من المجنون . والحق أقول ان مقترح العقاد راقى ، وان نفسى ظلت تنازعنى
بعد ذلك أن اتولى اعضاء هذه الفكرة فلبثت أن اتردد حتى لم أعد أستطيع
المقاومة ~~وقد~~ أقنعت نفسى بقولى لها ان العقاد لا يضيره أن أسطو على فكرة
أو افكار له فانه أغنى من ذلك ، وأنا أفقر من أن أدعها له وان كنت أردّها بهذا
الاعلان اليه

وبعد هذا البيان الذى لا بد منه أقول ، لنفرض ان مؤرخاً فى القرن الثالث
والعشرين مثلاً تناول حياة الدكتور بمثل تمحيصه وتحقيقه العلمى فهل تكون
النتيجة إلا كما يأتى ؟ : —

يزعمون ان رجلاً اسمه الدكتور طه حسين ، عاش بمصر فى اوليات القرن
العشرين ، وانه صاحب هذه الكتب المختلفة التى نسبوها اليه ونخلوه إياها ، ولكن
كل ما اطلعت عليه مما يعزى له يحمانى على التردد بين رأيين : احدهما ان يكون
هناك أناس كثيرون يتسمون « طه حسين » وثنائهما ان يكون هذا اسماً استعاره
فرد أو عدة أفراد لما كتبوه ونشروه . ذلك انه ، على ما روى ، أزهرى النشأة ،
والأزهر هذا جامعة اسلامية كبرى يلبس طلابها الجبّة والقفطان والعمامة
أو ما مائل ذلك من ثياب العامة فى ذلك الوقت مما تجد نماذج منه فى المتاحف .

فهو على هذا « شيخ » ويقولون انه كان في صدر ايامه هذه يكتب في صحيفة يومية اسمها « الجريدة » ، ولكنى راجعت مجموعة هذه « الجريدة » في دار الكتب فألفت احد أدباء ذلك العصر واسمه « عبد الرحمن شكرى » يسميه « طه افندى حسين » في مقال له . وهو مالا سبيل الى حمله على انه خطأ أو زلة قلم ، لان الفرق بين الافندى والشيخ كان من الواضح ، والاختلاف في التعليم والنشأة والوسط والزمان كان من الشدة ، بحيث لا يعقل أن يقع الخلط بينهما . فهل طه افندى حسين هو عين الشيخ طه حسين ؟؟ ولا شك أن شكرى كان يعرف المسمى « بطه افندى حسين » فقد كانت بينهما ملاحاة ، يدل على ذلك قصيدة نشرتها الجريدة بامضاء « طه حسين » ومطلعها

« قل لشكرى فقد غلا وتمادى
بعض ما أنت فيه يشفى الفؤاد »
وأحرر بمتهاجين أن يعرف كل منهما صاحبه وأن لا يجعله « أفندياً » وهو شيخ . وبما هو خليف أن يضاعف الشك في انهما شخص واحد ، أن الشعر لم يكن من أدوات الشيخ طه حسين وان ناشرى كسبه و مترجمى حياته لم ينسبوا اليه بيتاً واحداً .

ويعزى الى طه حسين ، ولا أدري أيهما ؟ مقال بل عدة مقالات في الجريدة يدعو فيها الى تغيير الهجاء ورسم الكلمات . فهل كان الداعى الى هذا والملمح فيه الشيخ طه أو طه افندى ؟ أما الشيخ طه فكان على ما يقولون مكهوف البصر وكان في ذلك الوقت لا يزال طالباً بالأزهر ، ومن المعلوم ان طلبة الأزهر كانوا من المحافظين ، ومن أشد طبقات المتعلمين استنكاراً للبدع ونفوراً من أصحابها ، وكثيراً ما كانوا يتجاوزون الاستهجان بالقلب أو باللفظ ويتضاربون بما كانوا يتفكحون بأن يسموه « السلاح الاحمر » يعنون به النعال ! ولم يرو أن الشيخ طه كان من أبطال هذه المعارك « الحمراء » ولا من ضحاياها ، وأخلق به ألا يكون ، وقد

كان كما يزعمون ضريراً . فلو انه صاحب هذه البدعة والمنادى بها لأصابه رشاش من قذائفها . زد على ذلك انه ضريير . وما اهتمام الضريير برسم الكلمات ؟ ! ! ماله ولهذا وهو لا يعانیه ولا يكابد صعوباته ؟ ! ان الاهتمام لذلك والتحمس له احق بأن يكونا من رجل يكابد الكتابة بنفسه لا من كفيف ماعليه الا ان يملئ . وهو على كل حال خاطر اولى به ان يجرى ببال مبصر لا ضريير . فالأرجح في الاحتمال والاقترب الى المعقول ان يكون هناك شخصان اسم كل منهما « طه حسين » واحد هما افندى مبصر يقول الشعر ويدعو الى تغيير الهجاء ، والثانى شيخ ضريير يكتب فى الادب

والآن من هو الدكتور طه حسين صاحب « حديث الأربعاء » ؟ أهو الشيخ أم الافندى ، ام هو لا هذا ولا ذاك ، بل شخص ثالث ؟ ؟ أما انه أحدهما فاني أقطع بنفيه . وحسبك الفرق بين أسلوب هذين وأسلوب ثالثهما . وسننقل لك فقرات تريك من التباين ما لا يدع مجازاً للشك فى ان الكتّاب عديدون

قال الشيخ طه حسين فى كتابه ذكرى أبى العلاء « كان أبو العلاء يحرص أشد الحرص على أن يخفى نفسه على القارئ فى بعض رسائله ، ولكن شخصه كان يأبى الا الظهور . وكان ياتى بينه وبين القارئ أستاراً صفيقة من غريب اللفظ ، وحجباً كثيفة من ثقل السجع ، ويقيم حوله أسواراً منيعه من المباحث اللغوية والصور الدينية ، ولكن عواطفه الحادة تأبى إلا أن تخترق هذه الموانع كافة لتصل إلى قلب القارئ فترك فيه ندوباً ، لدغات الجمر أخف منها وقعاً وأهون منها احتمالاً ، وهو أسلوب لا شذوذ فيه كما ترى . ولكن اقرأ الآن الفقرة الآتية من كلام « الدكتور » طه حسين فى نفس الموضوع والمعنى . قال « ذلك ان أبا العلاء كان — كما تعلم — من أشد الناس ايثاراً للغريب وتهالكاً عليه . ثم كان أبو العلاء ، إلى هذا — فيما أعتقد أنا — يتكلف الغريب ويتعمده ليصد عامة الناس وجهالهم

— سواء في ذلك العلماء وغير العلماء — عن قراءته والظهور على ما فيه . وكان
أبا العلاء كان لا يكتب لعصره ، وكان أبا العلاء كان يحس أن عصره خليق ألا
يكتب له ، وكأنه كان يكتب لهذا العصر الحديث الذي نحن فيه وللعصور التي
ستليه ، وكأنه كان يخشى على آثاره الأدبية أن يفهمها أهل زمانه فيفسدوها
ويشوهوها ويحولوا بيننا وبين فهمها وكأنه إنما أقام من الغريب وقواعد النحو
والصرف والعروض والثقافية طلاس وإرصداً شغل بها أهل عصره عن هذا
الكنز حتى لا يصلوا إليه وحتى تسلم لنا نحن خلاصته ، فنترك للقدماء نحوهم
وصرفهم وغريبهم وعروضهم وقوافيهم ، ونفرغ خلاصة هذا الكنز من فلسفة
في الخلق والجماعة والدين .

ثم اقرأ للششيخ طه حسين قوله من ذكرى أبي العلاء أيضاً « من قرأ رسالة
الغفران وأراد أن يفقه معناها حق الفقه احتاج إلى دقة ملاحظة ، وحذق فطنة ،
وبعد نظر ، ونور بصيرة ، وإلى أن يدرس روح الكاتب فيحسن درسه ويعرف
أغراضه فإذا لم يوفق إلى ذلك مرت به رسالة الغفران وهو يظنها من أقوم
كتب الدين »

وقس هذا إلى ما كتبه الدكتور
« أراد أبو العلاء أن يتفكه وأراد أبو العلاء أن ينقد وأراد أن يكفر وأراد
أن يؤمن ولست أحتاط في لفظ ولا أخرج من معنى وإنما أريد أن أكون حراً
فيما أفهم وفيما أقول فالحرية وحدها هي السبيل إلى فهم أبي العلاء هذا كله ، أراد
أن يتفكه فتفكه إلى غير حد ، وأراد أن ينقد فنقد في غير رحمة ، وأراد أن يكفر
فكفر بغير حساب ، وأراد أن يؤمن فآمن في غير شك . أراد هذا كله ووفق
إلى هذا كله أحسن توفيق الخ »

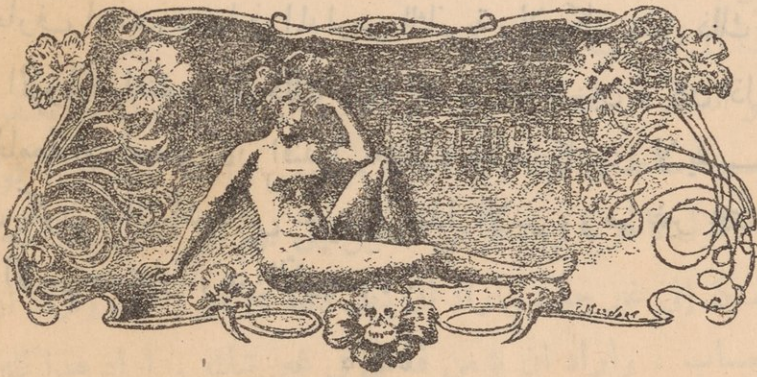
وانما اكثرت من المقسطفات ليتيقن القارىء ان الكاتبين شخصان مختلفان
ولا عجب ان يكونا كذلك فان الأسلوب صورة من النفس . وهكذا صار عندنا

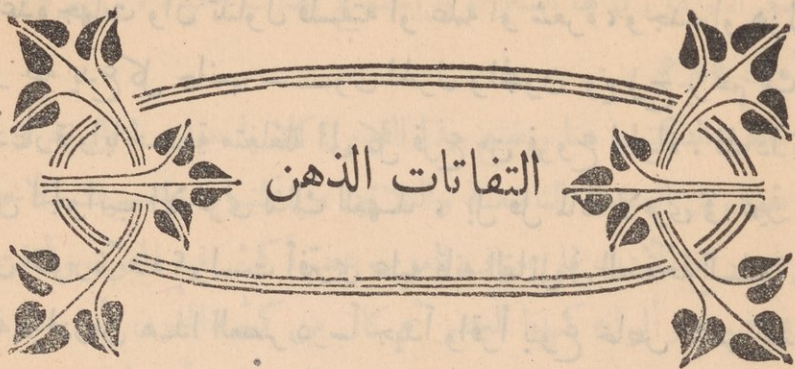
من المشتركين في حمل هذا الاسم ثلاثة اشخاص متباينين : شيخ وافندي ودكتور ويظهر ان هناك اكثر من دكتور طه حسين واحد . ففي بعض المقالات المعزوة الى هذا المتسمى « الدكتور طه حسين » تنويه بأن كاتبها كفيف وفي البعض الآخر ما يفيد انه مبصر فهو يقول « قرأت ورأيت وشهدت » وما الى ذلك من الالفاظ الدالة على الرؤية ويصف لك بعض المشاهد لا تخيلاً بل كما هي كائنة . مثال ذلك بعض رسائل بعث بها من فرنسا وفيها يصف مناظر البلدان ، ومقالات عن روايات شهد تسميها ولم يقتصر في كلامه عنها على تناول القصة بل جاوز هذا الى التمثيل والاداء ، وما يؤكد هذا التعدد ايضاً ان لاحد هؤلاء الدكاترة — فانهم على ما يبدو الى كثر — ابناء يسميهم اسماء افرنجية ، وان الصحف المحفوظة في دار الكتب مختلفة فبعضها يقول الشيخ طه حسين والبعض يذكر الدكتور طه وواحدة تزعمه استاذاً في الجامعة واخرى صحفياً ، ومعروف ان قوانين ذلك العصر لا تجيز ان يكون المرء موظفاً في جامعة اميرية وصحفياً في الوقت عينه . واحد هؤلاء الدكاترة كان مولعاً باللاتينية واليونانية وكان يلح على وزارة المعارف ان تدرسهما في المدارس الثانوية ولا يكاد يتفق ذلك مع الصبغة الازهرية الاولى . اصف الى ذلك ان « الشيخ طه حسين » كان ذا لحية وان دكتور الجامعة او الصحفي كان افندياً حليقاً ، فالامر كما ترى لا يعدو احدى اثنتين : ان يكون هناك أشخاص عديدون بهذا الاسم ، وهو غير محتمل ، او ان يكون هذا الاسم مستعاراً وهو الأرجح .

لا بعد فكيف يرى القراء هذا المنطق ؟ ليس مهلهلاً واهن الأركان متداعي
البنيان ؟ نعم هو كذلك بلا نزاع ! ولكنه ليس اوهى من منطق الدكتور في
كلامه عن المجنون . ولقد أردنا ان تثبت بهذا التطبيق انه ما هكذا يكتب التاريخ

ولا على هذا النحو يكون « التعمق في البحث والالحاق في التحقيق العلمي » ، وأنه إذا كان مجرد التضارب في الروايات والعجز عن التوفيق بينها يكفيان لمحو رجل من الوجود فقد صار ذلك سبيلاً إلى انكار كل شيء.

ولقد تعمدنا فيما آوردنا ان نسوق اشياء من هنا وهناك وان نهمل الصلات السكائنة بينها لأن كثيراً من حلقات السلسلة يسقط مع الزمن ولأن هذا الأرجح هو كل ما يبقى معروفاً عن المترجم له بعد قرن او قرون وهل في تراجم العرب مثلاً اكثر من هذا ؟ هل يعرف احدنا عن شاعر اموى او جاهلي ما هو اوفى او اشد اتساقاً بما آوردنا من حياة الدكتور ؟ كلا ! فاذا كان الدكتور طه يبيع لنفسه ان ينسكرو وجود المجنون اعتماداً على التضارب في الروايات ونقصها وتشويهها فقد ضاع الدكتور نفسه والله ؟ وشبيه هذا ان يختلف شهود حادثة فتسكرو وقوعها





نعود الى الدكتور طه حسين لنُحْيِيه بعد ان نكرناه ولنقول كلمة في التفاتات ذهنه واتجاهات خواطره ، كان حقها التقديم ولأمر ما تأخرت ، ولقد بينا من قبل أن المرء يترجم عن نفسه ويكشف عن دخالها ويعرض على الناس جوانبها في كل ما يكتب ، قصد الى ذلك أم لم يقصد ، ولعل العمد مفسدة ، وأتم ما يكون الكلام حين ينطلق على وجهه في غير تكلف ، ومن الذي وسعه أن يقف على مستمر نفسه ويحيط بما انطوت عليه من مضمراتها ؟ هذا ، ولو لم يكن من ذاك إلا أن لكل امرئ أسلوبه في الكتابة وفي الطريقة التي يتناول بها موضوعه والجهة التي يطرقه منها لكان ذلك حسبنا .

وقد لفتني من الدكتور في كتابيه : « حديث الأربعة » — وهو مما وضع — و « قصص تمثيلية » — وهي ملخصة — ان له ولعاً بتعقب الزناة والفساق والفجرة والزنادقة . وقد ينكر القارئ أن أدخل القصص التمثيلية في هذا الحساب ، ويقول انها ليست له وان كل ماله فيها انه ساق خلاصة وجيزة لها . وهو اعترض مدفوع لأن الاختيار يدل على عقل المرء ويشي بهواه كالابتكار سواء بسواء وانما يختار المرء ما يوافقهم ويرضاه ويحملة عليه اتجاه فكره حتى لا يسعه أن يتخطاه . ولست بمأزح حين انبه الى ذلك . وهاهو ذا حديث الأربعة ماذا فيه ؟ فيه كلام طويل عن العصر العباسي ، وللعصر العباسي وجوه شتى ، وفي وسعك ان تكتسب

عنه من عدة جهات وأن تتناول فلسفته او علمه او شعره ، وجده او هزل . ولكن الدكتور طه يدع كل جانب سوى الهزل والمجون ويروح يزعم لك انه عصر مجون ودعارة واباحية متغلغلة الى كل فرع من فروع الحياة . فلماذا ؟ لاية علة يغضى عن الجوانب الاخرى لذلك العهد ، بل قل لماذا لا يرى في غير الماسجنيين والخليعين صورة منه ؟ ولست أفترى عليه فانه القائل في الصفحة السابعة والعشرين من كتابه : ادرس هذا العصر درساً جيداً واقرأ بنوع خاص شعر الشعراء وما كان يجرى في مجامعهم من حديث تدهشك ظاهرة غريبة ، هي ظاهرة الاباحية والاسراف في حرية الفكر وكثرة الازدراء لكل قديم سواء كان هذا القديم ديناً ام خلقاً ام سياسة ام ادباً . فقد ظهرت الزندقة وانتشرت انتشاراً فاحشاً اضطرت الخلفاء من بني العباس الى ان يبطشوا بالشعراء والكتاب لانهم اتهموا بهذه الزندقة وظهر ازدراء الادب العربي القديم والعادات العربية القديمة والسياسة العربية القديمة بل ظهر ازدراء الامة العربية نفسها وتفضيل الامة الفارسية عليها ، وكانت مجالس الشعراء والكتاب والوزراء مظهر لهذا كله . وليس يعنيننا أن تكون النهضة السياسية الفارسية وحرصها على الانتقام من العرب والاستئثار دونهم بالسلطان مصدر هذا التغير وانما الذي يعنيننا ان هذا التغير قد وجد وقوى حتى ظهر في الشعر ظهوراً جعل انكاره مستحيلاً .

(ولم يكف الدكتور أن يعتمد الى طائفة معينة من شعراء العباسيين وأن يرسم من سيرتهم صورة يزعمها صورة العصر بل هو ينكر ان غير هؤلاء من العلماء أو الشعراء يمثل العهد العباسي : واقرأ له قوله في صفحة ٥٠ من هذا الكتاب

... فقد بينا في ذلك الحديث ان هؤلاء الشعراء كانوا يمثلون عصرهم حقاً وكانوا أشد له تمثيلاً وأصدق لحياته تصويراً من الفقهاء والمحدثين وأصحاب الكلام وان هؤلاء العلماء على ارتفاع أقدارهم العلمية ومنازلهم الاجتماعية والسياسية وعلى ان كثيراً منهم كان ورعاً مخلصاً طيب السيرة لم يأمنوا أن يكون من بينهم من شك

كما شك الشعراء ولها ، كما لها الشعراء ، واستمتع بلذات الحياة « في سره » ، كما استمتع بها الشعراء في جهرهم .

وهل يقف الدكتور هنا ويقنع بهذا القدر ؟ كلا يا سيدي ! بل يجرى الى آخر الشوط ويقول في الصفحة التاسعة والثلاثين من كتابه « خسرت الاخلاق من هذا التطور ورجح الأدب فلم يعرف العرب عصرأكثر فيه المجون وأتقن الشعراء التصرف في فنونه وألوانه كهذا العصر ثم كان من كثرة المجون ، أو بعبارة أصح ، كان من فساد الخلق في ذلك العصر والعصور التي وليته أن ظهر فن جديد من الغزل لم يكن معروفاً في الجاهلية ولا في صدر الاسلام ولا في أيام بني أمية وإنما هو أثر من آثار الحضارة العباسية ، هو أثر أنشأته هذه الحضارة الفارسية عندما خالطت العرب أو عندما انتقل العرب اليها فاستقر سلطانهم في بغداد ، وهذا الفن الجديد هو الغزل بالغلبلان الذي سنحدثك عن خصائصه في غير هذا الفصل »

واذا سمعت رجلاً يقول ان الاخلاق فسدت وخسرت وان الأدب ربح من وراء ذلك أفلا ينهض لك العذر اذا قلت انه ينبغ عن هذا الفساد ويسوغ هذه الخسارة ؟ نعم بلا ريب ، وأنت تحس من كلامه الرضى والارتياح ، ومن الذى لا يشعر بذلك حين يقرأ قوله في عقب ما سبقنا لك « وإنما الذى يعنيننا الآن ان نلاحظه ان هؤلاء الناس الذين وصفنا لك ما وصلوا اليه من شك في كل شيء وعبت بكل شيء واسراف في المجون واللهو كانوا يجتمعون ، ويجتمعون كثيراً اكثر مما كان يجتمع أسلافهم ، وكانت اجتماعاتهم ناعمة غضة فيها اللهو وفيها الترف . كانوا لا يجتمعون إلا على لذة ، إلا على كأس تدار أو اثم يقترب وكانت اللذة والآثام حديشهم اذا اجتمعوا ، يتحدثون فيها شعراً ونثراً ، وكان الدين واللغة والفلسفة حديشهم أيضاً ولم تكن اجتماعاتهم تخلو دائماً من النساء فقد كان

الاماء الظريفات يأخذن منها بنصيب عظيم وكانوا يجتمعون في الحانات والأديرة وفي بيوت الامراء والوزراء وفي بيوتهم الخاصة فيلذون ويتحدثون فأنت تستطيع أن تتنبأ بمقدار ما كان لأحاديثهم هذه من أثر عظيم في الأدب العربي والعقل العربي ، كانت هذه الأحاديث عذبة غير متكلفة ولا ثقيلة الروح . كانت تصدر عنهم عفواً فتمثل عقولهم وشعورهم وقوة حرصهم على اللذات وشدة شغفهم بالجديد أحسن تمثيل « اه ص ٤٠

ثم مضى يورد سير أبي نواس ومن اليه من مثل الوليد بن يزيد ومطيع ابن اياس وحماد مجرد والحسين بن الضحاك ووالبه ابن الحباب وابان ومروان ابن أبي حفصة ويقول في بيان الحكمة في ذلك انه لا يريد أن يكتفي بالقول ، بأن القرن الثاني للهجرة على كثرة من عاش فيه من الفقهاء والزهاد واصحاب الشك والمشغوفين بالجد انما كان عصر شك ومجون وعصر افتتان والحاد عن الاخلاق المألوفة والعادات الموروثة والدين أيضاً وانما اريد ان اشخص حياة هؤلاء الشاكين المسرفين في المجون تشخيصاً لا يجعل الى الشك فيها سبيلاً ثم أريد أن أبين ان هؤلاء الشاكين المسرفين في المجون ، ان سخط عليهم نفر قليل من الفقهاء واصحاب الزهد فقد كان الناس جميعاً على اختلاف طبقاتهم وأهوائهم ومنازعاتهم يحبونهم ويميلون اليهم ويتفككون بهم ~~بما يوصفون به~~ من ظرف وما يروى عنهم من هزل ومجون واذا كان هؤلاء الشعراء واصحابهم من حرية الرأي ومن الاسراف في حب اللذة والتهالك عليها سرّاً وجهراً بهذا الحد واذا كان الناس بهم معجبين وعندهم راضين ، اقول : اذا كان الأمر على هذا النحو فليس عندي شك في ان هذا العصر الذي عاش فيه هؤلاء الشعراء وهؤلاء الناس الذين كانوا يعجبون بهم لم يكن عصر ايمان ويقين في جملته وانما كان عصر شك واستخفاف وعصر مجون واستهتار باللذات ، اه ص ١٨٤

وحسبنا هذه المقتطفات التي تعمدنا الاستكثار منها ليمتني كل شك في ان الدكتور يلح في اثبات ما يذهب اليه وان هذا الرأي الذي عن له وعالج اثباته مستغرق لذنه وانه يصرفه عن اجالة الفكر في كل جانب آخر من جوانب الحياة في ذلك العصر .

ولا يسمح لنا ما نقصد الى تبينه بمناقشة الدكتور في رأيه لئلا يختلط الامر علينا وعلى القراء ونكتفي بملاحظة واحدة هي انه (ما من عصر يمكن ان يكون له جانب واحد كما يريد ان يصور لنا العصر العباسي) وانه لم يخل زمن قديم او حديث من مثل ما يصف الدكتور ، ولو ان كاتباً تناول عصرنا الحاضر لألقى مجال الكلام ذا سعة على نحو ما فعل الدكتور ، ولكنه لا يكون صادقاً ولا دقيقاً اذا ذهب يزعم ان حياتنا الحاضرة قائمة على الفسق والفجور والدعارة والاباحة والزندقة والاحاد من أجل ان الشعراء والكتاب وانا منهم ولا نخر - ذكروا الخمر وتغزلوا وتشببوا وان الناس يتفكهون في مجالسهم ويرفهون عن نفوسهم بالتلهي والمجانة أحياناً وان ذلك يعجب الفارغين ويروقههم

وبعد ذلك نعود إلى ما كنا فيه وننتقل الى قصص الدكتور ، ولنبدأ بقوله عنها ، فأنا أعترف بأني لا أتخير هذه القصص عفواً وإنما أتخير منها بنوع خاص ما من شأنه أن يهز العاطفة ، ويلد العقل ، أو يدعو إلى العناية والتفكير ، فليس في الأمر مجال للتأول والتحمل والاحالة على الاتفاق والمصادفات فان العمد هنا معترف به . ومن العسير أن نلخص هذه القصص الكثيرة في أسطر قليلة . هذا مطلب لا سبيل إليه . وعلى أنها قصص متداولة ، حسبنا أن نقول ، دون أن نخشى اعتراضاً ، أنه ما من قصة منها إلا وهي تنطوي على نوع أو أنواع من الخيانات ، أو مما يسميه الدكتور « الشر والنكر » . ويقول الدكتور أنه إنما كتبها ، وجمعها ،

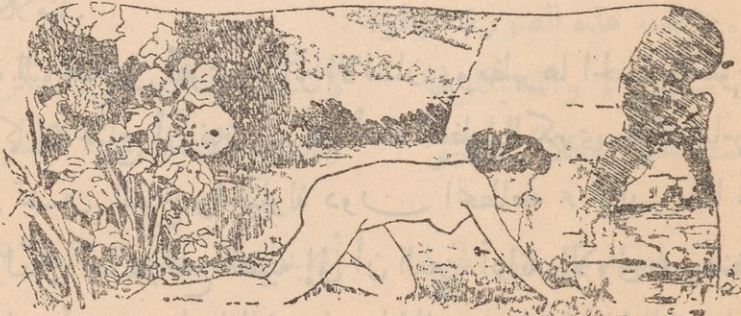
ونشرها ، لأنه يريد أن يطلع قراء اللغة العربية « على نحو من أنحاء الأدب الغربى »
ولأنه يرغب « أن يكون بهذه القصص وما فيها من الآراء الفلسفية والمذاهب
الفنية المختلفة أثر فى نفوس الأدباء والذين يعنون منهم بالتمثيل العربى خاصة يحملهم
على أن يعنوا بهذا الفن الناشئ فى أدبنا عناية ترفع شأنه وتجعله خصباً مفيداً »

وللقارئ أن يسأل : لماذا لم يؤثر الدكتور « نحواً » آخر من « أنحاء » الأدب
الغربى ، وليس هذا كل ما فيه ولا هو خير ؟ ؟ لماذا غنى على وجه الخصوص
بقصص الزناة والزوانى وبحكايات الجهاد — كما يقول هو — « بين العواطف ،
والشعور من جهة ، وبين العقل من جهة أخرى . بين العواطف والشعور الفردية
من ناحية وبين القانون والأوضاع الاجتماعية من ناحية أخرى . بين العواطف
وبين الواجب ، وبين العقل وبين الدين ، ثم بين القانون وبين الدين أيضاً . ؟ ؟

ألا ترى أن صنيعة فى اختيار هذه القصص كصنيعة فى اختيار من كتب عنهم
من العباسيين ؟ ؟ فكما أنه ترك أبا تمام والبحتري والشريف ومهياراً والمتنبى
والمعرى من خولة شعراء العرب وفضلائهم ووقع على أهل المجون والخلاعة
والاستهتاك ، كذلك لم يفتق من كنوز الأدب الغربى إلا هذه القصص الحافلة
بضروب « الأثام والمنكرات » حتى حين يلخص قصة دانمركية لا تكون هذه
القصة إلا من هذا النوع . وهو يصف كل قصة يلخصها بأنها « لذيدة » وبأنها « ممتعة »
وقد يعتذر لصاحبها بأنها « ليست شيئاً اخترعه اختراعاً وإنما هى شىء طبعى
يقع كثيراً » ويسأل أحياناً كالذى يريد أن يسوِّغ هذا الشر والمنكر « من الذى
يستطيع أن يوفق بين نفسه وبين واجبه حقاً ؟ » يقرر طوراً أن الحب فى هذه
القصة « حب علماء » ، ويهون عليك ما فى أخرى بأن واضعها « إذا كان يمثل أشنع
الذائل وأقبحها ، وأبشع مظهر للطبيعة الانسانية » فانه « إذا بلغ بهذه الرذائل
أقصى ما يمكن أن يبلغ بها من الشدة والقبح استخلص منها الخير والفضيلة وأظهر

لك أن الانسان قد يكون شريراً ، وان حياته قد تمتلئ بالآثام والمنكرات . ولكن
في هذه الحياة أو في هذه الطبيعة الانسانية قبساً من الخير ، لا تمكث تحتصم
الرزائل وخصال الشر حتى يتولد هذا القبس من اختصاصها ، فما أسرع ما ينبعث
منه ضوء هادئ مريح يبدد هذه الظلمات ويمحو هذه الآثام ، وإذا النفس الانسانية
ظاهرة قد فطرت على الطاهر ، وخيِّرة قد برئت على الخير .

ونحسب الآن أن نزعة الدكتور قد صارت ملهوسة باليد ، فهل لها تعليل ؟
هل في وسع الكاتب منا أن يبين لماذا كان الأمر كذلك والحال على ما وصفنا
للقراء ؟ نعم .
والعلة ظاهرة والكلام حاضر .



العمى والغريزة النوعية

(١)

ليس الأعمى كالبصير . هذه فيما نظن ، قضية مبرمة . ولسنا نغنى أن أحدهما دون الآخر أو أفضل منه ، فليس المقام مقام مفاضلة ، ولكننا نغنى أنهما مختلفان وهل يستوى أن يكون أو لا يكون للبرء في وجهه عينان ؟ أليس لهذه الجارحة عمل يمتنع إذا تعطلت ؟ ألا يحدث كيف البصر تأثيراً في مزاج الانسان وفي تفكيره واحساسه بالحياة والناس ، وغير ذلك مما لا يسعنا حصره ؟ نعم . وان الامر لأوضح من أن يحتمل الخلاف . وسنتناول في هذا المقال وجهاً من وجوه الاختلاف العديدة لعل ذلك يحلو ما أشرنا إليه في الفصل السابق انجازاً لوعدنا واثماً لكلامنا .

✕ ✕ الغريزة النوعية من أقوى غرائز الانسان ، ومظهرها الحب ، كما هو معروف ، والحب — كما لا نحتاج أن نبين — هو أداة التنظيم الكبرى لحياة الناس ، والقوة الدافعة إلى تحسين النوع والحيولة دون انحطاطه . وليس هنا محل الكلام في الحب ولكن هنا موضع التنبيه إلى أن العين أداته الأولى ، والنظر حاسة اجتماعية ، ليس أعون منها على الاحساس بالجمال ومضاعفة هذا الاحساس وتقويته . ومن هنا عجب الناس لبشار بن برد كيف يعشق امرأة « معينة » وهو ضير ، فسأله في ذلك ، أو أحس هو ان الامر يحتاج الى إيضاح وتفسير ، فذكره في شعره . فكان مما قاله :

يا قوم اذنى لبعض الحى عاشقة والاذن تعشق قبل العين « أحيانا »
قالوا بمن لا ترى تهذى فقلت لهم الاذن كالعين توفى القلب ما كانا
وقد أحسن الاحتياط فى قوله « أحيانا » ، فما تستطيع الاذن أن تقوم مقام
العين أو تسد اختلالها ، ولقد صدق ابن الرومى حين قال :

هل العين بعد السمع تكفى مكانه أم السمع بعد العين يهذى كما تهذى ؟؟
ولكل منهما عمل . وتأمل بيقى بشار اللذين سقناهما لك وانظر كيف روى
عن الناس انهم قالوا له انه « يهذى » بمن لا يرى . وما أرى أصلح من هذا اللفظ
ولا أحق بهذا الموضع . وهل هو إلا ضرب من الهذيان الصريح مهما أولته
وكيفما خرجته ؟ ولقد احتاج أن يكرر الرد والاحتجاج لنفسه ، فقال :

وكاعب قالت لأتراها يا قوم ما أعجب هذا الضير !
هل يعشق الانسان من لا يرى فقلت والدمع بعينى غزير
ان تك عيني لا ترى وجهها فانها قد صُورت فى الضمير

وما نشك فى أنها صورة ملتاة ان صح أن من الممكن أن تشمل لضمير الأعمى
صورة ما ، أو يجاوز الأمر معه الاحساس العام . وعلى أى شىء تراه يقيس ؟
ومن أى شىء يؤلف هذه الصورة ؟ وقوله :

ان سليمى ، والله يكلؤها كالسكر تزداده على السكر
بلغت عنها شكلاً فأعجبني والسمع يكفيك غيبة البصر
وقوله :

عجبت فطمة من نعنى لها أيجيد النعت مكفوف البصر ؟
وقوله :

يزهدنى فى حب عبدة معشر قلوبهم فيها مخالفة فلي
فتمت دعوا قلبى وما اختار وارتضى فبالقلب لا بالعين يبصر ذواللب
وما تبصر العينان فى موضع الهوى ولا تسمع الاذنان إلا من القلب

ولامر ما عاج هذا المعنى في قصائد عدة ، ولم يجتزىء بالاشارة اليه مرة .
والعين باب القلب ، كما يقول البحترى

وما كان حظ العين في ذاك مذهبي ولكن رأيت العين باباً إلى القلب

والجمال منظر ، ومعان ، وتعبير . والعين أقدر من السمع واللمس على افادة الاستمتاع به . إذ كانت هي الطريق الأكبر للالتفات اليه والشعور به والاحاطة بمعانيه . ولأنها هي المعين على تأليف الصور الذهنية . وهي صور تتألف من أشتات أخرى علق بالذاكرة وحصلت بالنظر . وبحسبك أن تقرأ قصيدة ابن الرومي في وحيد المغنية وكان بها مشغولاً :

غادة زانها من الغصن قد	ومن الظبي مقلتان وجيد
وزهاها من فرعها ومن الخد	ين ذاك السواد والتوريد
فهى برد بخدّها وسلام	وهي للعاشقين جهد جهيد
مالما تصطليه من وجنتيها	غير ترشاف ريقها تبريد
وغير بحسنها قال صفها	قلت : أمران ، بين ، وشديد
يسهل القول انها أحسن الأشياء	ظراً ، ويصعب التحديد
تتجلى للناظرين اليها	فشقى بحسنها وسعيد
ظبية تسكن القلوب وترعا	ها وقمرية لها تغريد
تتغنى كأنها لا تغنى	من سكون الاوصال وهي تجيد
لا تراها هناك تجحظ عين	لك منها ، ولا يدر ويريد
من هدو وليس فيه انقطاع	وسجو وما به تبليد
مد في شأو صوتها نفسٌ كا	ف كأنفاس عاشقها مديد
وأرق الدلال والغنج منه	وبراه الشجى فكاد يبيد
فتراه يموت طوراً ويحيا	مستلذ بسيطه والنشيد

فيه وشئ وفيه حلى من النغم
طاب فوها وما ترجع فيه
وحسان عرضنى ، قلت مهلاً
حسنها فى العيون حسن جديد
ونصيح يلومنى فى هواها
لو رأى من يلوم فيه لأخفى
ضلة للفؤاد يحنو عليها
سحرته بمقلتيها فأضحت
خلقت فتنة غناء وحسناً
فهى نغمى يمد منها كبير
لى حيث انصرفت منها رفيق
عن يمينى وعن شمالى وقد
سد شيطان حبها كل فج
ليت شعرى اذا أدام اليها
أهى شئ لا تسأم العين منه
بل هى العيش لا يزال متى استخر
منظر ، مسمع ، معان من اللهو ،

مصوغ يختال فيه القصيد
كل شئ لها بذاك شهيد
عن وحيد ، فحقها التوحيد
فلما فى القلوب حب جديد
ضل عنه التوفيق والتسديد
وهو لى المسترث والمستزيد
وهي تزهو حياته وتكيد
عنده والذميم منها حميد
ما لها فيهما جميعاً نديد
وهى بلوى يشيب منها وليد
من هواها ، وحيث حلت قعيد
مى وخلفى فأين عنه أحميد
ان شيطان حبها لمريد
كرة الطرف مبدئ ومعيد
أم لها كل ساعة تجديد
ض يملئ غرائباً ويفيد
عتاد لما يحب عتيد : الخ الخ

وقد أطلنا الاقتباس لانا لا نعرف قصيدة أخرى فى لغة العرب — وقد كدنا
نقول ، أو فى سواها من آداب الأمم الأخرى — هى أجمع من هذه لمعانى الحب
والجمال ، ولأن ابن الرومى تناول فيها المرئى والمسموع ولقد يذكر الكفيف الغصن
والظبي وما اليهما مما يشبه به شعراء العرب ، ولكن هذا منه لا يكون إلا تقليداً
وعلى السماع وبمقدار ما اشربت نفسه من روح اللغة وأساليب التعبير فيها ، ومن

غير أن يكون ذلك صادراً عن صورة في الضمير وأى صورة في ظنك يمكن أن تكون قد حصلت في نفس بشار وهو يقول :

وكان رجح حديثها قطع الرياض كسين زهرا ؟

لاصورة على الاطلاق ! وكل ما هنالك مما دفعه الى هذا التشبيه هو نسيم الرياض المنعش للجسم المحي للنفس . وقد يتناول المكفوف الصوت ووقعه ، ولكن الهيئة والشكل يفوتانه ، ولا يسهه أن يحضر بما يسمع ما يحضره البصير ويتمثله من الصور كما فعل ابن الرومي في وصفه لغناء وحيد فقد تراه يتعلق بهيئتها وسكون أوصالها إذ تغنى واحتفاظها بجمال شكلها فلا عين تجحظ كالوارمة ولا ورید يدر ويمتليء بالدم ويفتخ ويشوه شكل الجيد وانسجامه . وانظر كيف جعل لغنائها وشياً وحلياً « مصوغاً » لاساذجاً لم يعمل فيه الفن ، وجعل الشعر « يختال » في هذا الحلي ، وكيف مثل لك فسحة الخلو وفراغ البال بالقياس الى ما صار اليه من أخذ الحب عليه بالاسداد ، وذلك بقوله « سد شيطان حبها كل فج » وكيف نبه الى ما يمليه النظر ويفيده من معاني الجمال بقوله « ألها كل ساعة تجديد ؟ » وتشبيهه اياها بالعيش الذي لايزال يعرض الغرائب

وما لنا نقول ان بشاراً اضطر أن يعمل عشقه للنساء بأعيانهن وتشبيهه بهن ؟ ما بشار هذا ؟ انه ليس سوى فرد قد لا يصح اتخاذ قاعدة ولكن تأمل أمثال الامم وأساطيرها فانها خلاصة صادقة لتجاربيها وغرائزها . ومن الأمثال التي نجدناها في كل لغة أن الحب أعمى . نعم . ولقد صور القدماء « كوبيد » معصوب العينين . وليس أحذق من هذا الطفل مع ذلك ولا أسد ساعداً ولا أحكم ، وكأنا أريد أن يقولوا انه لا يرى ما لا يحب بل أرادوا أن يذهبوا الى أن كوبيد هذا كله عيون ولولا ذلك ما عصبوها فلففتونا اليها ودلونا عليها . ولو شئنا لاجتزأنا بهذا من أساطير القدماء ، ولكن بنا حاجة الى أسطورة أخرى . تلك أن فينوس أو الزهرة كانت في بادئ الأمر ربة الربيع وبساتين الزهر ، ثم جعلوها ربة الجمال . وفي

ذلك ما لا يخفى من الشعور الباطنى بالعلاقة القوية بين الحب والطبيعة في عيدها
وفي خرافاتهم أن الزهرة هذه مخلوقة من زبد البحر ، ومن حقها أن تولد منه ..
فيما أفطن القدماء وأهدى غرائزهم ذلك أن المحدود الذى يقاس طولاً وعرضاً
لا يروقنا ، ولا يقع من نفوسنا كما يستولى على هوانا ويسحرنا ما يتدفق فيه الحياة .
والجمال ليس شكلاً فحسب ، بل هو أيضاً تعبير ولحظة انتقال كأنما يريد الشكل المجتبى
أن يتدفق فى أشكال أخرى ، وكل ثبات أو تكويم أو ركوز أو حصر مفسدة كما
تحس ذلك من الأنف الضخم أو الظهر المحدود . ومن هنا كان الانسان أجمل
مافى الطبيعة . ومن الوجوه ما يموج فيه تعبير النفس أو حركة الفكر حتى لتكاد
تخطى العين معارفه وتخطئها ولا تراها .

وللعيون نصف الجمال ، وهى مدار السحر ومبعث الفتنة لأنها أنطق الجوارح
وأقدرها على التعبير ، وليس من المصادفات أن ولع الشعراء بذكرها ورمزوا
بها فى كثير من الأحيان الى الجمال وأطلقوا هذا الجزء على الكل ، كما ترى مثلاً
من قول المتنبي :

عزيز أسى من دأؤه الخدق النجل عيام به مات المحبون من قبل

فما يعنى الاحداق على وجه التخصيص ، وأنما هو من قبيل ما ذكرنا . وليس
فى وسع المكفوف أن يحس الجمال كما يحسه البصير أو يتأثر به مثله ، لأنه ليس
محروماً من منظره وحده بل من أكثر معانيه كذلك ، ومما يتصل به عن قرب
أو بعد ، ومن الطبيعة أيضاً . وقد حجب عنه كل ما يمكن أن يقبض به وأحر بأن
لا يكون عنده فرق يذكر بين النساء ، وأن تكون كل امرأة متسربة فى الجففس ،
والاحساس بها احساساً جنسياً عاماً ، وأن تكون النساء كلهن كأنما أفرغن فى
قالب عام ، وقيمهن واحدة من حيث التناسل ، وأن لا تثير الغريزة النوعية
الا رغبة عامة فى الاثنى . لا ترتقى (أى الرغبة) الى درجة التمييز ولا تبلغ أسى

منازله لانعدام ما يعين عليه . وفي وسعنا أن نقول مع قليل من السجوز ان الفرق بين المكفوف والبصير من هذه الناحية ، كالفرق بين الشعوب الساذجة التي لاتزال على الفطرة ، والشعوب التي ارتفعت عن هذا المستوى وصار التميز الفردى فيها حاداً أو بارزاً مؤكداً — تلك تكون الغريزة النوعية عندها عبارة عن رغبة عامة من الذكر فى الانثى ومن الانثى فى الذكر ، وهذه تتوخى التبعين والاختيار ، وكذلك الكفيف تستوى عنده امرأة وامرأة ، وهو اذا اختار وميز لا يكون ذلك مرجعه إلا إلى أسباب لا نخطئ جداً اذا قلنا أنها سطحية أو عارضة بعد أن لم يبق له من الأدوات سوى السمع واللمس وما أقل غناءهما وأشد ضلالتها

٢

المرأة بين بشار وأبى العلاء

السمع واللمس — والشم أيضاً — كل ما للمكفوف من وسائل الاحساس بالجمال ، وهى ، كما بينا ، أقل من النظر غناء ، لأن العين هى الأداة الكبرى . وهى أنفخ الجوارح وأوثق الحواس اتصالاً بالعقل حتى ترى أكثر المجازات فى هذا الباب مستمدة من حركاتها واحساساتها ، والعقل عنها أفهم وبها أقوى وأقدر ، وما يسع الكفيف أن يفهم الجمال أو يحسه أو يتأثر به كالبصير ، والمرأة عنده فى الأعم أنثى يصبو جسد الرجل إلى جسدها ، وأداة يرضى بها غريزته . وهو مهما بلغ من السمو يظل إحساسه بالمرأة أدنى إلى الطبيعة الحيوانية منه إلى المعانى النفسية . وسنورد لك أمثلة من شاعرين متباينين أشد التباين : بشار والمعرى . وكان أولهما حيواناً والثانى إنساناً ، وكان بشار إن فرغ من التشبيب بالنساء ، أو على الأصح من وصف ما يشتهق اليه منهن ويطلبه عندهن من اللذات ، لم يفرغ من ذكر فحولته ، وتنزيهه فهو أبداً حيوان حين يذكر نفسه وحين يذكر المرأة . فمن ذلك ما حكوه من أنه علق امرأة ورأسها يسألها أن تواصله فقالت لرسوله

« أو لك فيّ وأنت أعشى لا ترائي فتعرف حسنى ومتمداره ، وأنت قبيح الوجه
فلا حظ لي فيك ؟ فليت شعري لأي شيء تطالب وصال مثلي ؟ » فأدى الرسول
الرسالة . فقال بشار عد اليها فقل لها — ونحن نتمسك عن إيراد الأبيات لفرط
ما فيها من الفحش ، وحسب القارىء أن يعمل أنه أهمل كل ما يمكن أن يتفاضل
به الرجال ولم ينظر إلا إلى الجانب الحيوانى الصريح الذى يتساوى عنده الناس
والبهائم ، وأخلق بالبهائم أن ترجح على الانسان من هذه الناحية ، وحتى حين
يتخيل حبيبته ، لا يخرج بها عن دائرة الحواس ، ومن ذلك قوله في عبدة

أعددت لي عتياً بجبكمو يا عبد طال بجبكم عتياً
ولقد تعرض لي خيالكو في القرط والخالخال والقلب
فشربت غير مباشر حرجاً برضاب أشنب بارد عذب
والمرأة عنده أنثى تُشتهي وتنال ولا تستعصى على الطالب
قاس الهموم تنل بها نجحاً والليل ، إن وراءه صبحاً
لا يؤئسك من مخبأة قول تغلظه وان جرحاً
عسر النساء إلى مياسرة والصعب يمكن بعد ما جمحا
وهو القائل أيضاً :

لا أبالى من ضن عني بوصل إن قضى الله منه لي يوم جود

وكان يعمل بما يعلم ، وحكايته مع أمانة مشهورة . قالوا كان يبعث بسلامه
إليها فتستمنع فلما أضجرها بالخاصة عرفت زوجها ، فقال لها أجيبييه وعديه أن يجيء
إلى هنا ، ففعلت وجاء بشار مع امرأة أنفذتها إليه فدخل وزوجها جالس وهو
(بشار) لا يعلم فجعل بشار يحادثها ثم قال

أمانة قد وصفت لنا بحسن وانا لا نراك فألمسيني

فأخذت يده ودفعته إلى زوجها ففزع بشار ووئب ؟ ! ومن قوله

قال ريم مرعث فأتى الطرف والنظر
لست والله مدركى قلت: أو يغلب القدر

وله رأى فى شعر النساء يوافق تصويره لمن قال: ما من شعر تقوله امرأة
ألا وفيه سمة الخوثة: ولبشار حكاية ليس أنتم على انحصار الاحساس بالمرأة
فى الرغبة الحيوانية وانتفاء الاهتمام بما وراء ذلك والعجز عن ادراكه، ولكننا
مع الأسف لا نستطيع أن نسوقها لشناعتها فليبحث عنها من شاء فى أخباره المبعثرة
أو فيما جمع له الأديب أحمد افندى القرنى بلونو جز فنقول ان بشاراً لم يكن ينظر
إلا إلى الأنوثة فى المرأة والفحولة فى الرجل، وأنه لم يعرفها سوى متاع يحس
ويشم ويستمتع إليه

أما أبو العلاء فقد كان وقوراً، محتشماً، متشامماً، رافضاً للحياة، مزدرياً للمرأة.
وهى (أى المرأة) عنده لا تضمن عفتها، وأقل ما تجنيه، التبرج. ومن الواجب
أن يداريها الرجل الذى يعايشها، ويسترضيها، ويتقى غضبها ويراقبها، فكثيراً
ما تظهر الغيرة على بعلمها وتسود عيشه من أجل ذلك بينما هى تسقى الخليل ريقها!
لعمرك ما غادرت مطلع هضبة من الفكر إلا وارتقيت هضابها
أقل الذى تجنى الغوائى تبرج يرى العين منها حليها وخضابها
فان أنت عاشرت الكعاب فصادها وحاول رضاها واحذر غضابها
فكم بكرت تسقى الأمر حليها من الغار، إذ تسقى الخليل رضاها
وان حبال العيش ما علق بها يد الحى إلا وهى تخشى انقضابها

ويحول سخطه على الحياة، إليها، ويصب نقمته على رأسها، ويقلب ما يكبحه
من اشتهاه نفسه لها ورغبة جسمه فيها، فيجعله تهالكاً منها على الذات واستهاناً
فى إرضاء الشهوات، ويسامها كل ما عدا ذلك ولا يراها إلا أداة نسل، ومطية
شهوة، ذلول، فهى عنده حية سامة

وإنما الخود في مسارها كربة السم في تسربها
وما فضل النساء ؟ ولأية غاية يطلبن الرجل ؟ أليس للنسل ؟
صحبك فاستفدت بهن ولداً أصابك من أذاتك بالسمات
ومن رزق البنين فغير ناء بذلك عن نوائب مقسمات
فمن ثكل يهاب ومن عقوق وأرزاء يحسن مصمات
وان تعطى الإناث فأى بؤس تبين في وجوه مقسمات
يردن بعولة ويردن خلياً ويلقن الخطوب ملومات
ولسن بدافعات يوم حرب ولا في غارة متغشيات
وقد يفقدن أزواجاً كراماً فيا للنسوة المتأيمات
وما النساء عنده إلا

فوارس فتنة أعلام غي لقيحك بالأساور معلبات
ولا يغرنك عكوفهن على المصلى أماناً من غوارر مجرمات
وليس عكوفهن على المصلى بأيد للسطور مقومات
والمغزل أولى بهن من القلم بهن من اليراع مقدمات
ولا تحمد حسابك أن توافت ليأخذن التلاوة عن مجوز مهمة
فحمل مغازل النسوان أولى من اللائى فغرن مهمات
وليكن أخذن التلاوة عن مجوز ويركعن الضحى متأثمات
ليأخذن التلاوة عن مجوز إذا قلن المراد مترجمات
يسبحن المليك بكل جنح فما عيب على الفتيات لحن

وإذا احتاج الأمر لمعلم فينبغي أن لا تدنو الفتاة حتى ولا من رجل ضرير
إلا أن يكون هراً هماً مرتعش اليدين أبيض اللمة

ولا يدين من رجل ضرير يلقنهن آيا محكمات
سوى من كان مرتعشاً يداه ولمته من المشتغيات

وخير للشيخ الفقير أن لا يتزوج متنعمة ، فأن الفقر والشيخوخة بابان إلى
العظام ، والشيب مغتفر مع الغنى إذا كانت قوى الرجل موفورة ، وفي زوجة
واحدة كفاية .

ولا يتأهلن شيخ مقل بمعصرة من المشتغيات
فأن الفقر عيب ان أضيفت إليه السن جاء بمعظيات
ولكن عرس ذلك بنت دهر تجنبت الوجوه محمات
ويغتفر الغنى وخطأ برأس إذا كانت قواك مسلمات
وواحدة كفتك فلا تجاوز إلى أخرى تجيء بمؤلمات

ويختم هذه النصائح بأنها من خير مجرب شفيق

فهذا قول مختبر شفيق ونصح للحياة وللمات
والرجال لا يؤتمنون على النساء

وأمن على المال الرجال ولا تأمنهمو أبداً على الخرد

وإذا بلغ الغلام العاشرة فاحجب النساء عنه ولا تدخله عليهن فأنهن حبال

غنى بهن يضيع الشرف

إذا بلغ الوليد لديك عشراً فلا يدخل على الحرم اوليد
فأن خالفتني وأضعت نصحي فأنت ، وان رزقت حجي ، بليد
إلا أن النساء حبال غنى بهن يضيع الشرف التليد

واضرب على المرأة فأن ارخاء العنان لها يغريها بركوب ما لا يحمد

شر على المرأة من حمامها ارسالك الفاضل من زمامها
ومشيها تضرب فى أكمامها تفوح ربا الطيب من أمامها

زائرة المسجد في ألامها تأتم ، والخيمة في اتمامها
 بأجل ما عفا عن كمامها أعادها الخالق من أمامها
 وريقها الشروب في صمامها سمام أفعى بان من سمامها
 ان نزلت عصماء من سمامها فلا سقاها الطل من غمامها
 إذا احتوى الريم على رمامها لزومها البيت مع اهتمامها
 حتى يجيها الوفد من حمامها وحملها المغزل في اتمامها
 أوفى بما تعقد من زمامها

وأخف ما وصفها به انها خيالات ولعبة .

وما الغواني الغواذى في ملامعها إلا خيالات وقد أشبهت لعباً
 وانتقل الآن من شعره إلى نثره ، ومن كلامه في الدنيا وأوصابها ومتاعها
 إلى تخيله للأخرة ونعيمها الخالص الخالد ، وتأمل وصفه للحدود العين ، وهن على
 ضربين : ضرب خلقه الله في الجنة لم يعرف غيرها ، وضرب نقله الله من الدار
 العاجلة لما عمل من الأعمال الصالحة . وهو يجعل ابن القارح يلتقى باثنتين من
 الضرب الثانى ، ويقبل على كل واحدة منهما يترشف رضاها فيهيجه ذلك إلى ما به
 ويقول : ان امرء القيس لمسكين مسكين تحترق عظامه فى السعير وأنا أتمثل بقوله

كأن المدام و صوب الغمام وريح الخزامى ونشر القطر
 يعمل به برد أنيابها إذا غرد الطائر المستحضر

فتستغرق إحداها ضحكاً فيقول ممّ تضحكين ؟ فتقول فرحاً بتفضل الله !
 أتدرى من أنا ؟ . . . إني كنت فى الدار العاجلة أعرف بجمدونة وأسكن فى باب
 العراق بحلب وأبى صاحب رضى وتزوجنى رجل يبيع السقط فطالقنى لرائحة
 كرها من فى ، وكنت من أقبح نساء حلب فلما عرفت ذلك زهدت فى الدنيا

وتوفرت على العبادة وأكلت من مغزلى ومردنى فصيرنى ذلك الى ماترى ، وتقول
الآخرى « اننى كنت توفيق السوداء التى كانت تخدم فى دار العلم ببغداد على زمان
أبى منصور محمد أبى على الخازن وكنت أخرج السكتب إلى النساخ . . ودع ما فى
هذا الموقف من التهم . واجعل بالك إلى اقباله الشديدي على ترشف الرضاب
وشربه فى ذلك والى صرخته ، ان امره القيس لمسكين مسكين ، وتكريره هذا
اللفظ وما يشعر به ذلك من تحرق الرجل الذى يكبح نفسه حتى إذا أمكنته
الفرصة اندفع كالمنفجر . ولا تنس تعلقه بالرضاب وزائحة الفم واختصاصه
ذلك بالذكر

أما الحور التى خلقها الله فى الجنة ولا تعرف الدنيا فتخرج لابن القارح من
سفرجلة أو رمانة ، جارية ، حوراء عينا فيسجد لله اعظاماً ويخطر فى نفسه وهو
ساجد ان تلك الجارية ، على حسننها ، ضاوية (نحيفة) فيرفع رأسه من السجود
وقد صار من ورأها ردف يضاهى كسبان (تل) ! ! عاج فيسهال من قدرة الله
ويقول « يارازق المشرقة سناها ومبلغ السائلة مناها والذى فعل ما أعجز وهال ،
ودعا إلى الحلم الجهال ، أسألك أن تقصر بوص هذه الحورية » فيقال له أنت خير
فى تكوين هذه الحورية كما تشاء فيقتصر من ذلك على الارادة . وهنا أيضاً تهكم
ولكنه مشوب بما لا يخلو من دلالة على التفات إلى الجسد والى مواضع معينة
منه التفاتاً كان المعرى يزجر نفسه عنه فى حياته احتشاماً ونقمة

فهو يسيء بها الظن كبشار ، ولا يرى لها عفة يحفظها عليها دين أو تأديب ، ولا
يعتدها إلا ملهاة وغواية ، ولا ينظر إلى ما وراء أنوثتها وخورها وضعفها ، وان
كان مزاجه قد ذهب به مذهباً خلاف مذهب بشار ، والنظر تان متفقتان فى النهاية
وصادرتان عن أصل واحد ، وان كانتا رسالتين من نافذتين متباعدتين . وانك
لتحس مرارة الحرمان وألم الاضطراب الى الكف عن التماس الملاذ ، فى شعر أبى

العلاء ، كما يطالعك من شعر بشار حيوانية التسور الى اللذائذ الحسية . وهو فرق
أوجده اختلاف المزاج وتفاوت العقل . والعمى في كلا الرجلين علة أولى . وقد
كان ابو العلاء شديد الاحساس بعماه وان له لهذا البيت :

إذا مر أعمى فارحمه وأيقنوا — وان لم تكفوا — ان كلكم أعمى
وهو حسب التأمل ولو لم يكن له غيره لكفى

كذلك الدكتور طه حسين لا يرى الدنيا فلا يعرف عن الجمال إلا انه
أنثى يشتهيها الذكور ويصبو اليها الرجال ، وهو بطبعه مفراح وقد أقبلت عليه
الدنيا وماله اله الحظ فلم يجد التشاؤم مرعى له في نفسه ، ولكنه يؤثر الوقار ويميل
إلى تقييل المعرى والاقتباس به فيكبح نفسه ويردها على مكروها غير أن ما لا يظهر
في سلوكه الذى يتوخى فيه الاحتشام ، يظهر في كتابته وفي التفاتاته ذهنه كما بينا .
فلا عجب اذا رأيناه كلفاً بتناول المجان وأهل الخلاعة من شعراء العرب وتلخيص
القصص التى تدور على الخيانات وما اليها وتسويغ ذلك والاعتذار له . حتى
لكأنما يحاول أن يقول بلسان غيره ما تلج به الرغبة فى الكشف عنه والافضاء
به من مكنونات نفسه





ليلة

بين الصحراء والمقابر

هي ليلة حالكة متراكبة الظلمة ، وفي الصدر ضيق ، فأين عن صحرائي أعداى ؟
 — صحرائى التى لا يلقط الطير فيها حباً ، ولا يجابو فى خرابها قلب قلباً ، ولا يغيرها
 صيف ولا شتاء ، ولا يدوم عليها الا العفاء ؟ — كذلك كانت قديماً ، وكذلك
 أبقاها الله لى ! ولكم توهمتها وأنا أضرب فيها ، وأطوف فى فيافيها — وجهاً
 مستعاراً يبدو فيه الوجه الأعظم ، متقنعاً ! ولكم وقفت أدق رملها بقدمى
 وأخص فيه بعصاى وأدمدم كالذى يريد أن يرقىها بالعزائم ليشفيها من هذا السحر
 الذى ضرب عليها وألزمها هذا المحل ! ولقد أعجب فى الليالى القمره كيف
 لا تحسر وتنفض عنها هذه الرمال وتبرز للقمر الذى يناجيه ضوءه وينام على
 صدرها المتموج ، فى مثل وشى الرياض تنفخ روحاً وريحاناً ، ويتداعى الطير على
 أيكها اعلاناً ، وتهدل أغصانها فتسمو ، وتمس الأرض أحياناً ، ؟ ! ولكنى أتكلم
 كأنما هي قد رزقت الحس والارادة !

وقالت الرمال لى وأنا أقتلع منها رجلى اقتلاعاً اذ أخبط فى الصحراء والريح
 تجذب أطراف الرداء : « بودى لو تماسكت حبائى ، وثبتت ذراتى ، ولانت
 مواطئى لقدميك ، ولكنى مثلك لا حيلة لى فيما قضى به ! »
 وهتف بى هاتف من جانب سمائها التى عفت الظلمة آى الهدى منها :

« ليتنى أستطيع أن أسدد خطاك ، وأنير لك الطريق الذى تغوص فيه قدماك وأريك غايتك قبل مذهبك ، ولكن لنا آيينا (١) لا نملك خلافه ، وقانوناً لا نستطيع تأويله واعتسافه ، وما نحن وأنت إلا سواء ، وهل نراك تملك من أمرك كثيراً أو قليلاً ؟ ،
قلت : « كلا ! ،

وانجابت طبقة من الظلمات المخيمة على الصدر وخلصت أنفاسى قليلاً

وهبت الريح بي كالجنونة ، فعدت وكأنى أمشى على ماء لجنى يعلو ويهبط ، وسفت الرمال فى وجهى حيثما أدركته كأنما أرادت الحياة أن ترجىنى ، وتسابقت زمازمها الى أذنى فوقفت مكاني لا أريه وأغمضت عيني وقلت لنفسى : ماذا يصنع العود النابت فى الخلاء هبت به مثل هذه الرياح الهوجاء ؟ يلين أو ينقصف ! فملت الى الأرض حتى سكنت الثورة وهدأت الفورة وجعلت أفكر فى هذه الحياة الغربية التى يمتزج فيها الصراخ بالغناء ، ويختلط بها الألم والطرب ، وأقول لاشك أن الحياة عمياء صماء فليتها توهب البصر هنيئة لترى هذا الخليط من الحسن والقبح والخير والشر . وباليست من يدري ماذا تصنع اذن ! أترى يثور بها الخجل فتعصف بكل شيء وتمحوه أم تأخذ فى إصلاحه وعلاجه فى صبر وأناة ؟ أما لو كنت أنا الحياة لتناولت ما أخرجت كفاى من طينة الأرض المحدودة ودككته وحطمته ثم ذروته لهذه الرياح !

فهمست فى أذنى الرياح : ما الحسن والقبح ؟ وما الحزن والسرور ؟ وما الخير والشر ؟ وما الاحساس والعقل ، والخصب والجذب ؟ والصحة والسقم ، واليأس والامل ، والبكاء والضحك ؟ ،

فرفعت رأسي حائراً وأدريت عيني واجماً ثم أطرقت مفحماً ثم نهضت أمشي !
ودلفت بي رجلاي إلى المقابر فتخللنها إلى جدت فيه شطر من ماضي ، وقعدت
وأسندت ظهري إلى حجارته وأنا أقول لنفسي : الموت على الأقل راحة ، فليت
الحادى يعجل بنا ! فقد سئمت الحياة ومللت النظر إلى وجهها الملطخ وثوبها
المرقع . واشتقت أن أرقد هنا إلى جانب . . .

نخلص إلى صوت من جانب القبر أن « لا ! »

قلت كيف لا ؟ واستدريت حتى واجهت أصواء القبر .

قال الصوت : لا على التحقيق ! إن لي هنا سنوات لا أعلم عددها ، ولعلمها أقل
مما توهمني وحشة الوحدة التي تطيل أيامي التي صارت كلها ليالي ، أو لعلمها كثيرة
فما أدري وقد حُجبت عني الدنيا . ولو كان المرء يموت مرة واحدة لقلت لك
صدقت . ولكنه يموت مرة كلها نسيه واحد من الأحياء ! ويشتمل عليه الفناء
شيئاً فشيئاً . وأنت — على الأقل — تذكرني ، فأبقى بذكراك ، فلا تسلمني إلى
العفاء ؛ وتلك . ولسنا نألم الرقاد هنا ، وإن كانت ظهورنا توجعنا أحياناً من طوله ،
ولكننا نألم فتور الذكرى عنا واشفائنا على التلف الأخير ، وههنا في قبري — في
حجرة أخرى — جدُّ أعلى لي ، مسكين مسكين قد استوفى ميته جميعاً ولم يبق
منه شيء . وليت اذكاريه ينفعه ! اذن لرددتُ إليه بعض الوجود ولكن هيهات !
إنما يجدي الذكر من فوقها دون من هم في جوفها مثلنا .

قلت « ولكن إذا تعلقْتُ بالحياة فلا معدى عن إجابة دواعيها أفلا
يسوءك ذلك ؟ »

قال الصوت : « كلا ! سيان عندي أن تقي لي ولا تقي ، ومن العبث أن تتكلف
لي الحفاظ فإني بعد أن مت لا يسعني أن أوليك الشكر الذي تستحقه أو تفتظره ،

ولا ألتفت الى وفائك أو غدرك ، واني لأدرى فوق هذا ، انك لا تذكرنى لذاتى
بل لما طابت به نفسك على عهدى ، فافعل ما بدالك ولا تعن نفسك بى من هذه
الناحية ، ولكن أبق لى رقعةً صغيرةً فى زاوية من ذاكرتك أؤيد بها
عذوبة البقاء ،

قلت : فاذا نسيتك كغيرى ؟

قال الصوت : اذا نسيت ؟ آه ! ولكن مالنا وما لم يقع ؟ دع هذا الى أوانه ،
وعسى أن يكون بعيداً !

قلت : حسن سأحيا من أجلك ، وأتقى المهالك اكراماً لك وضناً بك أن تلحق
الأموات جداً !

قال الصوت : اتفقنا . فالى الملتقى !

فسرت فى جسدى رعدة خفيفة لم يسرنى أن تقول : الى الملتقى ، ! ونهضت
عن القبر ممتلئاً رغبة فى الحياة ، وضناً بها وحرصاً عليها ، وعدت أدراجى الى
دارى خفيفاً كأنما حططت عن كاهلى وقرأ . وجعلت أقول فى الطريق : نعم
سأحيا من أجلها ! ،

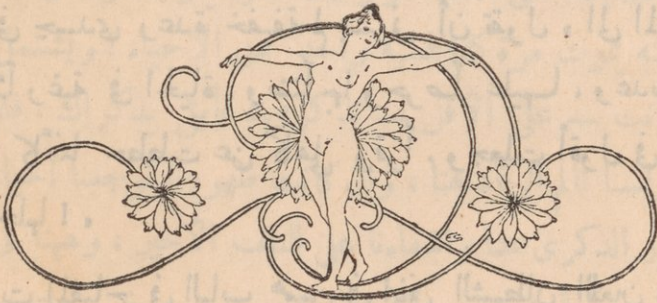
ولما أدرت المفتاح فى الباب همس فى اذنى الشيطان اللعين : تقول من أجل
من ؟؟ ، وقهقه !! فعاظنى ذلك فأشحت بوجهى وأسرعت فدخلت وأغلقت
الباب فى وجهه !! ثم صنعت هذه الآليات وألقيتها اليه من النافذة

(هاتف من جانب القبر)

جمالك ! لا تأسف على ولا تأسى فانى تحت الأرض لا أحفل الحبسا
طواني الردى عن ناظريك فجاءة وما كان ظنى قط أن أسكن الرمسا

أراني الصبي ، شمسي ، بعيداً مغيبها
وكنيت سرور العين والأنف والحشى
فدع عنك ذكرى انه ليس نافعي
ولا تتجشم لي الحفاظ فاني
وأدخل إليك الشمس من كل كوة
ستسلمك غنى كل زهرام ناهد
فما أنت بالباكي عليّ وانما

فسرعان ما ولى النهار وما أمسى !
فقدصرت أودى العين والأنف والنفسا
وسيان عندي أن تقي لي أو تنسى
وقدمت ، لا أوليك شكراً ولا حسا
فما يتملي العيش من يحجب الشمسا
وان بقيت ذكرى تهمس بي همسا
علي فقد ما قد كنت طبت به نفسا !





إحياء التمثيل

من رأى أفلاطون ، فيما وضع على لسان أستاذه سقراط ، ان الحكاية تنشىء العادة . قال ، أو لم تشاهد أن الحكاية ، سواء أكانت تقليداً للحركات البدنية أو نبرات الأصوات أو أساليب التفكير ، إذا واظب عليها المرء منذ الحداثة ، تحور عادة وطبيعة ثانية ؟

وكانت أدوار النساء في ذلك العصر يؤديها الرجال فعاب سقراط ذلك وزجر الشبان الشرفاء عن « محاكاة » المرأة ، فناة كانت أو عجوزاً وسواء أكانت تنقص رجلاً أم تتمرد على الآلهة أو تكابد المصائب والآلام والأوجاع . وهم (أى الشبان) أحق بأن يُردعوا عن تقليد امرأة تعاني مرضاً أو حباً أو وضعاً .

وأما أدوار الرجال فليس يجوز في رأى سقراط لمثلها تقليد الأرقاء أو الجبناء أو غيرهم من الناس . حين يشتم بعضهم بعضاً أو يركبه بالجنون أو حين ينطقون بالبذاء والفحش أو يقتطفون من المعاييب فيما بينهم أو ضد غيرهم ما اعتاده أمثالهم بالقول أو بالفعل . ومن رأى أيضاً أنه لا ينبغي لنا أن نعودهم أن يحاكيوا المجانين في كلامهم أو أفعالهم لأنه إذا كان من الصواب ألا تنقصهم الدراية بالمجانين والاشرار من الرجال والنساء فليس من الرأى أن يقتدوا بهم أو يقلدوهم .

هذه خلاصة وجيزة لرأى سقراط ، أو أفلاطون تلميذه على الأصح ، فيما

تجوز وما لا تجوز محاكاته ، وما يحسن أن ينهى الشبان عن تمثيله ويزجروا عن تقليده ، والعلاج عنده أن تكون الرواية مزيجاً من التمثيل والقصص ، وأن يقتصر التمثيل على الأدوار التي تنطوى على النبل والسمو وما هو من ذلك بسبيل ، ويذهب القصص بالأدوار الوضيعة ، وواضح من ذلك أنه يرى أن لتمثيل الدور مرة بعد أخرى أثراً في نفس من يؤديه . وليس يعنيننا هنا علاجه الذي وصف ليصون للجماعة فضائل نفوسها وليوقسها أسواء التمثيل مع استبقاء ما يسعه استبقاؤه من مزاياه المستفادة من الحكاية ومن الشعر فيه ، فانها طريقة للتوفيق لا سبيل إليها في هذا العصر الذي لا شك أن نطاق التعاطف الانساني فيه أوسع وأرحب منه في عصر أفلاطون ولقد كانت عناية أفلاطون بتربية ما نسميه الآن (السوبرمان) ومن أجل هذا كان يجب أن يوقيه ما يخشى أن يفسد عليه صورته التي رسمها له في خاطره . وما عن قلة اجلال لافلاطون أن نعجب (لسوبرمان) لا يخرج إلى الدنيا إلا في مثل صوب النبات أو في بيوت من الزجاج ترد عنه عادية الرياح والقر والأمطار !! وماذا عسى أن يبلغ من مناعته ومن الجلد والقدرة على احتمال الحياة ومغالبة صروفها وفتنها وبوائقها

وما لهذا نكتب . وإنما الذي نريد أن نقوله هو أنه لا يخالجننا شك في أن للتمثيل أثره القوي في نفوس أهله رجالاً كانوا أو نساء ، ومعلوم أنه ليس كل ممثل بصالح لكل دور ، وأن بعض الأدوار هي في أيدي بعض الممثلين أنجح ، ونحسب أن مما هو في حكم البديهي أن الصفات البدنية وحدها — من طول أو قصر ، وضآلة أو جسامه ، ووسامة أو دمامة وسائر ما يجري هذا المجرى مما يتعلق بالصوت والنظر — ليست كل ما يتطلبه أداء الأدوار المختلفة ، بل أن القدرة على استعارة الشخصية الروائية وإفراغها على النفس والجسم ، تستدعى

استعداداً وتحتاج الى وجود مقدار من التناسب ودرجة من التطابق . وليس معنى ذلك أن دور الخسيس لا يجيد أدائه إلا الخسيس من الناس بطبعه وفطرته ولكن معناه أن أصلح الممثلين له أقدرهم على فهمه وعلى الاحاطة بجوانبه وعلى سهولة التسرب فيه . ومن هنا يسـمعك أن تقول انه ما من ضرب من التمثيل يوفق المرء في أدائه إلا وثم مقدار من التقارب بين هذا الضرب وبين لابسـه .

وما أظن بالممثلين الذين قد يطلعون على هذا الفصل الا أن بعضهم سيحـمى من ذلك أنفه وينزو في رأسه الغضب على والمقت لي ، وما أحب أن يسوء أحداً كلام لي في هزل أو جد ، ولكن من العسير على أن أصدق ان امرءاً يحسن مالم يركب في طبعه ذرة من الاستعداد له ، وقد يعزى هؤلاء ويكسر سورة غضبهم أن أقول لهم ان الناس في الاستعداد للخير والشر متقاربون على كثرة ما يتفاوتون واننا جميعاً من طينة الأرض ، وأين عن طينتنا نعدى ؟ ، كما يتساءل ابن الرومي ، ان كان مثل هذا الهراء البديهي يعزى نفساً أو يطفئ غضباً !

كذلك من العسير أن أصدق أن يظل الممثل يستعير نوعاً من الشخصيات معيناً وأن يفعل ذلك شهراً بعد شهر وعاماً في أثر عام وأن يخرج بعد ذلك كما دخل . وألا يكون من آثار ذلك توكيد بعض الخصائص فيه أو بروز بعض السمات ، عرفت فيمن عرفت من الممثلين المرخوم احمد فهم افندى وكان ذلك في أخريات أيامه فلقتني فيه من صـوته وهيئته اذ يمشى أو يقف أو يلتفت أو يحدق ببصره مشابه مما يؤدى على المسرح من أدوار الملوك والنصحاء الأمناء الخالصين ومن الى هؤلاء . وكثيراً ما تمنيت لو أنى كنت عرفته - رحمة الله عليه - قبل أن يبلغ أثر التمثيل فيه هذا المبلغ . وعلى ان من التعسف أن يلجئنا ما نقدر

أن يلقانا به بعض القراء من انكار الدهشة — لا التفكير — الى سوق الأمثلة الفردية وهى مما لا يدخل فى الطول أن يسوق الكاتب منها الكفاية
 وبجسبنا وبحسب القراء أن نرتد جميعاً الى الأصل ، وهو « الايحاء » ولا يتسع
 المقام هنا للاسهاب فى بيان وقع النفس فى النفس ولسكننا ، إيضاحاً لغرضنا نقول ،
 ان كل حركة باعثها الارادة وان الارادة تفضى ببواعثها على الحركة الى الجهود
 المدركة للفكر أو لغير المدركة من الجانب الاحساسى . فاذا كان مصدر هذه الجهود
 التى تغرى الارادة بالنشاط ليس ذهن الفرد نفسه بل ذهن أجنى عنه وبعبارة
 أخرى اذا صارت ارادة المرء طوع رأى سواه أو عاطفته فان ما يصدر عن أولها
 يكون موحى به اليه . وقد فسر نورداو هذا الاعداء فى فصل طويل ممتع سبق به
 كل علماء النفس ويلخص رأيه أو نظريته فى أن « الايحاء » هو نقل الحركات الذرية
 من ذهن الى ذهن على النحو الذى تنتقل به اختلاجات سلك الى سلك غيره
 بجواره ، أو كما يفضى قضيب الحديد المحمى الى آخر بارد بحركات ذراته ولما كانت
 كل الآراء والخوارج تنطوى على حركات لذرات الذهن فان مما يستتبعه نقل
 حركات الذرات أن تنتقل الآراء والخوارج معها ،

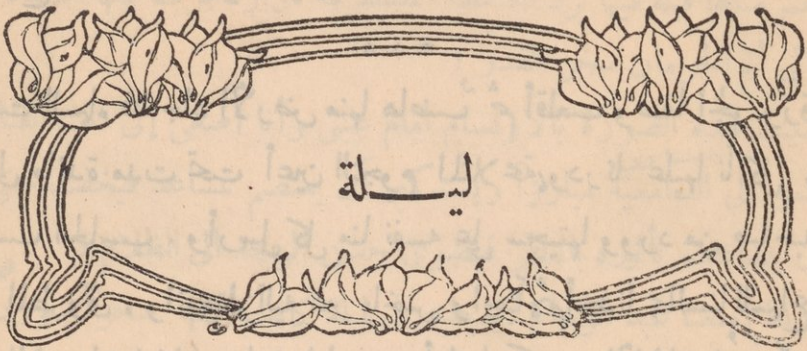
وأظهر ما يكون ذلك فى التتويم المغناطيسى . فان المنوم يستطيع مثلاً أن يقول
 للنائم « غداً صباحاً فى الساعة الثامنة ستمضى الى منزل فلان بشارع كذا وتضربه
 بسكين مطبخ تحملها معك » وهو مثل متطرف ضربه نورداو لمثل ما صحت التجربة
 فيه . قال : « ثم يفيق المنوم ويمضى الى سبيله وهو لا يعى شيئاً مما جرى حوله فى نومه ،
 وقد لا تكون له معرفة ما بفلان هذا ، ولعله أيضاً لم يمش قط بشارع كذا ، وعسى أن
 لا يكون قد آذى فى حياته ذبابة . ولكنه فى صباح اليوم التالى يتناول سكين المطبخ
 — وقد يسرقها إذا كان لا بد من ذلك للحصول عليها — ويذهب الى شارع
 كذا ويقرع باب فلان هذا فى الساعة الثامنة تماماً ويوشك أن يضربه لولا أن
 فلاناً يكون قد أُنذر من قبل بالتجربة وأحيط بها خبراً فاتخذ لها ما ينبغى من الحيلة ،

✕ (وقد قلنا أن هذا مثل فيه شيء من التطرف لأن الثابت أن الإيحاء لا يبلغ هذا المبلغ من القوة إلا في المرضى دون الأصحاء ، وفي الضعفاء دون الأقوياء . وواضح من هذا المثل أنه لكي يتخذ الذهن لنفسه حركات ذهن آخر ويعبى بآرائه وعواطفه وبواعث إرادته يجب ألا يكون هو مجالاً لحركات من ضرب آخر قوية أو أقوى من تلك التي يراد نقلها والاعداء بها وبعبارة أخرى ينبغي ألا يكون مجداً في التفكير ومثال ذلك السلك المهتز الذي أشار إليه نوردאו ، لا يشير في سلك آخر مثل اهتزازاته إلا إذا كان هذا الآخر ساكناً أو ضعيف الاختلاجات . فعلى قدر ضعف الذهن يكون تأثيره بحركات ذهن غيره . وعلى قدر قوته ونشاطه تكون مقاومته . على أن حركات أذهان عدة — ولو كانت ضعيفة — إذا اجتمعت وتجاوبت باحساس واحد قد تكون أقوى من حركات ذهن واحد قوى ، ومن هنا كان تأثير الجماعة المحتشدة في الفرد وحملها إياه على تيارها على الرغم من مغالبتها لفعليها في نفسه ، ومن هنا أيضاً تكون ضيعة العقول القوية في المجالس النيابية وأشباهاها إذا زحرت نفوس الأكرثية بعباب إحساس واحد أو متقارب

✕ والتمثيل حين ترجعه إلى الأصل ، استيحاء لما يدل عليه الكلام ، وقوامه إخلاء الذهن عما يشغله في العادة وإحلال الحالة النفسية التي يراد استعارتها محله أو بعبارة أخرى إنامة العواطف والخوارج والآراء الشخصية على قدر ما يستطيع المرء أن يفعل ذلك والاعتياض منها آراء وعواطف وخوارج أخرى ، وتمكين هذه المستعارات من استغراق النفس بإخلاء المجال لها ، وهذه أصليج الحالات النفسية للإيحاء ، وهي قريبة شبه بحالة النائم نوماً مغناطيسياً حين يكون الجهاز العصبي بحيث لا تؤدي ذرات الذهن من الحركات إلا أضعفها وحين تكون من أجل ذلك غير مستقرة التوازن فيسهل بأيسر باعث دفعها إلى حركة يعينها نوع

الباعث وقوته . فالممثل الذى يؤدى الدور مرة بعد أخرى يقع تحت تأثير الشخصية
التي يستعيرها بضع ساعات كل ليلة ويكون استعداداه لتقبل الايحاء منها أقوى على
التكرار كما يكون النائم أشد خضوعاً وأعظم طواعية في يد منومه على الاعادة
وليس من الضروري أن يكون المرء أخبر الناس بنفسه وأقلامهم خديعة في
أمرها ولولا ذلك لكان الممثلون أنفسهم أقدر على بيان الأثر الذى تخلفه أدوارهم
التي يؤدونها وأعرف بمداه . ولكن المرء أسرع في العادة إلى إنكار الايحاء
لتوهمه في أول الخاطر ان الاقرار به يغض منه وإن كان متبادلاً شائعاً وكان
فعله ظاهراً في التوافه والصغائر ظهوره في الأمور الجسيمة . وكيف تفسر
عدوى الثوباء وكون كثرة المؤاكلين أشد شهوة الطعام ، وما إلى ذلك إذا لم
تفسره بالايحاء





من أمتع ما مر بي في هذه الحياة ، التي لا أراها ممتعة ولا أحب أن تطول
أو تتكرر ، ليلة قضيتها بين شراب وسماع . فأما الشراب ففعل القاريء أدري به
وأخبر ! وأما السماع فقل من شجى به كما شجيت في ليلتي تلك ! أي والله !
وما زلت إلى الساعة ، كلما خلوت بنفسي ، أغمض عيني وأتسمع وأحاول أن
أبتعث ذلك الصوت البديع الذي هاجني إلى ما بي كما لم يهجنى صوت سواه ! وقد
أعجب لما يُصَبُّ في الأذن أين يذهب ؟ وربما أثارني هذا العجز عن إحياء صوت
بأكثر من تصويره في ضمير الفؤاد ، وقد أغالى في إكبار هذه الثروة الصوتية
وأتمنى لو رزقت شيئاً منها بكل مالى - لو أن لى شيئاً ! - ثم أعود فأسخر من
نفسى وأضحك من أمنية يستخفى الى انشائها الطرب العارض . ثم أسخر من
سخرى وأقول لنفسي في حدة « أو لا يسر الاسكندر وقيصر وسليمان أن ينزلوا
لمثل عن نصف ما أحرزوا من مجد لو أنه وسعنى أن أخول كلاً منهم مما أضفى الله
على من الحياة على ما فيها ، ليلة واحدة كهذه التي نعمت فيها ؟ » نعم !
ولكنهم قد شملهم ظلام أوركوس على حين أحيا وأطرب ! وما أدرانى أنهم
نعموا بمثل هذا الصوت ؟ أمن أجل أنهم كانوا ملوكاً أو أقوى وكان لهم سلطان
وبأس وبطش ، يلزم أن يكونوا قد سعدوا بغناء كهذا ، يخف منه حلیم

« راجع حلمه ، وَيَغْوِي رشيد » ؟ ؟

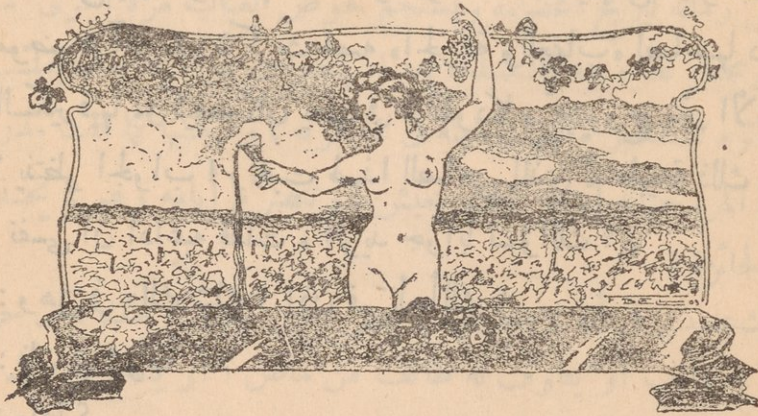
وكانت السماء قد جاد الأرض منها هاضبٌ ثم أقلعت وصفا الجو ورق النسيم .
فنهضنا إلى مائدة مدت تحت أعين النجوم المتلاحمة بوردنا عليها نأكل ونشرب
ملا يحسب الحاسب . وأرسل كل منا نفسه على سجيته وورد من صاحبه « غير
المكدر المطروق ، وانبسط اليه غير باخس واجباً ثم أخذنا مجالسنا للسمع وأذانتنا
العود « بالاحسان إيدان صادق الخبر ، وأطفنا بیکر من الألحان لم يُفَضَّ لها خاتم
من قبل ، ثم رضينا من منظر بمسمع وانطفأ النور ، وهفت إلى أسماعنا الأنغام من
وراء ستور الظلام

واهاً لذاك الغناء من طبق على جميع القلوب مقتدر (١)
يملاً روحاً فؤاد سامعه ويصطلي حره من القرر
كأنه قالب لكل هوى فكله والمنى على قدر
لا خير في غيره ، وهل أمم من شارب الراح شارب السكر ؟

وكأنى لم أكن أسمع بل أَسْقِي من رحيق الجنان ، وكأنه لم يكن غناء مصوغاً
من شجى القلوب بل من شعاع العقول ، فلم تطر قلوبنا وحدها بل لحقت بها
عقولنا ، ومضى الصوت على دله بتوحده يحيش نفوسنا ويعصف بسكونها ويزخر
أمواجها ويستثير كوامنها ويرسم على الوجوه آثارها ، وغبت عن حاضري برهة
كررت فيها — ولا أدري كيف ؟ الى لحظة من الماضي المغيَّب الذى استقر فى
زاوية مظلمة من الذاكرة ، فأبصرتنى واقفاً مرة أخرى استودع الله لى أحب الناس
إلى وأعزهم على وقد امتدت الكفان وتضاغت عن أحنى عاطفة وأوجع احساس ،
وتدانى الوجهان ، واختلجت الشفاه وهمت بالتلاقى فى قبلة حارة طويلة ، ثم

تباعدت في فزع كما تما كانت ترقبنا عين ، ولا رقيب هناك ، وثبت انسان العين
بعد أن حُر منها قبة فيها برد العاطفة المضطربة ، وازدجرت عنها الشفاه ازدجاراً
أضاف الى ألم الحرمان سخر القدر !

وتشبهت هذه الصورة بالارتسام امام عيني وأنا أصغى إلى ذلك الغناء الساحر
الذي يسمو الى السامعية مبارزاً ويستكبر أن يعتصم بمساعد فيخفت حتى العود ،
ويأبى أن يضاعف تأثيره بالنظر فيضوى حسن الوجه الى الظلام !
وهكذا أمتعنا عبد الوهاب "بغبطته في ليلة كانت كلها سحراً . وردني بعدها
بغير ذي اذن الى كل نغمة من سواه ، وغير ذي صور إلا "إلى فتنة من هوى
فنته وشجاه ، ولولا أن يعد ذلك جحوداً ولؤماً لتجاوزت عن ذكر اسمه فانه أحلى
عندي وأوقع في نفسي أن أجرد غناؤه من صورته الآدمية على حسنها النرجسي ،
وأن أتصوره أبداً هوى ساجحاً وروحاً هائماً وصوتاً هافياً يُشرب بالأذن صرفاً
ولا تشغل العين بمونق زهره ، ويستريح الفؤاد الى نسيمه ويتخلى من الشجى
بحب مجتهره ، ويأنس الصدر الى هديله ، وينجو بالقلب من حوره . ففسير على طين
ابن آدم أن يُشجم احتمال الفتنتين جميعاً .





زارني مرة رجل كالعصفور ! ولست أعنى أنه صغير في رأى العين أو العقل ،
ولكننا أعنى أنه في حديثه كالفرع ، لا يكاد يواقع موضوعاً حتى يتركه الى غيره
ويثب عنه الى سواء ، .. وسألني فجأة ، وبلا مناسبة تقتضى ذلك : « ما هو أحسن
تعريف للكتاب ؟ » ومن عادتي حين أجالسه أن أنظر الى شفثيه دون سائر وجهه ،
وما رأيته قط يهم أن يدير لسانه في فجرة فمه . الا توقعت أن يمدھني بجديد ، ففي
مجلسه امتاع التنقل ، وفي حديثه لذة المفاجأة . ولكنه يتعب الجليس بما يكلفه من
الجهد في التماس الصلة التي في ذهنه بين المسائل التي ايس بينها ، في الظاهر ، أو هي
علاقة .. فلما ألقى إلى سؤاله ابتسمت ودعوت الله أن يلهمني الجواب قبل أن
يطير الى موضوع آخر ! وذكرت قصة « الجريمة والعتاب » لصاحبها دستيوفسكى
ووصف السكير فيها ، وكيف كان يعب في « القودكا » ثم يروح ينثر الأسئلة شتالاً
ويتمتاً ولا ينتظر الجواب ! وعجبت لهذا الصاحي الذي له طبيعة ذلك السكران !
واشتاقت نفسي أن أداعبه فقلت « أتريد جواباً لسؤالك ؟ »

قال : وهل في ذلك شك ؟ إذن فيم أسألك ؟

قلت : فان لي شرطاً ..

قال : ماذا ؟

قلت : أن لا تطالبني بإيضاح .

فأطرق قليلاً ثم رفع الى وجهها كالدهرم المسيح ، ونظر إلي بعينين مظلمتين كالكمهفين وقال بلهجة المستسلم الى قضاء الله وقدره « قبلت ... »

فقلت ، وتكلفت الصمت والوقار والجد ، وزويت ما بين عيني ، وغرزت عنقي بين كتفي ، كأنما أوشك أن أفضى اليه بخـبر ضخم ، أو أنطق بحكم ، :
« الكاتب ، ياسيدي ، هو الذى لا يكون وحده حين يكون وحده » !!

لخفاق مبهوتاً ، ثم هز رأسه يمنة ويسرة ، ونهض عن كرسيه ومد إلي يده فى صمت ، ومضى عنى حاسباً أنى أسخر منه ! وقد انقضت سنوات طويلات ، ولكن صاحبنا لا يلتقى بعدها الا صامتاً ، ولا يناولنى يده الا مطرقاً ، ولا يغتفر لي هذه الدعابة الخفيفة التى ركبته بها قديماً !

كان هذا منذ سنين كما قلت ، ولا أدري ماذا أذكرنيه الآن ، غير أنى لا أرى اليوم فيما قلت له حينئذ شيئاً من الهزل ولا أعدت كلتى تلك التى أسخطته الا جداً صرفاً ، وان لم أكن أعنى ما أعنى الآن ، فقد صارت الدنيا فى نظرى مدرسة حقيقية ، سوى انها سخيضة ! يتلقى المرء دروسه فيها حين يكون بين الناس ساجداً معهم على متن الحياة بصارع أواجهها ويغالب أثابها ، حتى اذا كثر الى الشاطئ وارتدى على رماله ليريح أعضائه ويستجم لخوض العباب مرة أخرى شرع يفكر فيما لقيه ، ويحيل نظره فيه كالتمليذ ، بعد اذ ينصرف عن المدرسة ، يتقلب صفحات كتبه ودفاته ليستظهر ما فيها ويشبته فى ذاكرته ، ولاكنها كما قلت مدرسة سخيضة يقضى فيها المرء حياته ليتعلم كيف يعيش ، وتصرم أيامه وهو لم يحذق الدرس ولم يفز بالجائزة !

ولا شك عندى فى أنه لا خير فيمن يحس ، حين يكون وحده ، أن حوله فراغاً . ألا يهتف به هاتف أو يطوف به طائف من ماض ؟ أو ينجم فى سماء نفسه نجم من أمل أو فكرة أو خاطر أو خيال ؟؟ انه إذن ليس سوى طفل كبير ، كل حيويته فى أعضائه . فلندعه يبحث عن ترب له يلاعبه !

كان « يكون » رحمه الله ، أو صنع به ما شاء ، يقول « ان بعض العقول ملائم لما يمكن إرساله دفعة واحدة أو في زمن وجيز ، والبعض يخلق مناسباً لما يبدأ بعيداً ولا يُنال الا بالسعى الطويل » والطارز الأول هو طراز المحدثين والخطباء ، والثاني نمط الكتاب . ولقد سمعت في حياتي خطباء كثيرين لا يزال بعضهم ينعم بالحياة وبحنجرته ، ولكن أقوامهم وأعلامهم لساناً وأبلغهم تأثيراً كان كالطبول التي قالت القرودة عنها فيما روى ابن المقفع في كيلة ودمنة « لعل أفشل الأشياء أضخمها صوتاً » ، وكان يخيل لي إذ أسمعه يخطب الجماهير كأن في وجهه زوبعة ثائرة أو بركاناً فائراً ، وكأنه حين كان ينهض ليستكلم « بلاس » الذي حدثتنا الأساطير أنه خرج من رأس « جويتر » شاكياً مستعداً تام السلاح . وكان كلما مضى في كلامه يعملو ويهز كالنار المندلعة ، ويتنوع السامعين ، لا بالحجة والبرهان ، بل بقوة انتفاء شبهة في نفسه ، وكان يحزم ولا يتردد ، ويبت ولا يتراجع ، ويقرر ولا يناقش ، ويهد ما شاء أفضية مفروغاً منها ومسلماً بها ، وينزع المقاومة بكلمة أو نظرة أو ايماء أو ابتسامة أو دقة على المنضدة ، وكأنما كانت لألفاظه وهو يطلقها أظافر وأنياب حنّاد تمزق الظلم الذي قام متمرداً عليه وتبعثر أشلاءه للوحوش والكلاب ، وإذا ذكر بلاده وفجائعها خلسته « أنطونيوس » واقفاً على جثة « قيصر » ليدفع حجارة رومية الى الثورة والانتفاض ، وكانت عينه تلمع بنور الوطنية ، وصدره يعمل ويهبط جائشاً بالعواطف العامة كالعباب الزاخر . . . ثم كنت أتلو خطبته في المساء أو الصباح فأعجب لتنفهها وفراغها وخلوها من كل روعة أو جمال ، وأكاد أقول انها غير ما سمعت أذنأى منه . لانها ليست سوى الرماد الذي صارت اليه النار التي كانت تزغرد في مسمعي ، ولأن الاشارات المقوية ليست هنا ، ولا الصوت الفاتن الذي يسحر المرء عن نفسه ، ولا النظرات الموحية ، ولا الوقفة الناطقة ولا الجماعة المتعاطفة المعدية

(ولعل أقوى الخطباء فعلاً في نفوس الجماهير وأبلغهم تأثيراً لا يكون إلا أشبههم بها وأقربهم إليها وأقدرهم لذلك على النزول إلى مستواها . وليس في وسع الخطيب إذا شاء أن يبلغ من السامعين ما يشتهي ، أن يجاوز السطوح أو يهوي إلى الأعماق ويطلب الأغوار ، والا جاوز محيطهم وحلق فوقهم وغاب عن نظرهم فلم يلحقوا به .) تأمل ما تظنه أقوى خطبة سمعتها وقل لي من أي شيء تراها مبنية ؟ أليس قوامها الألفاظ المبتذلة والعبارات المذالة ، وما ألفت الجماهير أن تسمع وتتأثر به وتنفعل له ؟ وهذه المبتذلات أفعل بالباب الجماهير لأنها لا تكلفهم مشقة ولا تدعهم حيارى ، ولا تتركهم فاغرين أفواههم كالبلهاء ، ولا يحول دون وقوعها في نفوسهم حائل من تعويص أو عمق أو دقة أو سمو خيال أو لطف تصور ، ولأنها تحرك المزاج العام وتشبهه ولا تصدمه ، ومن هنا لم تكن بالخطيب حاجة إلى العمق أو الابتكار .) وكلما كان أدنى إلى طبقة الأوساط العاديين كان هذا خيراً له ولهم وأجدى عليه وعليهم .) فان حائك الجيش ، كما يقول « نوردو » ، لا يفصل ثيابه على قدّ جنسدى ممشوق القوام من معارفه بل على الطول المتوسط . ويقول « نوردو » ، وليس أصدق مما يقول : « تصور أربعائة من طراز « جويته » ، و « كانت » ، و « هلهولتز » ، و « شيسبير » ، و « نيوتن » ، واضرابهم محشودين في مكان واحد ليبحثوا شأناً عملياً ، ويبدو آراءهم فيه ! قد تختلف خطبهم عن الخطب التي تلقى في المجالس النيابية - وحتى هذا مشكوك فيه - ولكن ما يخلصون إليه من النتائج ويتفقون عليه لا يتعرض لمثل هذا الاختلاف . فلماذا ؟ لا لسبب سوى أن كلا منهم - فضلاً عن خصائصه التي تفرده وتكسبه شخصيته الممتازة - قد ورث خصائص الجنس التي يشاركه فيها ، لا زملاؤه المحشودون معه وحدهم ، بل كل نكرة من نكرات الشوارع أيضاً - ونقول بعبارة أخرى أن بين الناس العاديين شيئاً مشتركاً لا تكاد تتفاوت قيمته رمز له بهذا الحرف « ا » وأن الأفراد الممتازين يجمعون بين هذا المشترك وشيء آخر خاص يختلف باختلافهم

وينبغي أن نرمز له بحرف مختلف في كل حالة مثل «ب» و «ج» و «د» الخ .
والآن فلنفرض أن اربعمائة من العبقريين اجتمعوا فان النتيجة اللازمة تكون
أن يجتمع عندنا اربعمائة «ا» وباء واحدة وجيم واحدة ودال واحدة وهكذا .
فلا يسفر ذلك إلا عن أمر واحد هو أن تحرز الالفات الاربعمائة نصراً مبيناً
على الباءات والجمات والدالات المفردة أى أن ما هو مشترك بين الجماعة يتغلب
على ما هو من الخصائص اليتيمة التي لم تستأمن . ولقد تعلمنا منذ زمان بعيـد
في المدارس أن المختلفات لا تقبل الجمع ، وهذا في الواقع هو السبب في أن من
الممكن أن نتصور مجتمعاً من الافراد العاديين لا من الآحاد النوابغ ومن
المستطاع — إذا طرحت الأمر للتصويت — أن تحصل على رأى أغلبية في مذاق
توابل الكرنب ! أما في قيمة نظريات الحياة فلا سبيل الى ذلك . والأرجح في
الاحتمال — إذا اُحصيت الأصوات على هذه النظريات — أن تفوز كل نظرية
بصوت واحد هو صوت صاحبها !!

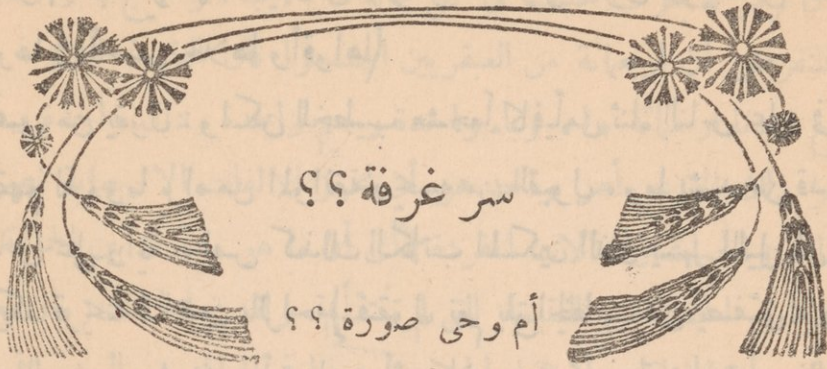
❖ (واكن للكاتب شأناً مختلفاً جداً . عليه أن ينضج ما يريد أن يفضى السنا به
ويطلعنا عليه وإلا كان لا شيء .) والوقت أمامه فسيح لتلمس المواد وللعبارة عما
يدور في خاطره ويتمثل لخياله ، والقراء مستعدون أن ينتظروا ويصبروا حتى
يتمدى الى ما ينبغي ويوفّق الى ما يشتهي ، وهو مطالب بأن يؤدى ولا يعطل دينه
للحقيقة وللطبيعة .) إذ كان لا يخاطب نفوس الجماعة المتعاطفة بل عقل الفرد ،
والناس ينظرون إليه نظر التلميذ الى المعلم ، لا الظهير الى الظهير . فمن حقهم أن
يتقاضوه الدقة والعمق وموافقة الصواب وتحري الحقيقة وحسن البيان وعلو
اللسان . وأن يكشف لهم عما أفاده الدرس والتحصيل والنظر ، وما ذكر على الأيام
من كنوز الفكر وأن ينصف نفسه وعقله ومواهبه ، وأن يحيل لحظه في سماء
فكره لا في وجوه الجماهير .) وليس ما يطلبه الكاتب على طرف اللسان أو حدّ
القلم ، بل هو ملفوف في طيات القلب ومنقوش على صفحات العقل طبقة فوقها

طبقة ودونها طبقة يرفعها الخيال والفكر واحدة إثر أخرى ، ويلتصم لها العبارة التي تجلوها في أحسن حلالها وأقواها

وعسى من يقول : ولكن للخطيب مشجعاً كافياً من ثناء الناس عليه في وجهه ، وتصفيقهم له ، وما يراه من الموافقة ويحسه من القبول ، وما يشهد من قدرته على حمل الناس على رأيه . وليس كذلك الكاتب المسكين الذي يسهر الليل لمن ينامون عنه ، ويكد قريحته للناعمين بالراحة . فنقول نعم يلقى الخطيب من يصفق له ويهتف ، ويدخل السرور على نفسه أن يلمس أثر كلامه وبحس وقعه ويشهد ذلك بعينيه وبكل جارحة فيه . ولا شك أن الكاتب قد حرم هذا وما يجري مجراه بلا غير أن هذا لا يضيره وبحسبه من التشجيع أنه أمين وفي للتحقيقة والطبيعة ، وأنه قوة يحسها من نفسه ويحسها الناس منه

ولقد كان هو قارئاً قبل أن يكون كاتباً ، وليس يخفى عليه ولا من الغريب عنه ما يجده القارئ من المتعة وما يفيد من الغبطة . والخطابة فن أجوف إذا اعتبرت القيمة الحقيقية للكلام لا التأثير الذي تحدثه والوقع الذي يكون لها ، فن حقها أن يكون الجزاء عليها التصفيق الوقى وما إليه من الأعراض الزائلة . وفن الكتابة أسمى وأجل ، فجزاؤه من جفسه ، معنى سام لا مظهر خشن عامي





سر غرفة ؟ ؟

أم وحي صورة ؟ ؟

لا أدري أحلم هو أم حقيقة ؟ ولكنني سأقصه على القراء وأكمل الفصل إليهم ،
وأكبر الظن أنهم أقدر على ذلك مني أنا الذي أعيش بين الأشباح والطيوف ،
وأغدو وأروح في حاشية منها ، وأستوحش إذا افتقدتها فآزورها وأستثيرها من
مراقدها وأحف نفسي بها وأنقاد لها وأعاطيها التذكر والحديث حتى ننشئ جميعاً
« كأننا قد تعاطينا المداما » . ولكل واحد من الناس حياته الخاصة يأسيدى القارى .
لك مجالس انبك ولهوك وسمرك وما شئت غير ذلك صاعداً ونازلاً على جانبي
المقياس ، ولى أشباحى لا أرتاح إلا إليها ، ولا أرسل نفسي على سجيتها إلا معها ،
ولا تخلص أنفاسى إلا بينها ، ولا أستعذب سوى حديثها ، وإن كان مثله من غيرها
حقيقاً بأن يشير الكبرياء ويكوي الغرور من فرط الازراء ، ولكنى قالت لى ،
وأنا أخبط فى الصحراء معها « أتعرف هذا الوجه الذى يطالعك من
الظلام ؟ » فانظر إلى حيث تشير فلا تأخذ عيني شيئاً غير الظلمة الدامسة ، فتقول
لى « لا تحوّل نظرك عنه تستوضحه » فأغرز عصاى فى الرمل وأسكنى عليها
وأرسل لحظى الى حيث تومى ، فيرتفع مثل الأستار واحداً بعد واحد عن وجه
لا معنى له ولا حياة فيه فأنكره وأثنى إليها الرأس سائلاً عن صاحبه فتقهقه
وتجلجل ضحكها فى الفضاء وتقول « كيف لا تعرفه ؟ » فأعجب لانكارها عجزى
عن تذكر وجه كالصورة الميتة ليس فيه ما يحرك الخاطر أو ينماز به من المعارف

عن مئات الألوف من أمثاله ، فتسقطه لى فلا أزداد به الا جهالة ، وله الا انكاراً ،
فتبسم ابتسامة السخر وتقول : لقد كنا نحسبه أشبه الناس بك ! ولكن دعنا من
هذا ولنتركه للظلام يحتويه ، فما هو بأهل لغير ذلك !

والآن الى القصة ، اذا جاز أن تسمى كذلك ! ..
أقمت على ساحل بحر الروم أياماً ، وفى احدى الليالى أبتُ الى غرفتى فى ساعة
متأخرة وقد أدارت رأسى مناظر الدنيا على ساحله ! ومن حقها ان تفعل ذلك
بإبن الصحراء وساكنها ! وكان الليل عاتياً

كأن شياطين الدجى فى أهابه تغنى على زمر الرياح وتغرب
ففتحت النافذة وجلست أصغى الى صوت البحر الجائش واستنشى ريحه ،
فدخلت على بلا استئذان عادة فى حفل من الزينة دخول من هذا مكانه . ونزعت
قبعتها والقتها على منضدة هناك ، وأقبلت على المرأة تصلح من ثيابها وتمسح شعرها
وتلوى خصله الذهبية حول اذنيها ، وتفرقه على جانبي جبينها وهى تقول اذ تنظر الى
نفسها بادية فى صقال المرأة من قريب ومن بعيد ، وتبعد طرفها الى صدرها وتديبها
الناهدين الراسخين ، ونحرها الذى يضيئه عقد من اللؤلؤ ، وتصوبه الى قدميها
الصغيرتين ، وتكشف عن ساقها فى جورب بلون الجلد « من مبالغه انى هنا الساعة ؟ !
انى أتعبه حيث يكون من الأرض ، ولا أدعه يفلت منى ، وقد أكون أدنى شئ
اليه وهو لا يدري — الى مباءات الحالمين ، وتحت الأشجار التى لا يعيش فيها
غير البوم ، والى سيف البحر حيث اللج يرمى بالزبد — ولكنى ، مع الأسف
لا أستطيع أن أناديه أو أدعوه أو اسمعه صوتي أو أشعره بوجودي وان كنت
منه كظله ! ! وقد يناجيني فيروى سمعي بنجواه ويطلعنى على ما كنت أجهل
وما كان يطويه عنى جهده ويكأتمنيه ما وسعه السكتان ، فأعجز عن جوابه اذ كنت

لا أملك غير الاصغاء ! فيا ليت من يبلغه عنى ذلك ليعلم أنى ما زلت على وفائى الذى الزمنيه، والذى لم أندم عليه ! ولن تبرح مخيلتى قط تلك الليلة التى طال فيها يديننا الحوار وكاد يفضى الى شر حال ، وكيف نهض عن كرسيه « هذا ، وأنا قاعدة على سريرى ، وحق فى عينى وأوماً الى بسببائه وقال « ستفنى لى على رغم أنفك هذا (وعرزت اصبعها فى المرأة) أفهمين ؟ ، فدفت وجهى بين كفى وانطلقت أبكى ، فما عبأ بى شيئاً ! فيا ما كان أقساه فى تلك الليلة ! ولما طال الأمر ولم تجف عبراتى صاح بى بصوت قوى « خير لك أن تنتهى عن هذه الحماقة التى لن تغنى عنك شيئاً . ولقد صارحتك بعزى ، ولو نُقل هذا البحر بالغرابل ماتحولت عنه . وقد آليت أن أقتلع من بين جنبيك هذه الوسوس والحماقات بجذورها كما تقتلع النباتات الطفيلية ، ولو انتزعت معها أصول أحشائك ! وسترين أنى فاعل — بسوطى هذا ، وذراعى هذه . اذا احتاج الأمر الى هذين ! ، وقد فعل .. ولكنى ذويت .. ذويت .. حتى صرت الى ما أرى ! ،

وتراجعت عن المرأة ووجهها اليها ، ثم أقبلت عليها ودارت أمامها ثم مضت الى السرير فارتمت عليه برهة حدثتني النفس فى خلاها أن ألوذ بالفرار ! والحق أقول إنى خفت جداً ! ولكنى جمدت مكانى ولم أستطع حراكاً حتى اسكأنى استحللت بعض ما فى الغرفة من أثاث !

ثم اعتدلت كالمفيق من غشية ، وجعلت تجيل عينيها فى الغرفة وتنفض كل ما فيها ، غير أنها كانت نظرة من لا يكاد يرى . وعادت الى الكلام بصوت مخنوق هاف أيقنت منه انى فى أمان !

« نعم كانت ليلة داجية كهذه . عاصفة الرياح مثلها . وكنا ضجيعين على هذا الفراش . غير انى كنت لا أنفك أفلت من عناقه وأشيح بوجهى عنه كلما أهوى الى بقمه ، وأمنحه جانب محيى دون صفحته . وأتى أن تلتقى عيوننا أو ألتقى

أنفاسه الحارة بغير خدى . وأعيته الملاطفة وحز في نفسه فتُوري، فاعتمد على كوعه وهو مستلق الى جانبي وألح على يستخبرني عما بي ، وعن علة ما كان بادياً على من الزهادة والسامة ، ويسألني ما لجفوني قد جفاها الغمض ويقول ، ماذا يحول في هذا الرأس الصغير ؟ أي هم يقض مضجعتك ؟

فأقول مرأئية ، كيف يستضيفني الهم وأنا الى جانبك ؟

فيقول ، أتراني أخلفت لك وعداً أو أسأت بكلمة أو اشارة ؟ لقد نحييت عنك ذراعى في جفوة لا يتوقعها الزوج بعد أسابيع من زفافه ؟ أتراك نادمة على زواجنا ؟ أم فاتك من هو خير مني وأحب ؟ أم خاب لك أمل ؟ أم ماذا؟ قولي بالله؟ صارحيني ! لا تخشى شيئاً ! دعي هاتين الشفتين الدقيقتين المطبقتين تنفر جان !

فأطبقت جفوني حتى لا أراه . ووضعت ذراعى على جبيني لا كتف الستر بيني وبينه ، ولبثت هكذا لا أنبس بحرف كالذى يريد أن يستغرقه حلمه — نعم كنت أحلم ، ولكن بغيره — واأسفاه ! بذاك الذى أقسمتُ له وأنا بين ذراعيه ، وفه على شفتي يوسعهما لثماً ان لا أساكن سواه أو أبادل غيره القبلات حتى الممات . والذى لا أحتضن إلاه حين أطوق هذا الزوج ! . . . فهممت أن أقول له « اسمع يا صاحبي ! انك زوجي . . . لا أنكر ذلك ، ولو أنكرته لما أجداني الانكار شيئاً ، ولكنه كان لى صاحب — أو حبيب إذا شئت وأبيت إلا أن تسمى الاشياء أسماءها كيفما كانت — وهو ممن خلقوا ليعشقوا ، ولا تكاد تراه حتى تتعلق به وتهواه ، ولكنه فتمير لا يملك أن يبلغني من الدنيا مناي ، وليس يخفى عليه أنى مخلوقة لتعيم الغنى لا الخشونة الفقر وذلة الفاقة ومراقعها ، وأن صبرى على الاقتار عسى أن يكون عسيراً ، فجعلت من أجله أدافع الخطاب عن نفسي وأتجنس وأبدى الزهادة في حياة الزواج ، وأرفض الرجال وأنت في جملتهم ! حتى انتهرني أهلى واستحمقوني وأشبعوني لوماً وتقريراً ، فقبلتك بعلاً . . . أظن انك

لا تعرف صاحبي هذا؟؟ بلى تعرفه ! ومن تراك تعرف إذا جهلته؟؟ ولقد عاد منذ قليل بملء جيوبه ذهباً وهو يحسب أن قد ساعفته الأيام على بلوغ أربه ولا يدري انه آب بعد الأوان!.. وان من حقه ان أكون له دونك ، وقد كتب إلى يتقاضاني الوفاء الذي أقسمت له عليه فألهب كتابه النار التي كنت اخالها قد خبت .. وماذا عليك لو تركتني له ؟ القى له ولو كالعظمة ان شئت ! وانت امرؤ لا يرى الدنيا إلا سوقاً تفسدها العواطف . وقد شاء ربك أن يرد قلبي إليه ويحفظه عليه ولست بقادر ، مهما تصنع ، ان تعترض قضاء الله او تحول دون مشيئته ، ولخير لك أن ترمى الى بزمى . ولأن تدعى جاهلاً ما كان من أمرنا أفضل من أن تبقيني فتعلم ما نطويه عنك . . . نعم فقد رأينا ان الزواج لا سبيل إليه بعد ان بنيت انت بي ، فتوافينا الى بقعة مهجورة على ساحل اليم وتعاهدنا ان نكون زوجين واشهدنا على زيجتنا هذه نجوم السماء والبحر والريح . وانه لعقد لا يعترف به الناس غير انه مع ذلك صحيح فيما بيننا ، ولأن يكون هو زوجي وعقيدتي اولى من ان تكونهما انت !! ولا نكر ان الأمر كان موكولاً الى اختياري وانى آثرتك عليه امام الناس ولكن هذا كان لا مندوحة عنه ولا بد منه . وهل كنت تتوقع منى غير هذا فى سبيل التحفظ بشرفي؟؟ نعم شرفي ! ولست بأول انثى اتخذت من الزواج ستاراً لحينها !! ولا يخفى علي انى من أجل هذا استحق اللعنة ولكنى كنت مضطرة اليه اضطراراً . . . فأنت ترى أن كل شيء يدعوك الى تركي واطلاقى اليه . . .

هممت بأن أكشفه بهذا ولكن شيئاً عقد لساني والجم فى ، فنهخته ظهري واستقبلت الحائط . وكأثما مل طول صمتي وآله انصرافى عنه واستدبارى إياه كلما حاول ان يتألفنى من نفرتى فجذبني إليه بعنف أو لعله لم يعنف ولكن ما كانت تجيش به نفسى جسم لي الأمر فهاج هايجى واضطرم صدرى وثرث به ارجمه بكلام لا أملك حبس لساني عنه وأقول له فيما أقول

« انى ابغضك .. امقتك من اخمى قدمى الى فرع راسى ! »

قال : « ماذا تقولين ؟ » واعتدل فوق الفراش

قلت : « لقد قلتها ! ألم تسمع ؟ لقد كان غيرك اولى بى لو انصفت المقادير !! »

فوثب عن السرير الى قدميه كالنمر الهائج وجذبني اليه من شعرى وصاح بى بصوت وحشى اشاع الرعب فى كيافى « من غيرى هذا ؟ افصحى ايتها اللعينة ! »

فلم أستطع جواباً وعقد الخوف والألم لسانى وأنا جائئة عند قدميه وخصل شعرى ملفوفة على يمينه ، وشماله على جمينى يرفع بها وجهى إلى عينيه ومضت برهة كأنها الدهر ونحن كذلك ثم شد شعري وقال « انهضى » ودفعنى الى السرير « اسمعى ! لن أقتلك فأنت أهون من ذاك وعندى ما هو شر من القتل . فاعلمى انى لست كغيرى من الرجال ! انك زوجتى « انا » - وعض هذه الكلمة - وستظلين زوجتى « انا » رضيت ام سخطت ! ولست أعباً شيئاً بالناس وما عسى أن يقولوا . ويميناً ليس عندى لك سوى السوط امزق به جلدك وأطير به من رأسك الفارغ كل ما يمكن أن يعشش فيه من الأباطيل ولأطعمنك اياه كلها أجاعتك إليه الاهواء السخيفة ،

فبكيت وسرت فى بدنى كرعدة الحصى وتصأكت أسناني فصاح بى ان « ازجرى عينك عن البكاء فإست بمن تلينهم الدموع أو تخدعهم ! ويظهر أنك تغفلتنى أو كنت تحدثين نفسك بتغفلتى . وسألقى عليك درساً يؤدبك غير هذا الأدب » فلم أجبه وظهرت على وجهى وهيمتى أمارات الاستخذاء والضراعة ولم يتركنى حتى أقسمت له ان أصدقه الولاء وأحضه الوفاء .

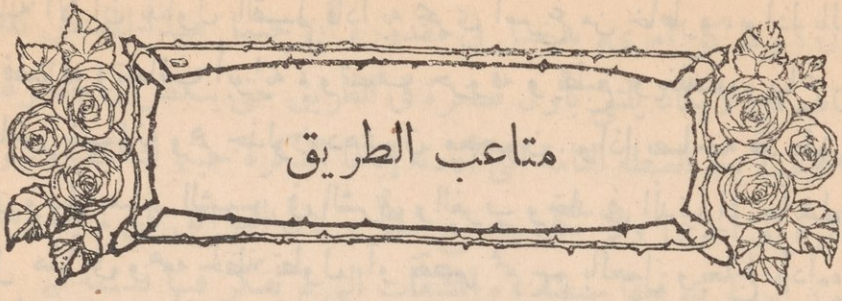
ثم نهضت الى المرأة مرة أخرى وهى تقول « وقد أخلصت .. وحمد لى اخلاصى . وتبنى غلام صاحبى ، ولكنى صرت الى ما أرى ! .. وقد اسمعه أحياناً يهتف بى مناجياً « أيتها المرأة التى أفقدتها ! من لى بأن أراك كما كنت تبدين لى ! »

لشد ما اتعثر الآن في سيري بعدك ! وما اكثر ما يتساقط حولي من أوراق
الحياة وأزاهيرها ، ولكنني لا أستطيع أن أجيبه حين يهيب بي وان كنت اتبع
له من ظله .

وتنقشعت السحب عن القمر فنفذ الى الغرفة نوره فرفعت طرفي اليه ثم ثنيته
اليها فاذا بالفتاة قد غابت ! .. ذهبت كما جاءت بلا استئذان ولا احتفال .. فخطر
لي أن اعالج الباب لانظر أمفتوح هو أم مغلق وأن أرى ماذا في الدولاب وتحت
السرير ! ولكنني استحييت من نفسي ! واشعلت سيجارة. وجعلت أدخنها رائحاً
غادياً في الغرفة حتى اذا قاربت الانتهاء منها الفيتني واقفاً أتأمل صورة حسناء !
فابتسمت وقلت : « اهذا انت يا فتاتي ؟ كيف خرجت من إطارك هذا بالله
عليك ؟ ؟ لشد ما ازعجتني يا سيدتي ! فما جزاء من يعايب ضيوفه على هذا النحو ؟
أن أواريك عن عيني ! نعم ! »

وقلبت الصورة وادرت وجهها الى الحائط وقلت وأنا أتمطى على الفراش .
الآن أستطيع أن أنام في امان من خيالاتك أيتها الحسناء الماكرة !





ليس أخطر من التعميم في الأحكام ، ولا سيما اذا كان الأمر خارجاً عن دائرة العلوم المضبوطة وخصوصاً بما يختلف فيه الناس ويتباينون ، ولكننا مع هذا نستطيع أن نستغنى عن الاحتياط الى مدى بعيد ، وأن نأمن الخطأ الى حد كبير حين نقول ان المرء حين يعشق ، أى حين تستبد به الرغبة وتطغى به العاطفة ، قل أن يفكر في الاحتمالات أو فرص النجاح ، أو في ماله من الصفات والمؤهلات التى تعين على التوفيق أو تحول دونه أو في طبيعة المرأة التى فتنته واستولت على هواه . ذلك أن المرأة تقع من نفسه فيجيش صدره بالرغبة فيها وتضطرم نفسه عليها ويغيم كل ما عدا ذلك فلا يرى أو يسمع أو يحس الا هذه العاطفة المتأججة التى تسد عليه كل فجاج النظر . وغير منكور أن فى الناس من يسعه ضبط نفسه وقياس آماله الى قوته وكبح عاطفته اذا تبين أنها موشكة أن تركض به بين الوعور ، كما أن فيهم من يمسى على وجهه كالمعصوب العينين أو كالخمور حتى ينتهى الى غايته أو يقع دونها ، ولكن هذا لا ينفى أن العاطفة تملكه قبل التفكير وهذا هو الذى نريد أن ننبه اليه لو أن الأمر محتاج الى تنبيهه

✕ والاديب شبيهه بالعاشق ، يعرض له الخطر فيستهويه ويسحره ولا يجرى فى باله فى أول الأمر شىء من المصاعب والعوائق ولا يتمثل له سوى فكرته التى اكتنظت بها شعاب نفسه ، ولا ينظر الا الى الغاية دون المذاهب ، ويشيع فى كيانه الاحساس بالآثر الذى سيحدثه وقد يتصور الأمر واقعاً ، ولا يندر أن يتوهم انه

ليس عليه الا أن يتناول القلم فاذا به يجرى أسرع من خاطره ، واذا بالسكتاب تتوالى فصوله وتتعاقب أبوابه ، وتصف حروفه ويطبع ويغلف ويباع . ويقبل عليه الناس يلتهمونه وهم جدلون دهشون معجبون . واذا بصاحبه قد طبق ذكره الخافقين وسار مسير الشمس في الشرق والغرب وخلد في الدنيا الى ما شاء الله !! يكبر كل هذا في وهمه لحظة تطول أو تقصر ثم يهم بالعمل ويعالج أداءه فيتبين أن عليه أن ينضج الفكرة ويتقصى النظرة ويلم بهذا ويعرج على ذلك ، ويستطرد الى هنا ويمضى الى هناك ، ويدخل شيئاً ويخرج خلافه ، ثم أن يصب ذلك في قوالب ملائمة ينبغى أن يعنى بانتقائها ، وان يتوخى في الأداء ضرورات تقسره عليها طبيعة الخواطر او المسائل — هذه تتطلب ايضاحاً وتلك لامعدى في سوقها عن تحرى القوة في العبارة أو اللين أو السهولة أو الجمال أو غير ذلك ، وأحر به حين يكابد كل ذلك ان تفر حرارته الاولى وأن يدب الملل في نفسه ، وان يضجره أن يضطر أن يقطع الطريق خطوة خطوة ، ويكتسب الفكرة الرائعة الجليلة التي استغرقته وفتنته ، كلمة كلمة ، ويتناول منها جانباً بعد جانب ، وان يعانى في أثناء ذلك مشقات التعبير ومتاعب الاداء ، وأن يدعن لاحكام الضرورات ، فلا يستعجل فيفسد الأمر عليه ، بل يكر أحياناً الى ما كتب ويعيد فيه نظره ويحيل قلبه مرة وأخرى وثالثة اذا احتاج الأمر الى ثانية أو ثالثة ، ويصبر على برح ذلك وعنائه وتنغيصه وتغيثه يوماً وآخر ، وأسبوعاً وثنائياً ، وشهراً وعاماً وأكثر من عام أو أعوام اذا دعت الحال . وفي أثناء ذلك كم خالجة عزيزة يضطر أن ينزل عنها ويدعها مدفونة في طيات نفسه لعجزه عن العبارة عنها وتصويرها وابرازها في الثوب الذى ينسجم عليها ويحلوها للقارئ كما هي في ذهنه ، أو لأن كلمة واحدة — واحدة لا أكثر — تنقصها لتستوفى حقها من التعبير الذى يكفل لها الوضوح أو الحياة ؟ كم معنى يتركه ناقصاً أو غامضاً وهو « يحسه » تاماً ويتصوره في ضميره كاجلى

ما يكون؟ وما كل امرئ يدخل في مقدوره أن يحتمل هذا المضض كله. ومن الكتاب من لا يكاد يلتقي بأول صخرة في الطريق حتى ينكص راجعاً وهو يشعر بمرارة الخيبة بعد الغبطة التامة التي أفادته إياها الفكرة حينما نشأت، ويروح يطير من فكرة الى أخرى ولا يكاد يصنع شيئاً. لان العوائق التي لم يقدرها تغلبه، والوعور التي لم يتوقعها تهيبه، والمشقات التي لم يفكر فيها تسئمه.

والادب إلهام وفن. ولكل فن أدواته وآلاته، ولا بد فيه من الاحسان والتجويد، أى من الصبر وصحة النظر وسلامة الذوق وصدق السريرة وحسن الاستعداد، وما كان الصواب وصحة النظر ودقة الاحساس وحسن التخيل والقدرة على ذاك وغيره بمقصورة على الادباء ولا هي بوقف عليهم، ولكن كم من تفيض خواطرهم بالخيالات الرائعة والآراء السديدة والاحساسات العميقة يستطيعون أن يبرزوا هذه ويحدثوا فيها صوراً ويجلوها للناس كما هي في نفوسهم؟؟

الألفاظ، التي هي أدوات الكتابة، موجودة، ولعل غير الاديب لها أحفظ وبها أعلم، وهي في طريق من شاء، غير أنها ليست كل ما يحتاج المرء ليكون منه كاتب. كذلك الأصباغ والألوان حاضرة من شاء مد إليها يده وتناولها وصنع بها ما أحب، وهي مادة التصوير، ولكن من ذا الذي يحسب أنها كل ما ينقص المرء ليكون مصوراً؟ وكذلك لا يغنى العلم بالقواعد والاصول. وما عسى أن تكون قيمتها وحدها؟ هذا وجه يريد المصور أن يرسمه وينقل الى اللوح ما يترقق في صفحته من المعاني ويجول فيه من الأمواه، فكيف بذلك؟ كيف يجعل هذه الشفة ناطقة بالسخرية، أو تقويصة الذقن معبرة عن التصميم، أو لمعة العين شاهدة بسجاجة الخلق ورضى النفس؟ وكيف يشعرك ما يشعر به هو من السحر أو الدلال، أو القوة والجلال، ويفيدك ما أفاد من الانس والغبطة والروح؟ أو كيف يجعلك حين تنظر الى الصورة الحاكية تشتهي — مثله حين يحتل الأصل —

أن تغمض عينيك وتنقل نفسك الى عالم آخر من الخيالات والخواطر والاحساسات؟ وما يقال عن المصور يقال مثله أو أكثر منه عن الكاتب أو الشاعر . والامر في كلتا الحالتين يحتاج الى فطرة مهيأة له أسبابها وذوق مؤازر وسليقة مناصرة ومملكة معينة على حسن اختيار الرموز الكفيلة بافراغ الخواطر في القوالب الملائمة ، والقادرة على إحداث الصور المطلوبة في أذهان القراء . وعلى ذلك يكون المرء صانعاً لا أكثر اذا رزق الفن وحرم الألهام — صانعاً كهذه الآلات التي تدور بلا روح وتخرج ألواناً وضروباً من الصور تعجب بصقلها ودقتها واحكام صنعها ولا تحس أن يد انسان حي أو قلبه وراءها

وكم من الناس يفكرون فيما يقاسيه الأديب ؟؟ أين ذاك الذي يطالع الكتاب أو الديوان ويعنى بأن يصور لنفسه الجهد الذي بذله صاحبه والغصص التي تكبدها وصبر عليها — جهد التفكير والأداء ، وغصص النجاح والفشل على السواء ؟؟ انه لا يقدر ذلك الا من عانى هذه المآزق وخاض غمراتها وذاق مرارتها . وشبيه بهذا أن يقف رجل من الأوساط العاديين أمام صورة يتأملها ويدير فيها عينه ويعجب بها أو لا يعجب ، وهو لا يدري أنها ليست ألواناً وأصباغاً مزجها المصور وزاوج بينها وساقها ، بل قطعة حية من نفسه اذا نظر اليها صاحبها كرت أمام عينه سلسلة طويلة من الألم واللذة والندم والغبطة والغيط والسكد والسخن والرضى والأمل والخيبة ، ومن أسبابها ودواعيها المباشرة وغير المباشرة

لى صديق مصور مخلص لفنه دعاني مرة الى محله — وكان هذا منذ سنوات ثلاث — وقال : « انى أريد أن أرسمك لانى أتوسم فى رأسك مادة صالحة لصورة لها قيمة فنية ، فشكرت له ذلك وقلت له ، ان عندى من الغرور ماهو فوق الكفاية ، ولم يكن ينقصنى أن أعلم من فنان مثلك أن رأسى جدير بالتصوير ، ثم جعلت اختلف الى داره فى الاوقات التي يعينها ، وأجلس اليه فى كل يوم من هذه الايام نحو نصف ساعة تتخللها فترات أستريح فيها من هذه الجلسة المتعبة .

فيكان ربما بدأ مرتاحاً إلى العمل مقبلاً عليه مهتماً، ثم لا يلبث أن تعتريه السكابة ويعلم وجهه الوجوم فتتبدل يداه وينثنى رأسه على صدره ثم يرفعه ويرسل زفرة غيظ من بين أسنانه المطبقة ويعود كالذي يهيم أن يتناول اللوح فيمزقه . ويعمد إلى فيرمي رأسى بالكراسى والألواح ، ويطرذنى رفساً بقدميه !! وكنت أحاول أن أرد إليه ما يعزب عنه فى هذه اللحظات من خلقه الوداع وأقول له، ان هذا الذى تكابد ليس بغريب عنا معشر الكتاب وربما كنا أسوأ من المصورين حالاً وكان فننا أشق وأمر ، فيقول كلا ! انكم أيها الكتاب . تستطيعون أن تسوقوا خواطركم ومعانيكم واحداً فى أثر واحد فان أغفلتم معنى لسبب من الأسباب فقلما يفتن القارئ الى ما أهملتم ، وهل كان يدرى قبل أن يقرأ كلامكم انه كان فى رؤوسكم كذا وكذا . فأوردتم منه هذا وأطرحتم ذاك ؟ ولكن صورة الوجه على اللوح إمان تكون حية ناطقة أو ميتة خامدة الروح، وليس يخفى موتها أو حياتها على الناظر إليها ، وقلما يفوته التقصير فى انطاق الوجه وإداء المعانى المترسمة على صفحته . وقد تدق بعض المعانى المكتوبة عن الافهام لتعويصها أو غرابتها أو سموها أو لطفها ودقتها، ولكن شخصية الانسان لا تخفى على الانسان . وقد يعجزه أن يصفها ولكنه لا معدى له عن أن يحسها ، والصورة كذلك ، ومن هنا كانت أشق وكان الاخفاق أخلق بأن يكون أبين

وأذكر أنى منذ أكثر من خمسة عشر عاماً قام بنفسى أن أضع كتاباً «ضخماً» فى فلسفة الشعر، وأن أجعل هذا عملى الأدبى فى حياتى، وقلت لنفسى حسبى به إذا رزقت التوفيق فيه ، واستخرت الله فى امضاء الفكرة ، ولم يكن يغيب عنى فدحها فشرعت أعد لها العدة الكافية وأقرأ كل ما استطعت أن أقرأه مما له علاقة قريبة أو بعيدة بموضوعي . وقسمت الكتاب إلى أبوابه التى تنطوى تحتها أغراضه . وحصرت كل ما أريد أن يتفرع إليه ، ثم لم تزل تقوم الموانع وتعترض الحوائل

ومضت على وعلى كتابي هذه السنوات الخمس عشرة ولم أتجاوز الى هذه الساعة المقدمة وفصلين أحدهما هو المدخل ؟

ويظهر أنه ليس أعون على المشاورة والصبر من « خفة » الاحساس ، ومن أن يكون المرء بحيث لا يحتاج آماله أو مخاوفه الى درجة من الألم والالاحاح لا تُحتمل ولا يسع المرء معها رفقاً بنفسه وابقاء عليها إلا أن يفرغ من الأمر الذى يعالجه ولو خسر فى سبيل ذلك غايته ~~و~~ أعنى أن يكون المرء هادئ النفس قليل الاكتراث قادراً على الانتظار ، مطيقاً للصبر ، راضياً عن نفسه مستعداً للارتياح إلى كل ما عسى أن يشغله ، يستوى عنده أن يكتب فى الفلسفة أو يصف حوانيت الباعة ، وأن يستكشف القطب الشمالى أو يهتدى الى حانة تبيع الوسكى بأثمان زهيدة ومقادير كبيرة ، ما دام هو الذى يفعل هذا أو ذاك وما دام رضاه عن نفسه لا يضعفه سبب من الأسباب . وليس من النادر أن يرزق هذا الضرب من الناس حظاً من البساطة الطبيعية ترفعهم وتذرى منهم . ولكن ما عسى صبر الذين تطفئ بهم البواعث القوية وتلج بهم الاشواق الحادة والرغبات الجارحة ، وتدفعهم الى محاولة الوثوب ، وتعجلهم ولا تدع لهم فترة راحة يروضون فيها نفوسهم ؟

ولعل هذا هو السبب فى أن الأمة الانجليزية لم تنبغ فى شئ نبوغها فى الشعر الذى يرجع فى مرد أمره الى الارادة والعاطفة ، وأن الأمة الفرنسية من « أفصح » الأمم ~~و~~ ذلك أن الشعر عبارة عن الاحساس الذى يعترف به المرء لنفسه ساعة الخلوة بها ، ويرمز له بما هو أقرب إلى الصورة التى هو عليها فى نفس الشاعر . أما الفصاحة فاحساس كذلك ولكنه يصب فى أذهان أخرى ويلقى إليها طلباً لعطفها أو التماساً للتأثير فيها أو نشداناً لتحريكها وحفزها الى العمل ، ومن هنا كانت الأمة الفرنسية أضعف الأمم الكبرى شاعرية وأفصحها فى الوقت ذاته إذ كانت أشدها غروراً وأعظمها اعتداداً بالنفس !



مجالسة الكتبة

ومجالسة الناس

كنت أهم بأن أكتب غير هذا المقال، وكانت الفكرة حاضرة، والورق مهياً، والقلم مبرياً، ولكنني أشرفت من النافذة فأخذت يميني صبيماً يلعب بالحصي ويهيل الرمال، وفي ناحية أخرى فتاتان تتحداثان وتتضحكان، فقام بنفسى سؤال لم أستطع التملص منه على فرط ما جاهدت: ماذا يعبأ هؤلاء بما كتبت أو بما عسى أن أكتب؟؟ بل هبني جعلت الصبي والفتاتين موضوع مقالى وأدرته على ما أرى منهما ومنه؟؟ أيكترثن لى أو يحفلن بى وبما أسطر؟ كلا! ولعل أخرى بى أن أسأل: أيعود أحد منهم أصلح للحياة وأقدر عليها وأعرف بها من أجل أنى أجريت هذا القلم بكلمات فيه أو عنه وهو لو قرأها أو تليت عليه لما أحس أنه موضوعها؟؟ كلا أيضاً! ومع ذلك أباهى بما قرأت، واعتز — على الأقل فيما بينى وبين نفسى — بما كتبت، وأفرح بالخالجة تدور فى نفسى لحظة، ويجيش بها صدرى برهة، وقد أضعتها فى كفة وأضع الطبيعة كلها فى كفة أخرى! وبعبارة أخرى: أغالى بالفن وأعدو به قدره ثم انقلب بجزء من يفعل ذلك!

أى شيء هذه الكتبة؟ ستقول أنها عالم حافل بالمتع، وأنها السكندك، ولكن أين ذلك الذى يسعه أن يزعمها العالم الوحيد؟؟ وهى ديوان قيد فيه السلف ما وسعهم أن يورثونا إياه من معارفهم وخواطهم وتجارهم، غير أن هذا ليس

معناه انها كل ما يمكن أن نعرف أو يخطر لنا أو نحسه أو نجربه . والحياه كتاب
أوسع وأضخم من كل ما حوت المكتاب قديمها وحديثها وليس ما على رفوفنا
سوى صفحات قليلة من هذه الموسوعة الهائلة . ولقد عبر « هولوكو » على جسر
من المكتب فلم تقف الدنيا ولم يثقل الزمن رجله ، ومضت الحياه في طريقها
كأن لم يحدث شيء ولم يفقد الناس هذه الكنوز ، بل كأن لم يكتبها أحد ولم
يضمن فيها نفسه ، ولم يخلق في تحبيرها ايامه ، ولم يبيل في اخراجها حياته ! بل كأن
لم يكن أصحابها قد خلقوا قط ! **الوهل** ما أخرج الكتاب من آثار أقلامهم هو كل
ما كان يمكن أن يكتب ؟ ؟ لا أظن أحداً ممن يعانى الكتابة يذهب الى هذا ، فلعل
ما كتبوا ليس الا بعض ما اضطرب في صدورهم وقد لا يكون خيره . والكتاب
الذين ظهروا في هذه الدنيا ليسوا كل من يحس أو يفكر قرب تاجر يمسي ويصبح
بين السلع ، جيدها ورديتها ، والمساومات شريفها ووضيعها ، والمكاسب حلالها
وحرامها ، هو أبعد مدى ذهن وأوسع مضطرب فكر من كانت أو كونت أو من
شئت غيرهما ، ورب حمال يقضى عمره حانياً ظهره للاثقال هو أحس بالحياه
والطبيعه من ابن الرومى ، وقد تزدرى أميا جاهلاً وهو — لو علمت — أحكم
طبعاً من المتنبي ، ولكنه الغرور ولا أدري ما ذا أيضاً — فليس أبغض الى من
التقصى — يخيل لنا أن الحياه تعقم بأمثال من ظهروا ويظهرون فيها من الكتاب
والشعراء والفلاسفة ومن اليهم ! وكل هؤلاء الذين نعدهم « نكرات » يأتون الى
الدنيا ثم يخرجون منها ولا يخافون وراهم أثراً أدبياً والدنيا لا تنقص بذلك كما
انها لا تزيد بمن نعرف من أبنائها ، المعارف ، ! والحياه كالأوقيانوس الأعظم
لا يزيده صوب الغمام ولا ينقصه ما تأخذ منه ! وهب الدنيا خلت بمن عليها من
الناس ، وصفرت من كل أصناف الخلق فماذا اذن ؟ لا شيء ! تظل الأرض دائرة
حول الشمس ، ولا تكف الشمس عن اضائها كما تفعل الآن اذ نحن عليها نروح

ونجىء ونسكد ونسعى ونشقى ونسعد ثم نموت ! ونحن نموت أفراداً وجيلاً
 جيلاً أليس كذلك ؟ ولا تعود الدنيا موجودة فى نظرنا — لو أنه بقى لنا بعد
 الموت نظر — ولا نعود نحن فيها ، أليس هذا هكذا أيضاً ؟ فهب جيلنا كان آخر
 جيل ، أفقتن أن الدنيا كلها تقضى نجها من أجل أننا نحن قضينا نجبنا ؟ اذن لا
 « تصوب » نظرك يا مازنى الى هذه الحيوأت الصغيرة الساذجة التى تبدو لعينيك
 اذ تطل من نافذتك ولا تبتسم اذ تجتلى مظاهرها كأنك تردريها أو « تترى » لأصحابها
 الذين لم يقرأوا ما قرأت ولم يعرفوا ما عرفت . فانها حافلة بالمتع والعجائب كهذه
 المكتب التى تعنى بها ولا تسكاد تحفل ما عداها ، ولعلها — لو بلوتها — أجدى
 عليك وأشرح لصدرك مما أضعت عمرك فيه

وما من ريب فى أنى لو كنت أصغر مما أنا اليوم بعشر سنوات أو خمس عشرة ،
 لخرج المقال من يدى على غير ما يخرج الآن ، ولـكان الأرجح فى الاحتمال أن
 أشيد بذكر المكتب والعكوف عليها والانقطاع لها والانصراف عن الدنيا من
 أجلها ، ولـكنى لسوء حظها كبرت !! وبلوت من جرأئها ما أسخطنى عليها
 وبحسبى من ذلك أن صارت مجالس الناس وأحاديثهم عندى غثة لا تسكاد تساغ
 ولا تستمرأ ، وأنى مضطر أن أعالج نفسى لأطبقها وأصبر عليها ولا أقول لا استمتع
 بها . وليس ذلك لعزوف طبيعى عن الناس وكراهة لمخالطتهم ولـكنها المكتب
 قبحها الله ردتى كالمترف الذى تؤذيه خشونة العيش ! ألسنت قد عشت بين خير
 العقول وأحسن النفوس ، وألفت أن أتناول عصارة الأذهان وخلاصتها النقية
 الممحصنة ، واعتدت الصقل فى سوقها والفن فى عرضها وابرازها ؟ فما عسى الصبر
 اذن على أحاديث المجالس الخاوية المسكرة المبتذلة ؟؟ كيف لمن يقضى الشطر
 الأكبر من أيامه ولياليه بين شعراء الدنيا وكتابها ، باطاقة المستوى الذى لا تسكاد
 ترتفع عنه أحاديث المجالس ؟؟ وما للسكبر دخل فى هذا ولا للغرور أصبح فيه
 ولا ظفر ، وإنما هى العادة التى يقولون عنها انها طبيعة ثانية . وما مثلى الا كمثل

الذى نشأ في بيئة ارسقراطية كما يسمونها ودرج على عاداتها وتقاليدها وآدابها ،
 مثل هذا لا يحسن أن يعايش من هم من طبقة الخدم والطهاة أو العملة وباعة الأسواق .
 ولا شك أنه يحادثهم أحياناً ويحتك بهم قليلاً ، ولكن هذه ليست معاشية ، وأكثر
 ما يكون اتصاله بهم حين يصدر الى واحد منهم أمراً أو يبتاع سلعة أو يفعل
 ما هو من هذا بسبيل ، ولو أنه جالس طائفة من هذه الطبقة لملها واستثقل
 وطأتها على كاهل صبره . والعكس صحيح أيضاً . وليس السبب أن هذا من طبقة
 عالية وذلك من طبقة واطية أو متوسطة بل السبب فيما أظن هو أن من تتباين
 نشأتهم وتتباعدهم طبقاتهم تضيق بينهم الدائرة المشتركة ، والأحاديث تدور على
 ألاكثر في هذه الدائرة . ومن هنا لا يطرد الحديث في مجاريه العادية بين من
 ألفوا الكتابة والقراءة وبين سواد الناس . ذلك أن الكاتب اعتاد التفكير
 وإطالة النظر الى المسائل من كل الجوانب التي يتفطن إليها ويسعه أن يحيط بها ،
 وأن يعرضها مرتبة مبنياً بعضها فوق بعض ويسوقها في عبارة يتخيرها لها ، وليست
 الأحاديث كذلك فهي متقطعة متوثبة سطحية في الأعم والأغلب ، ولا يزال
 الناس ينتقلون في مجالسهم من موضوع الى آخر ولا يترشون هنا أو هنها ، فيكون
 الكاتب بين أمرين : أن يلزم الصمت ، أو أن يثقل على جلسائه . ولا شك أن
 غشيانه المجالس واختلافه اليها يصقله ويعده لها ويذل له ما تقيمه عادته من
 العقبات وقد ينفعه ذلك ويحرك ذهنه ويطلقه من القيود التي تحفه بها مزاوله فنه .
 ولكنه لا شك أيضاً في أن روح الأحاديث هو التعاطف وأن تباعد ما بين
 الجلساء يضعف هذا التعاطف ويحيل المحضر موقراً باحتمالات الملل والسآمة من
 الجانبين . والمرء لا يستطيع أن يسمو فوق مسعاه لأن استطاعة ذلك معناها أن
 المرء يسعه أن يحلق فوق نفسه وهو عين المستحيل . واعلم أن « الماسونية » ليست
 بمقصورة على رجالها وأن لكل طبقة منها نصيباً ، وكما أنه لا يفهم رموز الماسوني
 حق فهمها إلا صنوه وقرينه كذلك لا يتم التفاهم إلا بين القرعيين . على أن بعض

الناس يذهبون الى أنه لاخير في محادثة القرناء إذ كانوا خلقاء أن يعرفوا ما عساك تقول وإنما يحلو الحديث وتجدى — كما تجدى الصداقة — بين المختلفين . وهذا صحيح ولكنه ليس كل الصواب لأن كون اثنين في مستوى واحد لا يستوجب التطابق بينهما . وهذه المدارس تلقن التلاميذ علوماً واحدة غير أن هذا لا يجعلهم أشباهاً ولا يحيلهم كالنسخ المتعددة من الكتاب الواحد . وقد يقرأ الكتاب رجلان ويخرج أحدهما بغير ما يخرج به صاحبه

+ والكاتب يعنى بالفكرة قبل أن يعنى بوقعها ، وهمه الأول جلاؤها وعرضها في أحسن حلاها وأقواها ولا ريب أنه وهو يكتب يجعل باله أيضاً الى التأثير ، ولكن هذا لا يشغل من نفسه الحيز الا كبر بل هو يأتي تبعاً لمعالجة الاداء والحال على خلاف ذلك في الأحاديث فأف المرء لا يزال يدير عينه في وجوه الجلساء ليستشف منها الأثر الذي أحدثه كلامه . وما أشبه الكاتب بالممثل الذي يعنى بدوره ويصرف همه الى القيام به ويخلى ذهنه ، على قدر ما يسع انساناً أن يفعل ذلك ، من التفكير في جمهور النظارة الذين يجعلونه قيد أبصارهم ، أما حديث المجالس فقريب الشبه بالخطابة ، بل هو صورة مصغرة منها ، والمرء لا ينفك ، كما أسلفنا ، يستنجد الوجوه ويستنجد العيون ويحاول أن يتخذ منها مراحاً يحتل في صقلها وضاعة حديثه وبهجة كلامه ، ومن ذا الذي لا يعنيه ما يند عن شفثيه ولا يبالي أين وقع ، ولا يكثرث لكلامه أتلقفه الناس أم ذهب مع الريح ولم يلتفت له أحد ؟ ولهذا لا يسع المرء إلا العناية بأمر جلسائه ، وإلا مراقبة حالة نفوسهم ، فيرفع معهم ويخلق إذا رآهم مطيقين للتخليق ، راغبين فيه ، مستعدين له . ويهوى معهم إذا هوت بهم البلادة أو التعب أو الضجر أو غير ذلك .

وأعنى المجالس وأثقلها على نفس الأديب تلك التي تتألف من الأوساط أدعياء الثقافة . فيها يدور الحديث على الآداب والفنون ولكنه حديث منقول

عن الصحف والمجلات يلوكون فيه ما تكتبه لهم ، ويفسدونه افساداً لا سبيل الى الصبر عليه . وعذرهم واضح وعذرك أوضح . فالموضوع الذى يردونه منك اليك لا يعينهم كما يعينك ولا يستمدون الباعث على طرقة من أعماق نفوسهم مثلك . وقد لا يدرون عنه إلا بعض ما التقطوه منك . وتشعر بالتعزز اذ ترى القوم يمزقون بأنبياءهم خواطرك ومعانيك ويلقونها اليك خرقاً قدرة ، وتصعدك الآداب العامة عن تنغيصهم ، ويقضى ذلك على صدق السريرة ويذهب بالاخلاص ، ويغيض من جراء ذلك معين اللذاذة المستفادة من الاجتماع . ومن هذا الضرب أفراد يحفظون من الكتب أسماءها وأسماء مؤلفيها ، وبعض ما يقال عنها ، ويدورون بهذا على المجالس يعرضونه عليها كالأعلانات حتى لكأنهم فهارس حية أو قوائم متنقلة !

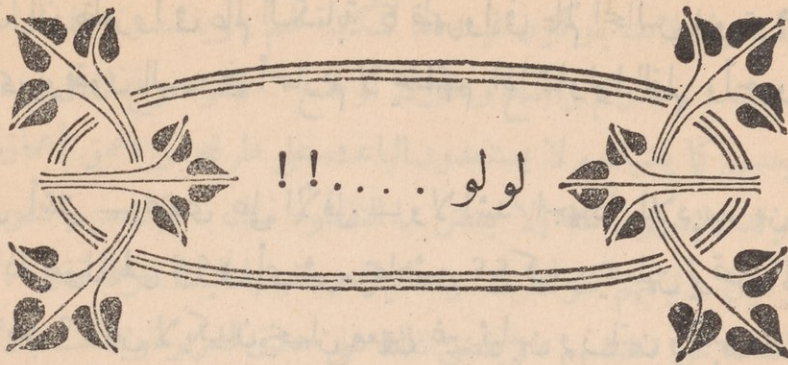
وليس من النادر أن يكون الأدب أو العلم ، أو غير ذلك مما اشتهرت به من ذنوبك عند بعض الناس ، فلا يكاد يغشى أحدهم مجلساً لك أو يلتقى بك حتى يشرع فى تنغيص متعك وتكدير صفوك . فاذا كان الشعر فنك أنحى على الفن كله ، وبسط لسانه فيه ، وسمّى كل سخافة «خيال شاعر» . واذا مدحت شيئاً أو أظهرت ارتياحك اليه أو ولوعك به ذمه وسخر منه أو عرض بسوء رأيه فيه واحتقاره له — ولك ضمناً — اذا جبن عن التصريح . وهكذا يظل يطاردك ويتعقبك حتى يسود الدنيا فى عينيك ويملاً نفسك نقمة على الحياة والناس اكراماً له !

✱ والأديب كالمغنى الذى يرسل صوته غير معتمد على آلة موسيقية تشبع أنغامه وتسد نقصها ، وتملاً فراغها ، وقد ألف أن يجعل معوّله على ما للعبارة وحدها من وقع . وليست كذلك الأحاديث التى تستمد جانباً كبيراً من قوتها أو حلاوتها أو بهجتها من المكان ، والاجتماع ، والجلساء ، وهيئة المحدث وإشاراته ونظراته وصوته . ومن هنا يخطئ كثيرون ممن يبرزون فى المجالس فيحسبون أنهم

يستطيعون أن يظهروا في عالم الكتابة كما يظهروا في عالم المجالس ، ويتوهمون أن الواقع الذي يوفقون اليه في أسماهم لا يخطئهم اذا تناولوا القلم وأجروه بدلاً من اللسان .

وليس أشق — عندي على الأقل — ولا أشد اجتهاداً للاديب من مجالس النساء ! ماذا يقول هن ؟؟ في أى شيء يحادثهن ؟؟ كيف يجعلهن يرتحن الى حديثه ويتقن املاهن ؟؟ هن لا يكدن يحمان معهن غير ثيابهن وزينتهن وعجبهن ، وما يتصل بذلك من قريب أو بعيد ، وهو لا يكاد يحمل معه سوى آرائه ، فكيف السبيل الى التوفيق بين هذه وتلك ؟؟ ومجالسة الكتبة تحيل المرء أشبه بها حتى ليعود وكأنما لا ينقصه الا أن يغلف ويوضع على الرف بين اخوته !! وطول العهد بها يشيب النفس قبل إشابة الرأس ، ويطفئ لمعة العين ، ويعوق تدفق النشاط الجفاني ، ويغرى بالسهر والسمت ، ويفعل ما هو شر من ذلك : يبعث على التعلق بالمثل العليا وصور الكمال ، ويُسرب النفس حبها ويعلمها نشدانها . فاذا راح يضرب في غمرة الحياة تعثر ولقى في كل خطوة صدمة : كالذى يسلك طريقاً ومعه مصور خلافه : !





لولو؟ ما «لولو» هذا أو هذه؟ أهى فتاة حرة المقلد؟ أم طفل غرير مدلل؟ أم زهرة نضيرة؟ أم عصفور مغرد؟ أم أغنية شجية؟ أن فى اللفظ ما يُشعر «بالصغر» ويكر بالذاكرة الى «الشباب» — ان كان قد ولى أوانه — وحسبك أن نطقه يتقاضاك زم الشفتين، وتكليف العينين ابتسامة الدعابة ولمعة الغبطة، وتجشيم الأسارير الابرأق، والنفس محاولة الأشرأق، فماذا هو؟ لا أدرى!! ولعله كل ذلك، فما اعرف من اللغات الا ما ليس فيه هذه، ولقد شليت عن الطوق «جداً» وارتفعت عن كل حداثة ارتفاعاً أجلسنى على ربوة الحياة حيث تنازع السحب الضياء، وأما الشباب وإيماض العيون واشراق النفس فأنى أنا القائل:

لعمرى ما أسوأ القرناء!	نضب العزم، والمنى ثرة العين
أضعيف يظهر الأقوياء؟؟	شبهة العزم مع شباب الأمانى!
فاجعل العزم والمنى أكفاء	دون ما تبتغى حوائل ضعف
لست فيما أرى لشيء كفاء!!	أيها «الطين» ما ترى بك أبغى!
أو الأرض كنت لى عصاء	ان طلبت السماء قلت لى الأرض؟
لست أستطيع صوغه والاداء	صرت حتى الذى أفكر فيه
والنفس تهرم أحياناً قبل الجسم، فتعود وكأن الزمان عمرها، وإن كانت	

بسببها صغيرة ، وكلما أحس المرء ديب الهرم زاد شعوره بالتبعات ، ووجد أن الحوادث لا تتوالى على روى واحداً ، وأن منطق الطبيعة غير منطق ، وأنه يدنو من مركز الدائرة وينأى عن محيطها ويشعر بالدنيا تدور حوله في صخب وضوضاء يزعجان تلك الخلية الضئيلة التي تسمى الحياة ، ويرجائها فيتمنى لو أنه استطاع أن يحول دون النمو ، وأن يأخذ على الأيام متوجهها ، وأن يبقى عمره طفلاً يدور مع الحياة على محيطها .

ولكن الذى أدريه أن صديقاً لى ، فيه شذوذ قلماً أفهمه ، قال لى عصر يوم فى الاسكندرية « متى تعود الى مصر ؟ » قلت « صباح غد . » قال : « اذن قم بنا الى ساحل البحر » قلت « البحر ولا شك خير من جوف هذه المدينة ، فلننهض اليه اذا شئت ، ولكن الى أى بقعة من ساحله نذهب ؟ » قال « وما يعينيك من هذا ؟ أوليس كله ساحلاً ؟ » فلم أشأ أن أثقل عليه فيضيق صدره ويسوء خلقه . ونهضنا الى الترام فركبناه ، وخليت بين صاحبي وبين سبيله حتى انتهينا الى آخر موقف ينساب اليه الترام ، فانحدر بي الى طريق لا يفضى الى بحر ولا الى صحراء !! وانما يؤدى الى درب بين الحقول تقطعه السيارات الى ابى قير ، ويترقرق على محاذاته جدول صغير . ثم أخذ ينفض المكان بعينه كالذى ينقب عن مخبأ فيه وهو معبس محقق فى الارض يعد خطواته فى هذا الطريق الذى ملنا اليه ، ومعلوم ان الخواطر كالمطاط لا تشغل حيزاً واحداً على الدوام . فقد ترى الخاطر الضخم مضغوطاً فى الذهن من فرط الزحام حتى ليعود كالذرة . وقد تنفخ الخالجة الصغيرة وتملأ من الذهن كل فراغ يكون فيه . كذلك كان رأس صاحبنا خالياً الا من أمر واحد هو الذى ساقه وساقى معه الى هذا المكان

ولم أرد أن أزعج عصافير رأسه وأطيّرها عنه ، فتركها تسقسق له وخليته ينصت اليها ، وسرت الى جانبه صامتاً مخففاً الوطأ ، وصرت أشفق عليه حتى من

وقع قدميه . وكنا قد ملنا الى جانب معشوشب من الطريق حسبته آثر المشى على حشائشه الندية لأن صوت الأقدام فيه أخفت ولكننا لم نكد نقطع منه بضع عشرة خطوة حتى وقف بغتة كالذى صده جدار وأوماً بسبابته الى الأرض وهو يقول لنفسه ، هذا هو المكان بعينه « وارتنى على الأرض دون أن يكثر لى كأنه لا يرانى أو كأنى لست معه ! فضنقت ذرعاً بهذا الحال ، وأسفت على مسيرته ، وما ذنبى حتى أتكلف الصبر على كل هذه الكتلة من الشذوذ ؟ لقد أردت الرياضة ولكنى أرانى كالذى خرج ليدرس موضوعاً ! غير أنى مع هذا كبحت نفسى عن مطاوعة السامة والاستسلام للضجر ، وأقنعتها بأن من المروءة أن يحترم الانسان احساساً - كائنا ما كان - يستغرق النفس الآدمية الى هذا الحد ، حد الذهول ، ويسـتولى على كل جوانبها ، ويملا كل شعابها ، وينبض به كل عرق . وما يدرينى ؟ لعل هذا الاحساس ، مهما يكن باعته المباشر ، ثمرة احساسات عمر بأسره وحياة بكل ما انطوت عليه ! ومع هذا ، وعلى الرغم من ذلك ، هممت بأن أقف على كيانه المتداعى هذا وأقول له ساخراً « أعاشق أنت ياسيدى ؟ انها لساحرة تلك التى تستطيع أن تصنع هذا بمثلك ؟ » ولكنى كان خاطراً نكطف البرق ماجاء حتى ذهب . فقعدت الى جانبه وخلعت طربوشى وغطيت به وجهه !! فاستوى قاعداً وهو يقول « انى أعرفك شيطاناً ! فلماذا أطرت أحلامى ؟ » فانحنيت له معذراً ! ففقهه ضاحكاً وكف فجأة وأطرق هنيهة ثم رفع رأسه وقال بلا تمهيد

« لقد كان هذا المكان ساحراً ، وكانت أوراق الشجر والحشائش كالجديدة ، يومض فيها ظلها تحت أشعة الشمس ، وكان يخيل لى أنها « مستوردة » لانا بته وكانت من رقة النضارة فى رأى العين بحيث كنت أشفق أن أطيل النظر اليها مخافة أن أذويها باجالة الطرف فيها . وكانت الشمس قوية ، وكان يقينا لنفحها هذا

السياج من النبات ومن خلفه هذه الخراف بأعيانها سوى أنها كانت مستلقية على الأرض لا ترعى ، وكانت الفراشات لا تكف عن الطيران من هنا الى هنا كأنما حماها صغرُها تأثير الحرارة التي تذبل ما هو أكبر منها . وكان بساطنا هذه الاغيصان الندية ، والناس يملكون بنا ويديرون عيونهم فينا ثم يذهبون عنا ونحن في شغل عنهم وعن لحظاتهم بأحاديثنا و

وماذا كنتم تقولون ؟ أو لعله ينبغي أن أقول ماذا كنتم ؟ ؟
فلم يلتفت الى استدراكي وقال

« كانت لولو فهذا اسمها عندي . . ألا تعرفه ؟ . .
قد عرفته الآن !

« . . كالتى يفيض قلبها بشيء تحبس نفسها عن الافضاء به . وكانت ربما أشاحت بوجهها عني وأسندته الى كفها وأرسلت لحظها في الفضاء غير ناظرة الى شيء على التعيين وتركتني أصب في مسمعها ما أهضب به . وقد تجبني أحيانا ولكنى كنت أقرأ فى عينيه غير ما يجرى به لسانها ، فكان بيننا حديث مسموع وآخر صامت ، وكان الصامت أصدق الحديثين ، نعم فهى عجيبة فى تناقضها ، عجيبة فى ازدواج شخصيتها ، لينة النظرة ، جامدة الفم ، ربيعة الخلق ، ساكنة الطائر ، مكلومة القواد ، هادئة المظهر ، تتناول كفها فلا تدرى أليانة هى أم صلبة ، وتتأمل حياها فتعجب فيه الذائب والجامد ، والسلس والوعر ، والترف والحشونة ، والحرارة والفتور ، والرغبة والزهد ، والضعف المتناهي والقوة التي تغرى بقلة المبالاة وتدفع الى عدم الاكتراث بما كان وما هو كائن وما سيكون . ولقد استشارتني رقة عينيه فأمسكت عن اتمام ما كنت قائلاً كأنما كان الكلام يعوقى ، كالذى يخلع عليه ويدعهم ويدعو حافياً ، وجذبتها الى بغيته وان كان لاشك انها كانت تتوقع ذلك ، وضممتها وطبعت على ثغرها قبلة . ولكنها ضمت شفقتها ولم تعاطى التقبيل !

وان كانت عيناها قد ظلتا تلبعان بنور الابتسام ، ثم مسحت بكفها على الحشائش
وقالت « لا ينبغي أن نظل هكذا جالسين فقم بنا نعد من حيث أتينا فقد أمسينا . »

قلت « دقائق أخرى ! »

قالت « بل يجب أن نعود أدراجنا »

قلت « فقبلة ثانية أولا »

قالت : « حسبك واحدة » بلهجة من يكظم زفرة طويلة حارة . ثم رفعت
الي وجهها فقرأت في صفحته :

« انى أخشى أن أربك اذا أنا كشفت لك عن حدة رغبتى فى الاستسلام
لعواطينى ! كلا ! لست بالفاترة التى تراها وأنى لأحس انه كان الأولى ألا أحيى
بهذه المفاتن اذا لم يكن من حقي أن أتمتع بها . وهل وهبني الله اياها ليتمتع بها
الناس دونى ؟؟ »

« ومع ذلك ألحت أن نعود ! »

وأكب ينظر الى الأرض برهة وجعل يقتلع الحشائش ويعبث بها ويقول :
« ولها نظرة انكار أو شك تلقى اليك بها بجانب عينيها ، كلها تصديق وكلها
تكذيب ! كأنما علمتها الأيام أن تستريب ولا تطمئن الى ما تسمع ، وأن تعد
عبارات الحب والعطف ملقاً ودهاناً ، اولهواً وعبثاً ، ولكن شبابها يغريها
بالركون الى ما يدرك عقلها الذى نضج قبل الاوان انه « الفاظ ألفاظ » كما يقول
هملت ! فيالها من نفس ظامئة ! ما أقسى الحياة التى تحمّل زهرة ليس لها غير
الحسن قوة ، ما تنوء به الشجرة الضخمة ! »

ثم التفت الى فجأة وسألنى « وكم تظن عمرها يا صاحبي ؟ انها لا تزال فى العقد
الثانى من حياتها ! فلشد ما أخشى أن تدبل هذه العين وأن تخلو من المعنى لحاظها !
لقد جالستها ثلاث ساعات طوال لم تنطق فى خلالها بما يملأ خمس دقائق ! وشفتها

مع ذلك تهمان أبدأ بالانفراج ، ولكن شيئاً يطبقهما ويعيد ما يحاول أن ينفذ من بينهما ، إلى صدرها فيعلو ويهبط وتظل الشفتان مطبقتين ! ولقد قلت لها جاداً « هنا شيء يجثم على هذا الصدر » فأدارت الى بعض وجهها ونظرت الى مؤخر عينها ، وقالت واللمعة شائعة في العينين ، والتحجر مرتسم على الشفتين « أى شيء ؟ » قلت « لا أدري ! ولكن هنا شيئاً على التحقيق ! وأراهن ! » فهزت كتفها كالأسفة وقالت « لا ! أبدأ !! » فالحفت في المسألة وداورتها فلم يجدني ذلك ولم أفز بطائل فليت لسانى كان في فيها ! إذن لنطقت عنها ولرفهت عن هذا الصدر المثقل بما لا تحسن العبارة عنه ! وهل هو إلا الظماً إلى الحب ؟؟ هو ذاك على التحقيق ، الظماً الى ما تحملوها عنه الدنيا وتحرم عليها أن ترد شرعته وتعب فيها تخلق الله : وماذا عسى أن يكون غير ذلك وهى فتاة غضة الالهاب تنأى بها ظروف لا حيلة لها فيها الآن على الأقل عن الزواج وتتقاضاها هذه الظروف عينها أن تبقى عفيفة محصنة ؟ شبابها وجنسها يأمر انها أن تفسد الحب وأن تفسد به الحياة والنسل ، والدنيا تأمرها أن ترفض هذا ، وأن تخرس اللسان الذى يدعوها إليه ، وتضع أصابعها فى مسمعيها دون الصوت الذى يناجيها به : وأى لسان ، وأى صوت ؟ انه لسان الجمال الذى يعبدنا جميعاً وصوت الحياة التى تسخرنا ولا ترحمنا ولا تعفينا ولو مقدار ثانية من الاذعان والامتثال . ففكر فى هذا ثم أنكروا وهز رأسك بعد ذلك إذا استطعت .

وبعد اطراقة قصيرة أخرى :

« وتالله ما كان أقسانى عليها ، وأعنفى بها ، وأقل ترفق بهذا القلب الجديد ، حين قلت لها وقد ساقى الحديث الى ذلك « ان فى وسعك أن تستغنى عن زوج بل أنت لا معدى لك عن ذلك ولا خيار لك فيه ، ولكنه ليس فى مقدورك أن

تستغنى عن رجل . . ولقد لبثت بعد ذلك وقتاً أعذر عن نفسى من هذه القسوة بالقول بأنى أحسنت إليها بالعبرة عما فى نفسها ، وبأن دلتها بكلامى هذا على مكان الجرح من قلبها ووضععت أصبعها عليه ، ولكنى أخشى جداً أن أكون قد نكأته ! »

— « وماذا كان جوابها ؟ »

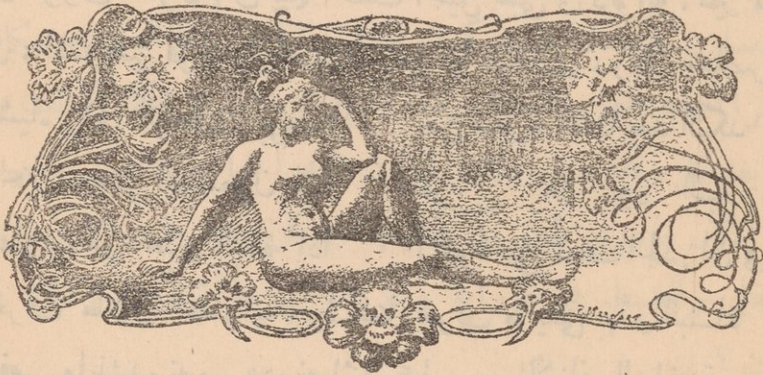
— « لم تجب بشئ سوى نظرة طويلة إلا النضاء ! وماذا كنت تتوقع منها ؟ أن تنكر أن لها جنساً ! ولقد خاصرتها وأنا أعود بها فى هذا الطريق بعد أن انحدرت الشمس فلم تنح ذراعى عن خصرها ، ولم تتحرك لذلك شعرة واحدة فى بدنها ! فكأننى كنت مطوقاً بذراعى الحي هذه دمية لا تستطيع أن تحس حرارته ! »

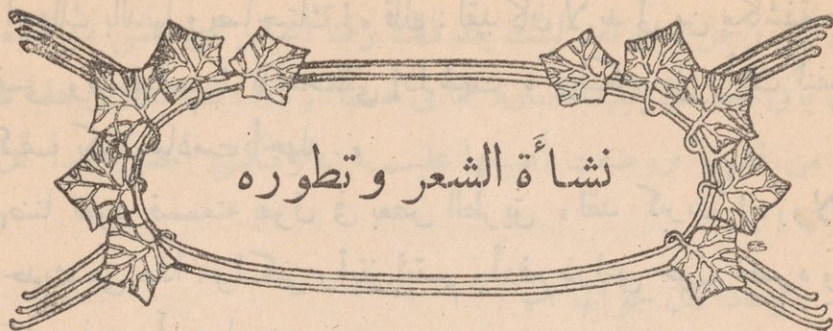
— « وماذا أنت منها الآن ؟ انى أخشى .. »

— « ماذا أنا منها ؟ لا شئ على الخصوص ! أحب أن أراها من حين الى حين ، وأن أستشف نفسها وأطلع من عينيها على المغيب فى ضميرها . وسم ذلك حباً ان شئت ، أو سمّه لهواً ، فما يعينى كيف تصفه ، وما أعرفى عبأت قط بهذه الالفاظ . ولكنى لا أكتملك انى أعطف عليها وأرثى لها . واحسبني إنما أعطف على نفسى فى شخصها فان بى منها مشابه . غير أن بيننا حوائل تتعاضم المجتاز ، وجونا عريضاً يعي ساقى أن تتخطياه . وليتني أدرى كيف أحيتها وأرد إليها روح الشباب الذى تجمعه الايام قبل الأوان ! ولكنى كبرت ، واأسفاه ! وفقدت أنفاسى حرارتها . والنساء عندى كتب تُقرأ وموضوعات تدرس لا جمال يعشق . ولقد كنت فى زمانى شاعراً أو شبهه ، وكان للدنيا بنفسي حلاوة ، ولكنى أصفيت بعد أن نضب معين الشباب وعدت كما تقول يا صاحبي « كائن من دمائى أشرب » قلت « قم بنا عن هذا المكان فقد أوجعت رأسي وسودت الدنيا فى عيتى . »

تالله ما أجهلك بالدنيا وبصاحبتك ! » قال : لقد كان لا بد لي من مكاشفة صاحب
بما في نفسي وقد فعلت ! فاستحممني إذا شئت ، ولكن خل رأيك لنفسك فما
أحفظه كيف يكون مادمت أجهله .

ونحننا نعود فسمعته يقول في بعض الطريق « لقد كبرت ! » ولا أدرى
كيف حدث مني هذا : ولكني رأيتني ابتسم وأدفع ذراعي حول خصره وأطوقه
بها ، فانتفض مذعوراً وصاح بي
« أيها الشيطان اللعين !! »





نشأة الشعر وتطوره

كنت في ليلة أقلب ديوان ابن الرومي وأدير عيني في صفحاته متأملاً ورقها دون ما حوته من الشعر ، ولم يكن مرادى ان أقرأ شيئاً بل ان أحول بين العين والمطالعة ، وكانت الرغبة فيها شديدة ولكن الأطباء يعظوننى أن لا أجهد عيني بالقراءة على ضوء المصابيح . وما أدراك ما الأطباء ! هم الذين يقول فيهم اديسون على ما أذكر ، ان المغول والتتار كانت غاراتهم كثيرة قبل أن يعرفوهم ، فلما ظهر الأطباء بينهم وكثروا — الى حد — انقطعت الغارات !! ولنرجع الى صاحبنا ابن الرومي فنقول ، انى بينما كنت أجيل عيني في ديوانه ، غير معتمد شيئاً على التعيين ، استوقفنى قوله من قصيدة يهجو بها البحرى ، وكان معاصراً له :

قبلاً لأشياء يأتى البحرى بها من شعره الغث بعد السكد والتعب

كأنها حين يصغى السامعون لها بمن يميز بين النبع والغرب

رقى العقارب أو هذر البناة اذا أضخوا على شعف الجدران فى صخب

ولا نعرف ما رقى العقارب ، ولكننا نعرف ما يعنى بهذر البناة على شعف الجدران ، فهى ما ينشدونه ويرددونه اثناء عملهم من الأغاني الساذجة . وقد ذكرت لما قرأت هذا ، بالليلة يوماً وبالبيت موضوعاً له قيمته فى نشأة الشعر . فأما اليوم فكان فى الاقصر منذ عامين وبضعة أسابيع وكنا — انا والاستاذ الدكتور حسين باشا هيكل — فى معبد الملكة حتشبسوت ، فيما يسمى الآن « الدير البحرى » وهو معبد منقوب فى الجانب الشرقى من وادى الملوك ويمتد شرقاً الى الصخور

التي تفصل الوادى عن سهل طيبة. الى هذا المعبد أقبلتنا مركبة ذات عجلات عريضة. هي شر ما يحمل أنساناً فوق تلك الأرض الصخرية. وكان النهار قد انتصف فاتخذنا من الحجارة كراسى ومن صخرة ضخمة هناك مائدة تناولنا عليها طعامنا بين أعمدة البهو الأسفل عند مدخل المعبد، وحولنا رسوم ونقوش، محت الايدي والأيام بعضها ولم تبق منها واضحاً سوى صف من الجنود يحملون عدا السلاح اغصاناً والوية يقابلهم فريق من الرماة، والى اليسار صور قصابين وكهنة يعدون الضحايا والقرايين، وفوق هؤلاء وأولئك زوارق تنحدر على النيل وفيها مسلات. فلما أصبنا حظنا من الطعام رقدنا على الأرض وأسند كل منا رأسه الى حجر سد مسدّ الوسادة. وإنا كذلك واذا صوت فضّى النبرات يضافح آذاننا، فراعتنا حلاوته وضاعف حسن وقعه ما يحيط بنا فى هذا الوادى القفر من الاطلال وما تثيره فى النفس من الخواج والذكريات. وسألنا الحارس فقال، هؤلاء عمال يحفرون الأرض ويرفعون التراب عما يظنه مستأجرهم أثراً أو قبراً، وعادتهم ان يغنوا وهم يعملون. فاعتدلنا حيث كنا وجعلنا بالننا الى هذا الصوت، وكان صاحبه كلما غنى شطراً اجابه جمهور الفعلة ورددوا على أثره جملة لا تكاد تختلف، يعيدونها ويرجعونها بعد كل وقفة منه. وكان الوزن ظاهراً فيما يغنى الصبي وتعيد الجماعة، فحاولت أن أدون ما ورد سمعى من ناحيتهم ولكن بُعد ما بيننا وبينهم حال دون الدقة فى النقل والضبط فى الرواية وعلى ان ما أثبتته من ذلك قد ذهب لا أدري أين؟

وهذا كل ما اهدت اليه :

أنا اجول للزين سلامات	على حسب و داد جلي
خبط الهوى على الباب	جلت الحبيب جاني
أثاريك يا باب كدّاب	تهد من على

ولقد كنت أحب أن أورد للقارىء سطوراً أخرى من ذلك ليس أعون منها على تبين ما أريد أن أقول غير أنه يعزى عن فقد ذلك ان القارىء لا يعنيه أن يجد بديلاً يقوم مقام ما ضاع منه . وما عليه الا ان يلاحظ النوتة وهم يعملون في زوارقهم أو سفنهم ، أو العمال وهم ينقلون الاحجار أو يحفرون أرضاً أو يحرقون ثقلاً ، أو نحو ذلك ، فانهم في اكثر الأحيان يغنون ويتسلون بمثل ما كان جماعة العمال في طيبة يغنون ويتسلون . واكثر ما تجد ذلك في القرى النائية عن الحواضر وفي حيثما يحتاج العمل الى أيد كثيرة تشتغل معاً وفي وقت واحد . غير ان هذه الاغاني ليس لها ضابط أو صورة نهائية . إذ هي لا تنفك تتغير ولا تثبت على صورة واحدة بل تلتشأ وتحول ويطرأ عليها جديد يوقع على أنغام قديمة أو تغني مقاطيع منها قديمة على ألحان جديدة . وقد ثبت ما يردده المشتركون في الانشاد ويتغير ما يغنيه الفرد ، وفي وسع المغنى الذى يكون كالزعيم للجماعة أن يتذكر ما يشاء ويرتجله ، وأن يستحدث في المأثور الذى يحفظه ويقدم ويؤخر فيه ويمضى في ذلك كله الى غير غاية مستمداً من ذاكرته أو من وحى الساعة ، أو من إلهام العاطفة التى تشملكه ، أو من هاتيك جميعاً . فليس أسهل من الارتجال فى مثل هذا الموقف . والقارىء اذا تدبر عصور الشعر العربى خليف أن يتبين منها أن الارتجال يكثر فى أولها ، أى فى العصور التى يكون الناس فيها متقاربين متشاكلين لا يتميز بعضهم عن بعض كثيراً . والمرء اذا ألفى نفسه بين أترابه وأنداده اطمان وأرسل نفسه على سجيتهما لأنه فى هذه الحالة يضمن المقدار الكافى من التعاطف اذا كان بين مماثلين له

وهذه الاغاني التى تشكلم عنها كثيرة فى المدن والقرى ، وان كانت فى القرى اكثر منها فى المدن . ولكن ما أقل ما يستطيع المرء أن يدون شيئاً منها على أنه مثال لها وعنوان عليها ! ذلك انها كالتيار العام ، قطرة منه ، أو ملة ما شئت عمقاً

واتساعاً ، ليس بالتيار ! كذلك يكتب أحدنا مقطوعات يسمعها من هذه الاغاني القديمة المتجددة كموج البحر فاذا هو لم يفز بشيء لانها لا تستقر على حال ولا تثبت كما أسلفنا على صورة

ودع الحاضر وارجع الى الماضي ، وصور لنفسك جماعة من الناس لا يزالون على الفطرة لم يأخذوا من المدنية بنصيب ولم تقسمهم الصفات الشخصية والملكات العقلية طوائف ، ولم يفرق بينهم اختلاف المراتب وتباين الاعمال وتعدد الآراء .
وتلك مرتبة من الحياة لا تكون فيها أبواب التعبير الطبيعي موصدة ، ولا يجهل فيها المرء — أو لا يحس أنه يجهل — ما يجري في ذهن جاره أو رفيقه ، ولا يستحي أن يعرب عما يحول في خاطره ويحيش به صدره مخافة أن لا يفوز بالعطف والتقدير اذ كانت حدود الفرد هي حدود التقاليد المشتركة بين الجماعة كلها .
في هذه المرتبة من الحياة كيف تكون نشأة الشعر ؟ يكون — كما هو ظاهر بالبداية فيما نظن — عملاً من أعمال الجماعة كلها وملكا لها لا لفرد . ويجيء تالياً للرقص والغناء وتابعا لهما ومتفرعا عنهما وغير منفصل منهما . فان شككت في أن الامر لا بد أن يكون كذلك فقل لي أيهما تظن كان أسبق في تاريخ الانسان ؟ الحركة ام اللغة ؟ نحسب ان الجواب على هذا لا يمكن أن يتعدد ! فان الانسان قد صدرت عنه الحركات قبل أن يعرف ان له انساناً يمكن أن يكون أداة لنقل الاحساس أو الخاطر الى زميله الانسان . فالحركات البدنية اسبق من اللغة على التحقيق . ولكن هل الوزن كذلك ؟ نقول نعم ، ولا نتردد ، لأن الوزن ليس شيئاً سوى الانتظام في الحركات ، فهو أشد ارتباطاً وأسهل مساوقة لحركات الجسم ، وما زالت الاشارات والحركات من متمات التعبير اللفظي الى الآن ، واللغة ليست إلا أداة للتعبير تحل تدريجاً محل ما كان قبلها هو الاداة لهذا التعبير ، لأن العبارة عن العاطفة بالحركة الموزونة على تدفقها ، أسهل — ومن أجل ذلك كانت أسبق — من العبارة بالالفاظ التي

انتظمت بها الأصوات ، وتعينت واستقرت على معانى صارت محدودة مألوفة .
ومتى انتظمت حركات المجتمعين واتزنت على مقتضى العاطفة المشتركة بينهم
— لفرط تماثلهم — كان من المعقول بعد ذلك أن تخرج الألفاظ مستوية في

ترتيبها على وزن هذه الحركات ، وعلى ذلك يكون أول ما عرف الانسان من
الشعر هو عبارة عن لحن موزون يندّ عن أفواه المجتمعين إذ كان جارياً على
ما تتطلبه وتؤدي اليه الحركات التي يشتركون فيها ويؤدونها معاً على نسق واحد
وعن عاطفة عامة شائعة بينهم على السواء ، وليس من الضروري ولا من المفروض
أن يكون لهذا اللحن معنى معقول لأن كونه معقولاً أو غير معقول مرجعه الى
الفكر ، ولكن العاطفة أسبق في تاريخ النشوء الانساني من الفكر

اذن كان الشعر لأول ما عرفه الانسان ألفاظاً مجموعة تكرر ، وأسماء تتخلل
الألفاظ ، وعبارات لها قيمتها الإيحائية عند الجماعة لا أكثر ، على الأرجح ،
وصرخات تند بين ذلك ، مصحوباً كل هذا في قالب موزون على حركات الجماعة
في حفلاتها المختلفة لمناسبة زواج ، أو وفاة ، أو غير ذلك ، ومعقول أن تكون
الإشارات أو التلحين أبرز من سواهما في هذا الطور الساذج

ثم ماذا؟ ثم يأسى يجدّ عامل جديد يؤدي الى التطور. كانت الجماعة متشاكلة
الأفراد ولكن التميز يحدث ، ويقوى الشعور بالذات شيئاً فشيئاً ، ويزداد الاحساس
بالاستقلال ويبرز الفرد تدريجاً ويأنس من نفسه ما لا يأنس غيره من نفوسهم .
فلا يقنع بأن يبقى في حلقة الجماعة يردد ما يقولون وليس له من الشأن إلا مثل
ما للكل منهم ، ويندفع مجترماً على التقاليد — لأنه لا يسعه إلا هذا — ويعلم
بصوته أصواتهم فيروعهم فتخفت أصواتهم قليلاً ، ويمضون في حركاتهم ولكن
عيونهم تتعلق به وأذانهم ترهف له ، فإذا به يستحدث ما لا عهد لهم به ويدخل على
ما كان قصاراهم أن يفعلوه ، حواراً مرتجلاً يقص به قصة ساذجة بطبيعة الحال .

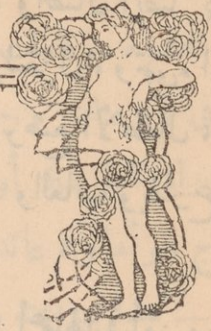
فيحسن وقع ذلك في نفوسهم ويطيب لهم أن ينصتوا ولكن الطفرة محال كما يقولون، فلا يصمتون كل الصمت بل يتعلقون بعبارة مما يسمعون منه فيرددونها وراءه كلها سكت . وليست هذه بالخطوة القصيرة . فقد كانت الجماعة قبل ذلك هي المؤلف للأنشودة - اذا جاز اطلاق هذا المفظ على ما كانوا على الأرجح يتصاحبون به - وليس للفرد الا مثل ما لسواه من الفضل . ولكن الجماعة بعد الآن بدأت تقتصر على الرقص والاشارات ، وتجترىء بسماع ما يصبه فرد في آذانها وبتريد عبارة معينة لا تعدوها وصار عمل الفرد في ابتكار القصة أو الحوار ، أبرز وأظهر . وهو يروى ويقول ما تخطر الظروف في ذهنه وتجريه في باله وعلى لسانه ، وهي تكسفي مما كانت تقوم به بمشاركة هذا الفرد في حالته النفسية وبتريد ما يوكل اليها ترديده ثم تتوالى الخطوات متتابعة متلاحقة كالعجلة تدور بصعوبة في مبدى الامر ، ثم تزداد ادارتها سهولة بعد ذلك . فيتضاءل عمل الجماعة من الاشتراك في التأليف الى الاختصار على التريد الى صيرورتها معينة بحركاتها للفرد على المحافظة على الوزن ونمثل لذلك بفرق المغنين عندنا . تجتمع طائفة منهم هذا بعوده وذاك بقيثارته وذلك بقانونه أو مزماره وغير هؤلاء بجناجرهم ! ثم يفتتحون العمل بتوقيع موسيقى لا يصحبه غناء ثم بموشح يوقعونه ويغنونه معاً حتى اذا انتهوا من ذلك شرع زعيمهم يغنى صوتاً ينفرد هو بأكثر مقطوعاته ويشترك معه الباقون في بعضها ، وقد يغنى بعد ذلك موالاً لا يشاركه في غنائه أحد ولكن يظل ينقر له الموسيقى على وتر معين ليساعده على الاستمرار على تصور الصوت وعدم الخروج عنه . وليس هذا سوى مثل ضربناه تقريباً للسألة من الافهام لا لنقيس هذا على ذاك

وهكذا يخلق أثر الجماعة تبعاً للتطور ويظهر الفرد حتى اذا تألفت تأليفاً سياسياً وانتقل بذلك مركز الثقل ظهر الشاعر الفنى المستقل عن الجمهور وصار أمر

الشعر كله الى الفرد وأصبح هذا الشعر ديواناً تقيد فيه الأخبار وتسجل حوادث التاريخ وأعمال الابطال فيتسع الأفق ويرحب المجال امام الشاعر ويغشى غمار الحرب والسياسة بعد أن كان لا يلم قديماً في شعره بغير المرأة ، ويركض في حلبة الحوادث العامة التي تمس حياة القبيلة أو الأمة ولا يقتصر على ماله علاقة بالاسرة أو النفس . وهكذا ..

والجماهير ؟ يبقى لها شعرها الخليق بمستواها . ولكنه لا يتقدم ولا يترقى . لأن مستوى الذكاء المتوسط ، يمنع شعر الجماهير أن يعلو ويسمو . وهذا هو حده . أما من يمتاز من الأفراد عن هذا المستوى ، ويرتفع عن طبقة الجماهير وحاجاتها وأذواقها ، فلا يبقى له محل إلا بين من يستطيعون أن يقدرُوا مزاياه التي انفرد بها وخلت به عن الجماهير . وان أحداً ليسمع الأنشودة في الاقصر ، ويسمع أخرى في القاهرة ، وثالثة في غير هاتين المدينتين ، فلا يملك إلا أن يحس كأن واضع هذه وذلك واحد ، إذ لا خلاف ولا فرق الا في النطق والافيا تدعو اليه الأحوال المحلية التي لا تقدم ولا تؤخر ، ولا تمنع التشابه بل التطابق فيما هو جوهرى





المرأة واللغة

أول معجم وأقدم ديوان

يقول شاعر قديم :

كسب الحرب والقتال علينا وعلى الغايات جر الذبول !

وبهذا البيت المفرد لخص وظيفة الجنس في نظره أو جز تلخيص ، وأقربه الى الصواب وأشبهه بالحق . ولكن الثقافية جنت على المرأة وساعدها في جنائتها عليها وظلمها لها ، تعصب الرجل لجنسه . ولعله بعد لم يعد ما كانت عليه الحال في زمنه ، أو لعله لم يقصد الى المقابلة بين وظيفة الرجل في الحياة ووظيفة المرأة فيها ، وإنما أراد أن يؤكد عظم ما هو موكل الى الرجل ويحسم خطره ، ومشقته ، ويبرزه في أقوى صورة بأن يرفع قبالة ظاهر ما تكون عليه المرأة من خلو البال وفراغ اليد والاطمئنان ، والتنعيم بمجهود الرجل . وعسى أن يكون قد شكك وتضجر من حيث أراد أن يباهي ويفخر ، غير أنه على أي وجه قلبت بيته وإلى أي تأويل أخرجته ، قد ظلم المرأة وغمطها حقها وجنف في حكمه وقسا عليها فيه . وليس في مقدورنا أن ننصفها نحن من كل وجه بمقال واحد ، ولكننا على هذا سنحاول أن نصف بعض ما قامت به في تكوين هذه اللغة وفي تمكين رصيفنا القديم من إرسال بيته هذا الدائر على الألسنة الى يومنا الحاضر . وما الى ذلك من سبيل بغير أن نرد عقرب الساعة بضع مئات أو آلاف من السنين ، عليها عند ربك ، وأن نكر راجعين الى تلك الايام البعيدة التي كانت الجماعات الانسانية فيها ساذجة .

أيام كان مكتوباً على الرجل أن يخرج للصيد والقنص ، والقتال أيضاً كما يقول شاعرنا ، وعلى المرأة أن تقيم في مكانها لتعد الطعام ولتغزل ، وتهيء الجلود ، وتصنع الأواني ، وتأتي بالماء ، وتبنى الأكواخ ، وترضع الأطفال ، وتقوم على تربيتهم ، بينما يغشى الرجل الأحراش والأدغال والغاب ويفترع الجبال وينحدر الى الأنهار

ولنفرض الآن ان الحرب نائمة، وان الجماعة تزاوّل شتى أعمالها في أمن وسكون. في مثل هذه الأوقات يصبح الرجل فيحتمل أدواته كائنة ما كانت ، ويذهب الى الماء لصيد الأسماك ، أو يصعد في الجبل ، أو يمضي الى الغابة ليقنص الحيوان. وقد يخرج الرجال في طلب الصيد بأنواعه زرافات ولكنهم لا يلبثون بطبيعة الحال أن يتفرقوا ويتشتتوا ولو قليلاً ، ويضطرهم ما هم فيه الى الصمت أكثر الوقت لأنهم وهم يحوسون الأرض على الطريدة مكرهون أن يخففوا الوطأ وأن يمنعوا الجلبة وأن يكتفوا حين يريدون التفاهم فيما بينهم باللمح والاشارة على الأكثر حتى لا يزعجوا الطير أو الحيوان فيفلت منهم وينجو . والمفاجأة هنا نصف الظفر ولا يكون الكر منجحا إلا بتحريها ، وقديماً قال ابن الرومي

وليكن الكر على غرة والصيد في مأمنه سارب

ومن أجل هذا لا يحسن بهم أن يتلاغطوا كأنهم في سمر فلا معدى لهم عن الصمت في غاراتهم ولو كانوا كدوساً متلاصقاً ليصيبوا الغرة ويقعوا على الفريسة . وليس معنى ذلك أنهم لا يتكلمون قط ، بل معناه أنهم أكثر ما يكونون في صمت يتواصون به ويلزمونه حتى يقضوا وطهرهم ما ساعفتهم القدرة على الصمت وأطاقوه لأن طبيعة المهمة تقتضى ذلك وتحتمه الى حد كبير . أما قبل أن يبلغوا مكان الصيد فهم يتلاغطون ويتضاغون ويعربون ما استطاعوا عن آمالهم التي يرجون أن يبلغوها في يومهم ، وعما يقدرّون لأنفسهم من اللذة والمتعة في السعي

وراءها ، وعما يتوقعون من سرور نسائهم وصغارهم حين يعودون بأكف ملاءى ،
وعياب محشوة ، وقامات معتدلة ، ورؤس مرفوعة ، وقد يصف بعضهم لبعض
ما كان في يوم سابق وربما تضحكوا بواحد منهم عثر وانكب على وجهه وهو
يعدو وراء الطريدة أو رفته خرا إلى الأرض أو انكسر به غصن فهوى
وتدحرج ، وأما وهم عائدون فقد يغنون ويرقصون سروراً بما أصابوا ويتحدثون
بفعالهم — هذا بسرعه وذاك باحكام رميته وذلك بجرأته ورابع بكثرة ما أصاب
وهكذا ، حتى إذا بلغوا محلثهم ألقى كل منهم حمله إلى المرأة وبه من الزهو ما يصدده
عن الكلام أو من التعب ما يغريه بالانصراف عنه والتماس الراحة . ولكنهم
في أثناء الطرد والصيد يصمتون أكثر الوقت كما قدمنا ولما كان الصيد يستغرق
أكثر النهار فهم أكثر النهار قليلو الكلام

وندعهم في صيدهم ونعود إلى المرأة . فإذا بها بين أترابها لا يضطرها عملها إلى
الوحدة . فهي على الأغلب تباشره في جماعة منهن قليلة أو عديدة وفي يد كل
منهن عملها كائناً ما كان وهن في أثناء ذلك لا تستريح ألسنتهن في حلقهن ولا
تقطع عن الجرى . كعادة النساء في كل عصر ومصر . فان النساء أكثر كلاماً من
الرجال . وقد يجلس الرجل إلى صاحبه وينقضى أكثر الوقت بينهما وكلاهما
مطبق الفم . أما النساء فهذا هو المستحيل عليهن ! ومتى جلست امرأتان في هذه
الدنيا صامتتين ؟ ان المرأة لا تصمت ولا تكف عن الكلام إلا إذا عجز لسانها
عن الجرى وانقطعت أنفاسها . لأن الكلام لا يكلفها نصيباً عقلياً ، وان الرجل
منا ليشهد مجالس النساء فلا يسعه إلا أن يعجب لهن من أين يأتين بمادة الحديث !
لقد كنت أعد نفسي في الرجال مهذاراً ، كثير الثثرة ، فاذا باحدى السيدات
الفضليات تزعمني صموتاً ؟ وما أكثر الرجال الذين يشكون من متاعبهم العائلية
عجزهم عن مواصلة الحديث الفارغ وتقصيرهم في واجب الثثرة !

واللغة الكلامية انما تتقرر وتصل الفاظها بالتكرار . وليس يكفي أن ينطق فرد بكلمة أو ينحتها ويستعملها مرة وانما تشيع اللفظة ويعم استعمالها بتكرار الحاجة اليها ، وكثرة ترديدها من جراء ذلك . ولقد نحت جونسون الكاتب الانجليزى المشهور مئات من الالفاظ من اللغة اللاتينية ، واستعملها فى كتاباته وعدل بها عما يؤدى معناها من الكلمات الانجليزية المستعملة ، وآثرها عليها لموافقته لمزاجه ولما فيها من الطنطنة المرضية لذوقه

ثم مات جونسون وذهب فى سبيل من غير ، فدفنت الفاظه التى نحتها معه ولف عليه وعليها كفن . ولم يعيش بعده منها الا النزر الذى سد حاجة ، وملاً فراغاً . وكفى فى لغتنا العربية مثلاً من الفاظ يخطئها الحصر لا تدور على الألسنة ولا تجرى بها الاقلام ؟ كم يستعمل حتى أشد الناس حذقة من هذه الالفاظ الميتة ؟ ما حاجتنا الى خمسمائة اسم للسيف أو صفة له على الأصح ونحن لانكاد نذكر السيف ؟ فوافقة اللفظ للحاجة وتكرر استعماله ولو كه مرة بعد أخرى . هذا هو الذى يذيع اللفظ ، ويشيع استعماله ، ويجعله مادة حية فى اللغة . وفضل النساء فى ذلك عظيم . هن الثرائرات اللاتى يخدمن اللغة ويقررنها بالتداول ، ويشعنهن فى الجماعة ، ويدرنهن على ألسنتها ، ويثبتنها فى الذاكرة ، يحىء اليهن الرجل بقنصه ويقص عليهن ما جرى له فى يومه وقلما يعيد القصة ، ولكن المرأة تحكيها لا تراها مرة ومرة وعلى مائة صورة وصورة ، تارة بأفاسة وأخرى بايجاز وطوراً توشىها بأخيلنها الحسية وطوراً تطرزها بوصف هيئة الرجل وهو يلقي قصته ، أو بنعت ما تقدره فيه من المزايا والصفات وتخرج من ذلك وتستطرد الى مائة موضوع آخر قد يعي الرجل أن يلح الصلة التى تربط هذه المواضيع بالحكاية الاصلية . أضف الى ذلك ما لا تقفأ تتحدث به عن عملها أو أعمالها هى وأكثرها فى الاطوار الأولى من نشوء الجماعات الانسانية صناعى أو أدخل فى باب الصناعة مما عداه . والأطفال ؟

أليس يدع الرجل أمر تعليمهم الأول الى المرأة؟ هي التي تغذى الطفل وتنشئه وتعلمه الكلام بما لا تنفك تصبّه في أذنيه من عبارات لها معنى أو ليس لها معنى . وتفعم له ذاكرته بالمحصول الأول من اللغة ، وتعده له أول ما يلزمه من الذخيرة في رحلة حياته . فليست المرأة فقط عاملاً لا يستهان به في تقرير اللغة الكلامية وصقلها ، بل هي أيضاً أول معلم نتلقى هذه اللغة عنه ونحذقها منه .

ولا نريد أن نقف هنا أو نقصر على هذا بل نجاوزة ونقول ، أن المرأة من أكبر عوامل التوحيد في اللغات أو التشابه بينها ذلك أن المرأة لم يكتب عليها الحرب والقتال كما يقول شاعرنا القديم . وإنما كتب ذلك على الرجال دونها . ولم يتصل بنا ولا قرأنا أن النساء في أي عصر كن يقاتلن الى جانب الرجال ويتولين الحرب مثلهم ولو لكنهن مع ذلك كتب عليهن السبي لا يلتقي الجيشان ويقتتلان ما شاءا حتى يقهر أحدهما خصمه . وليس يندر ولا سيما في الحروب القديمة أن يعمل الظافر السيف أو ما يقوم مقامه من أدوات الطعن والضرب في أفقية المنهزمين ، وأن يتعقبهم الى ديارهم وأن يقتل منهم حتى من يضعون السلاح ويسلمون . ولكنهم ندر أن يقتل المنتصرون النساء وإنما يسبونهن ويحملونهن معهم في عودهم الى محلاتهم في جملة ما يحملون من غنائم الحرب ، ويقتسمونهن اقتسام غيرهن من الاسلاب .

وقد كانت الحروب في الأزمنة السابقة أكثر وإن لم تكن على هذا افتك أو أهول منها الآن ، وقل ان كانت تنتهي حرب بدون سبي . بل لعنا لا نخطئ جداً حين نقول أن الرغبة في السبي كانت من أكبر مشيرات الحروب وبواعثها . فهل يحسب أحد أن الخود اللواتي كن يسبين في حروب آبائنا الأقدمين كانت تقطع السفن وتقتلع من أصولها أو توضع على أفواههن الكجائم ؟ لسنا نظن أحداً سيدعي ذلك أو يقول به . وكيف كان يحدث التفاهم بين المسيية ومن صارت من

نصيبه؟ كان يستعصى ذلك في أول أيام المعاشرة وكانت الإشارات والحركات وملاحح الوجه ونظرات العين تغنى في ذلك بعض الغنائم ثم يعتاد كل منهما أن يقرن اللفظة التي يسمعها بالحركة أو الإشارة أو النظرة أو غير ذلك مما يصحبها، ويفهم منها ما يستخلصه من اجتماع ذلك. فيزيد محفوظه ومحفوظها ويدخل في لغتها ولغته الجديد من الألفاظ والأوضاع وطريقة التغيير ويؤدي ذلك مع التكرار الى التقارب من بعض النواحي بين اللغتين

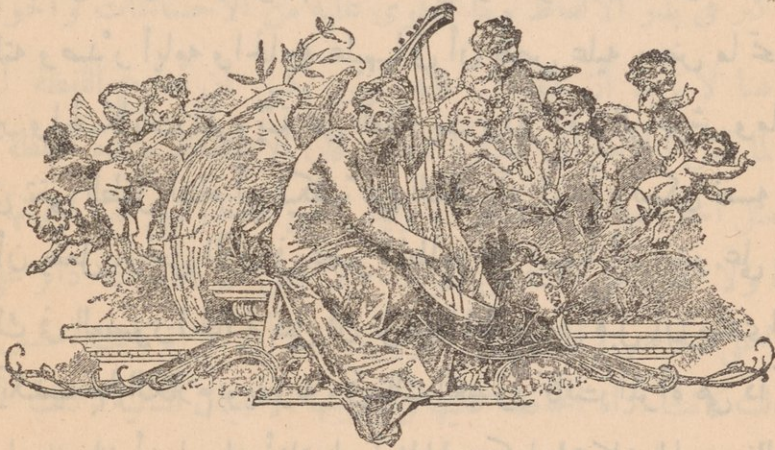
ولقد ذكرنا الحرب ولكنها لم تكن الوسيلة الوحيدة لآحداث هذا الاختلاط والتشابه بين اللغات. فقد كانت الهجرة كثيرة، والخطف مستمر، ولما كانت المرأة بطبيعتها أو بطبيعة وظيفتها أكثر كلاماً من الرجل، وكان نطاق أحاديثها أوسع ومادتها أوفر، وكان سببها أعم، لذلك كان من المعقول أن تكون المرأة صاحبة الفضل الأكبر في بذر الألفاظ وما تنطوي عليه من الاحساسات والخواطر

وحتى هنا لا نريد أن نقف. فانه ليس يكفي أن تخرج اللفظة أو تمنحها أو تشتقها لما تلمس الحاجة الى العبارة عنه. فان الاحتفاظ بهذه اللفظة الجديدة لازم للغة مثل اختراعها أو اشتقاقها. وليس تغنى اللغة وتبقى لها ثروتها إلا بهذا الاحتفاظ، ولا اعون على ذلك من المرأة. ولا تنفس ان كلامنا كله دائر على الماضي البعيد لا على الحاضر ولا الامس القريب. وكما أن المرأة كانت احسن معاجم اللغة، كذلك كانت أداة المحافظة عليها وتوريثها الاجيال التالية. ذلك أن المرأة هي التي قامت بالصناعات اللازمة للإنسان، بينما كان الرجل يتولى الصيد ويباشر الحرب. وهذه الصناعات بقيت على الأيام لأنها من ألزم اللوازم الأولية وقد طرأ عليها تحوير كثير وتولدت منها أخرى وتعددت وتنوعت ولكن الحقيقة بقيت دون أن يلحقها تغيير. وهذه الحقيقة هي أن المرأة هي مخترعة الصناعات الاولى. ومن غير المعقول كما أسلفنا أن تزاوَل المرأة أعمالها يوماً بعد يوم

دون أن يتحدر لسانها بالكلام على ما تفعل . بل المعقول والذي لا يُقبل سواه هو أنها كانت تهذب بالكلام وتسح بلا انقطاع ، وأنها سمت الأشياء أسماءها وأوجدت لها نعوتها وافتنت في ذلك وما هو بسبيله الى المدى الذى استطاعته . ولما كانت أعمالها مستمرة متوارثة فقد ثبت معها ما تعلق بها من الكلام وصار جزءاً أصلياً من اللغة ، وأتيحت له فرصة البقاء . وقديماً لاحظوا ان المرأة على فرط شغفها بالجديد وجريها وراءه وتعلقها به ، أكثر « محافظة » من الرجل . ولعله ليس من الخطأ الشديد أن نقول انها كالذاكرة للنوع . وحسبك أن تتأمل فضلها في المحافظة على الأساطير والخرافات ، وأغاني الجماعة وأقاصيصها وحكاياتها . ومن من الرجال يحفظ مثل ما تحفظه المرأة من الأغاني والأساطير ؟ ان القارئ خليف أن ينصف المرأة من هذه الوجهة اذا تفضل وذكر جلساته الى احدى العجائز في طفولته وصدّر أيامه والحاحه عليها في أن تقص عليه بعض ما تحفظ من الأساطير والحكايات المروية عن العفاريت والمرردة والوحوش وما الى ذلك . وهي التي تغنى الطفل لينام أو ليكف عن البكاء ، أو ليهبأ وتسكن نفسه ، كما لا يحسن الرجل أن يفعل . ونحن الآن في عصر المطابع فلا يسعنا أن نقدر على وجه الدقة قيمة ذلك في العصور الخالية قبل أن توجد المطابع ، بل قبل أن يهتدى الانسان الى طريقة يكتب بها الكلام ويدونه . في تلك العصور كانت المرأة هي ذاكرة الجماعة ومكتبتها وديوان أخبارها وأغانيها وأمثالها وحكمها ، ان كان لها من ذلك شيء قليل أو كثير . وما زلنا الى الآن نرى المرأة أحفظ للأمثال وأشد أحاطة بها . وإذا تدبرنا ذلك كما ينبغي أن نتدبره ، أفيكون مخطئاً من يقول أن المرأة كانت من أكبر

العوامل في المحافظة على اللغة وفي صون ثروتها ومساعدتها على الاتساع والنمو
تبعاً لذلك ؟

هذا وجه أو وجوه مما كان للمرأة من الفضل على اللغة . وشم وجوه أخرى
بعضها يسهل الغوص عليه والبعض يشق مطالبه ويعزّز مناله . ولستنا نستطيع أن نلم
بكل أوجه البحث في مقال واحد ، ولذلك نرجى التثمة ولا سيما الفرق بين لغتي
لرجل والمرأة ، الى فرصة أخرى





بين السماء والأرض

كأس على ذكرى

قالت الفتاة للفتى — ان كان ابن خمس وثلاثين يُعد في الفتيان
« هذا أنا ... قد جئت ... »

فمد إليها يده ، ولكنها لم تصافحه ، فقال :

« أهو كِبَر ما بنا أم جَفْوَة ؟ »

« لا كبر ولا جفوة ... وإنما أنا مغیظة ، »

« منى ؟ »

« كلا ! »

« ومن اذن ؟ »

« لماذا تسأل ؟ ... من نفسى ... »

« مسكينة يا فتاتى ؟ وماذا صنعت مما يورث كل هذا الأسف ؟ »

« لست آسفة على شيء ... وهذا ما يغضبنى ! ولو وجدت للأسف مسأ

لكبرت فى عين نفسى ... »

وكانت الليلة مظلمة والرياح كالمجنونة ، ولا يكاد أحدهما يحس من صاحبه

— وهما مستندان الى سور السطح — غير صوته ، فقال :

« أنت في عيني كبيرة وجلييلة »

فلان ما كان متجمداً من نظراتها ، وسلس الصعب من جانبها ، ورقّت حاشيتها وانسجم صوتها ، ودنت منه ووضعت يمينها على كتفه وأقبلت عليه تسائله ، أصحّيح ما يزعم ؟ أحق انه يكبرها وسيظل يكبرها على الرغم مما فعلت ومما تفعل ؟

فقال ، وتناول يدها في يده :

« وماذا فعلت يا فتاتي ، أو ماذا تفعلين الآن أكثر من أنك قد جمّت تؤنسين

وحشيتي تحت عيون هذه النجوم ؟ »

فرفعت وجهها اليه ورمته بعين مفتوحة كمغمضة وقالت :

« أو هذا كل شيء ؟ »

« كل شيء الآن ... الى الآن ،

ولبنا هنيئة صامتين تحب هذه السماء الموهلة المتلاحة النجوم ، ثم قالت :

« ماذا كنت تريد أن تقول لي ؟ »

« متى ؟ »

« ونحن على الطعام ؟ »

فاربداً وجهه ولاكنها لم تره في ظلمة الليل ، ولم تدّر ماذا عانى حتى عاد حيّاه

يرف لها ، بينما كانت هي تجذبه من كتفه وتلمح عليه بالسؤال :

« كنت أريد أن أقول ، ان هذا لذيذ » (بابتسامة متكلفة)

« ما هو ؟ »

« كون يدك في يدي ! »

فانزعتهما وقالت :

« لقد أنسيت أنها في يدك »

« إنسيها مرة أخرى ! »

« لا أستطيع ،

« تناسيها أذن ! ،

« كلا ! ،

« هل من سبب ؟ ،

« _____ ! ، (مخطوطة طويلة)

« وتناول يدها ، وسكتا مرة أخرى ، وتكلم بينهما الهوى

« وقالت : لن أفعل هذا مرة أخرى ؟ ،

« لن تفعل ماذا ، يا فتاتي ؟ ،

« ألقاك هكذا ! هي الأولى والأخيرة ! ،

« فابتسم صاحبها ابتسامة فيها من الحنان والعطف عليها وعلى نفسه أكثر مما

فيها من صباغة الحب ، وقال

« لا أدري أى سحر ضربته علىّ حتى صرت ، كلما عزمت أن أروض نفسي

على مراجعة الصبر فيك ، لا تمكّد عيني تأخذك حتى يتحلل العزم — في كل يوم

أعاج ان أرد نفسي على مكروها ، ثم ما هو إلا أن أراك ، أو ان تخطر في القلب

ذكراك ، حتى أنسى كل شيء سواك ، ولا يبقى لي مني الاك ! ،

« وماذا تريد أن تصنع بي ؟ ،

« ماذا ؟ أريد أن أحملك معي وأخفيك حتى عن عيون اخوتك ! هذا ما أريد !

« أن رأسي ليدور حين أرى أخاك أو ابن عمك أو ابن خالك أو أحداً من الخلق

ينظر اليك ! ولكن لك قدرة على المباحدة والمجافاة حين تشائين ، واني ليخيل لي

أحياناً أن تناسخ الأرواح حق ، وانك أنت « برونهيلده » بعينها يحيط بها سور النار

الذي حولها ،

« ليتنى كنتها !! ليت حول كل فتاة مثل هذا السور من النار ! تمتحن به من
يشد قلبها ! »

« بحسبك غرائزك النسوية سوراً من النار ،
ولكن ألا تعرف ان ما تبغى عسير لا يقع فى الامكان ؟ فما جدوى هذا الذى
نحن فيه ؟ »

« أعرف ؟ من أين لى علم هذا ؟ كل ما أعلمه ان اهلك حمقى وانهم يضحون
بك فى سبيل ... لا تضعى يدك على فمى ! دعنى أتكلم ! انهم يحولون دوننا تقدماً
لغيرك عليك وقد علموا انك لى لا محيد عن ذلك ، عن رضى منهم أو محولين
على مكروهمهم ! ... »

وفى هذه اللحظة دفعتها الريح الى صدره فاشكره قربها وأخذ منه شذا شعرها .
فضحك ضحكة عصبية ورفع وجهها اليه وأهوى على فمها يقبله فى بساطة كأنما كان
هذا حقاً له ، وهى تجاهد وتعالج ان تغفل من عناقه ويأبى هو ان يدعها
« انك ... »

وعضت شفتها وردت اللفظة التى همت بها
« أنا أى شىء ؟ قولها ! اقدنى بها فى وجهى ! »
« وحش ! فظيع ! هذا أنت ! دعنى ! »
غير أنه لم يدعها بل ضمها وهو يضحك فى رقة وجدل وسكر حتى همست فى أذنه
« لم أكن أعنى ما قلت كما تعلم »

« لم تعنه أبداً بالطبع »
وقبلها ثانية

وقالت وقد تخلصت من عناقه
« كيف تعيدها وقد وعدت ألا تفعل ؟ »
« أنا ؟ متى وعدت ؟ »

« كيف تسأل يا ... »

« يا وحش ! قولها ! »

« ولكن أليس لك ضمير ؟ »

« ضمير ؟ يا له من سؤال ؟ بالطبع لي ضمير ! »

« لا أراك تحفل به الليلة ! »

« أنا في شغل عنه ! قبليني ! »

« أى فكرة ؟؟ »

« أفعلى ، »

« مستحيل »

« من فضلك »

« مستحيل ! قلت مستحيل ! »

« أذن تعالى أقبلك »

« ولا هذا »

« لم لا ؟ الا يسرك أن تكونى محبوبة ؟ »

والتف حول خصرها ذراعاه ، ووجدت شفتاه السبيل الى شفتيها ، فهل هذا معنى أن تكون محبوبة ؟ وهل هى له كما سمعته يقول بلهجة اليقين ؟ انها على كل حال لم تعد تحس أن لها فى نفسها كثيراً أو قليلاً ! فياليت من يديرها ماذا أصابها ففترها وأفقدتها الارادة والقدرة على ضبط نفسها ، وعلى انها لم تعد تكترث لذلك او تفكر فيه فقد كان الدم يتدفق كالجنون فى عروقها !

« أمصغ أنت ؟ »

« نعم ، (بصوت تخفته عربدة الشفتين فى نحرها) »

« انى اعلم انى وقعت من قلبك . لا شك فى ذلك ، والا ما فعلت الليلة »

ما فعلت . ولكن آية فتاة تستطيع أن تفتنك عن نفسك ساعة . وما أحب أن يكون هذا أثرى عندك ولا أن يسهل تلهيك عنى وتعللك بالدنيا ، ولقد أردت أن أهبك ما تذكرنى به — ما يطيل أدّكارك لى . ألا تفهم الآن لماذا تركتكَ تقبلنى هكذا ؟ انه الزهو والغرور والانانية . . .

« بل قولى أنه الحب . . . »

« هو هذا وذاك ، ولكنى أردت أن تذكرنى . . . »

« أوتحسبين أن نفسى ستطيب عنك ؟ »

« أخشى ! »

« لماذا ؟ »

« كل أمرى ينسى القبلة بعد أن تبترد شفتاه »

« من علمك هذا يا . . . »

« والتقت شفاههما فى قبلة طويلة ، ثم تناولت خديه بين راحتيها وقالت

« دعنى أذهب الآن ،

ولكنه ضمها وهو يقول « أدعك ؟ كلا ! انا ايضا أخشى أن تتسربى فى الهواء

إذا تركتكَ ،

« كلا ! لا تخف »

وعاطته التقبيل وخنقت صوتها العبرات وهى تلح عليه أن يدعها فساها

« أواقعة أنت انك تريدن أن تمضى ؟ »

« كلا ! ولكنى واقعة انه « يجب ، أن أذهب ،

فلاّها فتراجعت قليلا ثم أصاحت ثيابها وشعرها والتفتت اليه وهى تقول

« لا يشق عليك ما يقول أهلى . وأيقن أنى . . على . . ولكن ليمتنى اكون أنا على

يقين من وفائك ! »

ومضت أخف من الفراشة !

قال صاحبي

« أنا صاحب هذه الذكرى . وهى كل ما خرجت به . وانى لأحييها فى كل شهر مرة — فى الليلة الظلماء المقتدة البدر ، لأن ليلتنا كانت حالكة ، ولأن الليل أوقع ما يكون فى صدرى حين أرسل اللحظ لأخرق به أحشاء الظلماء فتشف لى عن نجوم السماء ويرتد عما دونها كليلاً حسيراً ، وأروع ما تكون السماء عندى ، حين تتنقل العين فى اجوازها المرعبة فلا تقطع منها سوى بيد هائلة عن بيد أشد هولاً . . . كذلك كانت ليلتى تلك وكذلك أريد ان تكون ذكراها فى مثلها . فأصعد الى السطح واتكىء على السور وانظر الى السماء كما كنا ننظر . هي مفتونة بجملها وأنا يكاد يسحقنى الرعب اذ أجيل عيني فى فيافيها اللانهائية وأقول لها فيما أقول كأنما كان يعينى أن أنغص عليها متعتها

« ثقي ان هذه السماء ليست مجعولة للانسان مهماتكن علة وجودها . وانه لاشئ فى الأرض أوفى السماء مجعول لهذا المخلوق الذى يحسبه الفارغون مركز الدائرة ومحور الوجود ! بل ليس أقدر من هذه السماء على اشعار الانسان ضآلته أو لاشيئته اذا شئت » فتدير اليّ وجهها وتقول ، وهى لا تفهم حرفاً من كلامى : « ماذا يوجد بين هذه النجوم ! »

فأقول : « يوجد — ان صح التعبير بلفظ الوجود — صحراوات فضاء مظلمة تركها من يعلم السر ، بلا شمس ، وتوجد أوقيانوسات من الفراغ لا آخر لها يحمد الفكر كلما حاول أن يتصورها . هذا ما يوجد ! »

فتصمت ولا يبدو عليها انها فهمت فأمضى وكأني أحدث نفسى ، وقد شعرت فجأة ، على كل حييها ، كأنما بينى وبينها بُعد ما بين الأرض والمشتري . « وهذه السماء التى يسحق النفس جلالها المرعب ، ويهول الخاطر أن يقذف

به في اجوازها اللانهائية . . . ليس جمالها الذى يسحرك بالخالد ولا الباقي ! حتى هذه مرجوع وهاجها رماد ! انظرى هذا النجم الذى يكاد يخجو وميضه بين اخوته نجوم الدب الاكبر ! لقد كان منذ بضعة قرون يخفق مثلها لمعاناً ! فليس يخلو كل هذا الجلال من دواعى الرثاء !! وتصورى هذه النجوم كلها قد خمدت ؟ تصورى عقلك يتلبس طريقه في سماء مظلمة خبا فيها كل ما كان يضيء !! تصورى عقلك يصطدم في ظلمة الكون بقطعة كابية من هذه الكواكب !! نحسى عينك ! غضى بصرك عن السماء اذا أردت أن تستبقي بشاشة نفسك !

فتفزع وتقبل على وتسد رأسي الصغير الى كتفى هذه وتريح خدتها على جانب صدرى وتعلق يسراها بكتفى الأخرى فأمسح لها شـعرها حتى يزيلها الخوف ، واني لأراها الآن كما كانت في تلك الليلة ، وان كنت أنا هنا وهي هناك ، وبيننا ما بيننا من الابعاد . وآه لو ان كل ما بيننا فرسخ أو فراسخ ! اذن لا يمكن أن نبتم ! وقد يعزى — لو ان هذا مما يعزى — اننا ، سعدنا أو شقينا ، سنذهب كما ذهب من كانوا قبلنا ، وان الدنيا ستومض فيها عيون غير عيوننا وتخفق فيها قلوب أخرى ، وترهق عقول جديدة ، وانها ستشهد أشجاء طريفة تُندب ومسرات ومباهج حديثة تُطلب ويستعز بها على حين نعود نحن كما سيعود كل شيء قبضة من تراب !

ولكنى أحي هذه الذكري على خلاف ماتوهم ، فان الهواء هنا لم يهف باسمها ولا خفق على موجاته الشدو بمفاتنها ، والعيون التى تجتلى هذا الفضاء الرهيب لم تتلاق مع لحاظها ، وظلها لم يرتطم على هذه الرمال ، وقدمها الدقيقة لم تطأ ذراتها - كلا ! ما من شيء هنا يعرفها أو يخمل ذكرها على صدره كما أحمل على صدرى حبها ، فسبيلي أن أعتمد على سور السطح وأظل كذلك حتى أعود وقد شاطرت ماحولي عدم الشعور بها !

ثم امسك وقال بعد اطراقة قصيرة :

« والآن فلنشرب كأساً على هذه الذكري »



ليسمح لي القارئ أن اكون كما خلقني الله ، وأن اسوق اليه الكلام على طريقتي التي أوثرها والتي تلائم مزاجي ولا تنافي ما بنيت عليه . وقد شاء ربك أن يخلقني بعين لا تفتأ كلما وقعت على شيء تنثنى مرتدة الى نفسي تدير فيها حلقها مفتشة باحثة منقبذة ثم يهتف بي هاتف من ضمير الفؤاد أن هات « المسطرة » فأمد اليها يدي وأذهب أقيس الابعاد بين ما كنت وما أنا اليوم .

وقد اتفق لي أمس أن ذهبت الى « ادارة الجريدة » في شأن لي فجاءني من وكلت اليه الاشراف على تحريرها في غيبي يسألني أن أراجع كلمة كتبها أحد الزملاء ، فيها إشارة الى اصلاح نحوي ، فلما كان الليل آويت الى فراشي وفي مرجوى أن يجيرني النوم من أوصاب ما أعانيه ، فرأيت في منامي ، وقلما أذكر احلامي ، كأني بلهتي التي وخطها الشيب — قد عدت تلميذاً ، وكان شيخ من اساتذتي ، رحمه الله ، يختبر الفرقة في « المفعول المطلق » ، ولكن الأستاذ كان فيما بدا لي أشبه برئيس جلسة منه بمعلم صبيان ، وكان كلامنا نحن التلاميذ « الكبار » ، أشبه بالخطب والمناقشات البرلمانية .

ثم أفقت من حلمي وابتسمت ، فقد ذكرت بحلمي هذا الذي جره علي زميلي ، أستاذاً لي في التعليم الابتدائي ، أعياه أن يُفهمني « المفعول المطلق » ، ويوقفني على « سره » ، ويحل لي « لغزه » ، وكان كلما عرضت مناسبة ، يقول لي « يابن عبدالقادر ، فأقول « نعم » ،

فيسألنى : ما هو المفعول المطلق

ولم يكن من عاداتي أن أحمل شيئاً — وبخاصة هذا المفعول المطلق — على ظهر قلبي من كتب التعليم . فكنت أقف جامداً ، وفي مفتوح وعيني الى وجهه ، ولسانى كأنما استل من حلقى ، ويدي تغمز جارى الحافظ الذى لا يهمل حتى يهمس بالتعريف المطلوب فألقيه إليه وأهم بالجلوس وقد ظننت انى نجوت ، وكان يعرف انى مجاج الاذن فيسألنى الاعداء فأتلثم وألعن من أصبحت على وجوههم ! وقد يتجاوز عن الاعداء ويقول « مثل » ، وهنا الطامة الكبرى !

« مثل ، ! ؟ وكيف آتية بمثال لما انتهيت منه الى اليأس من فهمه ؟ ! وكثيراً ما كنت قبل ابتداء الدرس اتفق مع جار لى ابله على أن ينهض فى اثرى ويحيب عنى اذا أعينى سؤال غير منتظر فكان يبر بوعده ويفعل فيتحول اليه سخط المعلم ، ويحل به وحده غضبه ، فأدعهما وأقعد وانجو بهذه الحيلة التى لم تكن تجوز إلا على هذا الجار المخفل !

مر بيالى هذا وما إليه من حوادث الصبا على عهد التلمذة ، كما تمر أشرطة الصور المتحركة على عين الناظر ؛ فقدت لى نفسى — وانا مستقل على فراشى — إن من حق المفعول المطلق أن يكون له هذا الشأن فى صدر أيامى فقد كان له شأن ضخم فى حادثة الدنيا أو من عليها من الأدميين وكما ان آباءنا الأولين لم يعرفوه الا بعد عصور لا يعلم طولها إلا الله ، من معاناة أزم التعبير عما فى نفوسهم كذلك انت « يابن عبد القادر » لا عيب عليك اذا كابدت منه نصيباً

والواقع ان هذا « المفعول المطلق » يمثل فى تاريخ النشوء اللغوى خطوة انتقال اتسع بعدها الأفق ورحب على اثرها المجال ، وتفتحت أبواب التعبير المخلقة . واللغات ، كما يعلم القارىء أو كما لا يعلم ! — لم يجدها الانسان تامة ناضجة مستوفية كل ما يحتاج اليه الرجل للعبارة عن مراده ، وانما نشأت على الأيام

واتسعت شيئاً فشيئاً على قدر الحاجة . وهي لاتزال الى الآن — وستظل — تنمو وترحب وتحيط بما كانت تقصر عنه أدواتها . ومن شاء أن يقدّر فضل المفعول المطاق على اللغة وعلى العقل الانسانى أيضاً فليتصورها مجردة منه ولينظر اليها كيف تعود ؟ أو الى أى حد تضيق ؟ وقد يتعذر تقدير ذلك على وجه الدقة لأننا الآن ميراث واحد لها جميعاً . ولكن مادلالة هذا ؟ ولأى غرض نوردته ؟ دلالاته القريبة أن الشعوب التى تتشابه لغاتها فى هذا وغيره كانت قد اجتازت مرحلة البداوة وقضت أزمنة مديدة فى ظل السلام قبل أن تتفرق ويذهب كل منها فى ناحية وتكتسب كل لغة على اثر هذا التفرق شخصيتها وطابعها الذى تمتاز به . فنشأت فى كل شعب أجيال نحتت لنفسها ماتحتاج اليه من الفاظ الحرب والمغامرة

دارت بنفسى هذه الخواطر وأنا راقد ، وعينى تنظر من النافذة الى القمر الذى ينام ضومه اللين على صدرى ، فمدت يدي الى المنضدة المجاورة وقد انساني النظر الى القمر انى لم أعد أعنى بأعداد الورق والأقلام الى جانبى قبل أن أنام وانى انقطعت منذ سنين عن استيحاء بنات الليل واستلهاهم طيوف الظلماء ؛ وانه ردنى عن ذاك وصرفى عنه من جعل حاجتى الى هذه الزجاجات من الدواء





الذكوره والانوثة

١٠ فبراير الناس في هذه الأيام آتق أزياء ،
وأنظف ثياباً ، وأبهج بزة منهم في أى عهد مضى . ولست
أذكر أنى قبل خمسة وعشرين عاماً كنت أرى افندياً يلبس
طربوشاً مبطناً بالخوص والحريز ، أو يرتدى غير السترة
الاسـتامبولية القديمة ذات الزرارين اللذين يجمعان



طرفي بئقيقتها على الرقبة ، والتي يبدو فيها المرء كأنه مربوط من
عنقه . حتى الأحذية كانت أكثر ما تكون سوداء ، ولم
تكن الأقمصـة الافرنجية تتعدد ألوانها ، وكان الأغلب فيها أن تكون
بيضاء لامعة قوراء ، ولم يكن الشيوخ يعنون — على الأعم — بأحكام
التفصيل ودقة انسجام القفطان أو الجبة على أبدانهم ، أو بتحرى أن يكون لون
« الحزام » مجاوباً لصبغة القفطان ، أو بأن تكون لفة « الشال » على طربوش العمامة
بارعة الشكل تخفى من الطربوش بقدر وتبدي منه بقدر ، أما النساء فكان زيهن
إذا برزن الى الشوارع يصد العين عن النظر ولم يكن الواحد يدرى أهى آدمية تلك
الملفوفة فى ملامتها أم حشوها — زفتٌ يبعثره الريح — فالآن صارت العين تتعب
من النظر الى مجالى الذوق حتى فى الطرقات ، ودع عنك المجتمعات والسهرات ، نعم

لا فرق الآن مثلاً بين أزياء المحصنات وغيرهن ، ولكن لا بأس ، ستتميزن بغير الأزياء ، وصحيح ان الرجال والنساء تقاربوا — حسن أيضاً ! ليس فى الامكان أبدع مما كان !

١١... لا أدرى من سمعت ، أو أين قرأت هذه العبارة وهى أن الله سبحانه وتعالى وكَّل الى ملك معين من ملائكته أن يسبح بحمده جل وعلا على أن أنعم على الرجال باللعى وعلى النساء بالشعر الطويل . والله وحده أعلم بصحة ذلك ولكنى أحسب الملك الموكول اليه هذا الواجب — ان صح الخبر — قد جدت على صوته نبرة تهكم لا ذع — علينا نحن بنى آدم الفانين .

ومع ذلك لماذا ؟ أمن أجل ان النساء يقصصن شعورهن ويتشبهن بالرجال فى بعض أرديتهن ، وان الرجال يحلقن — معذرة ! فسيختلط الأمر بكرهى وكرهكم — يحلقون شواربهم ولحاهم ويتخذون من الشياى ما لا يخلص الهواء بينه وبين الجسم — أمن أجل ذلك يكون الأمر مدعاة لنبرة سخر ترتفع مع تسبيحة الشكر ؟ ان الصحيح فسيولوجياً هو ان الآدمى خليط من عناصر الذكورة والانوثة ، وان نسبة هذا الخليط لا معروفة ولا محدودة ، وان درجات التفاوت فيها كثيرة ، وان هذه العناصر يقوى بعضها أو يضعف على مدار الحياة . فلكل واحد من الذكور حظ ضئيل أو كبير من الانوثة ، ولكل أنثى نصيب كذلك من الذكورة . ومن هنا يكون الشباب الذى هو فى رأى العين وفى نوع احساس النفس به وتقديرها لصفاته ، أشبه بالأنثى . ومن هنا أيضاً النساء المترجلات أو اللواتى هن بالرجال أشبه واليهن أقرب .

والمعضل الذى يعينى أن أحله هو : هل فقد الرجال ما كان لهم فيما مضى من القدرة على اجتذاب المرأة والاستيلاء على هواها بما كان لهم من صفات طبيعية ؟

أم أصبحت الرجولة التي كانت تجدى عليهم قديماً في المعركة الجنسية لا تفيلهم شيئاً الآن ؟ أم ضعف احساس المرأة بهذه الصفات وانحط تقديرها للزاياء الجنسية الطبيعية ؟ أو أجعل السؤال من الناحية الأخرى : شهدنا زمناً كانت فيه المرأة إذا بدا منها خنصرها من تحت الملاءة أو ما يماثلها ولمحتـه عين الرجل شق وفهق وانتابته كالحي ، فالآن تبدو له نصف كاسية — او نصف عارية — وما استتر من جثمانها في حكم الظاهر من فرط الدقة في جعل التفصيل كفيلاً بعرض المحاسن وجلو المفاتن . ومع ذلك لا يكاد الرجل يزيد على الاعراب عن الإعجاب الفاتر ، فهل تبرز المرأة الآن على هذه الصورة المجلوة لانها تحس أن صفات الرجولة في الرجل قد ضعفت ؟ أم هي بدأت تتجرد وتزين شيئاً فشيئاً وسائرهما هو في احساسه بجلوتها فألف هذا التجرد والتزين درجة فدرجة فهي أبدأ تعالج أن توقظ احساسه بالجديد فالأجد وهو لا يكاد يألف جديداً حتى يفتر عن اجابة ما يهيب به منه ؟

١٢ . . . نسيت أمس الحرب العظمى وما أفقدت الرجال وكلفت جنسهم من خسارة فادحة في مادة الرجولة لا تعوض في الأجيال . وكيف احتاج الأمر أن يحل النساء محل الرجال وأن يملأن فراغهم في شتى الأعمال وكيف أنى ذلك صفات الذكورة فيهن وكيف تحتفظن بالمنزلة التي رقين اليها ولم ينزلن عنها ثم انتقلت عدوى ذلك من الغرب الى الشرق كالعادة

مثال لتأثير الحرب موافقة مجلس العموم الانجليزى بسهولة وسرعة على تخويل المرأة حق النيابة عن الأمة كالرجل . وقد ظلت النساء في انجلترا يجاهدن أعنف جهاد بضع عشرة سنة لينالن حق التصويت فقط ! الخ



الانسان مخلوق

غير شريف

فبراير ١٥ يخيل لى أن الشرف والنزاهة وعفة اليد وسائر ما يجرى هذا
المجرى ، مما لم يركب فى طبع الانسان ولم يفطر عليه ، ومعنى ذلك بعبارة اخرى
ان الانسان بطبعه مخلوق غير شريف !! والدليل حاضر . وهو هذه الآلاف من
الأوامر والنواهي والأقاصيص وما اليها مما يقصد به الحث على هذه الفضائل
ومجانبة اضرارها . ولو أن الانسان كان كذلك بفطرته وكان الأغلب والأعم
فيمن تلقى من الناس عفيفاً نزيها شريفاً لما احتاج الأمر الى كل ما فى هذه الكتب
مما أشرنا اليه . وكثيراً ما خطر لى أن أسأل : لماذا اتفق أن تجد من يحضك على
مزاولة هذه الفضائل وأخذك نفسك بها ولا تجد واحداً يأمرك بخلافها مثلاً :
فيقول : اذا استطعت أن تسلب ما فى يد غيرك فافعل ! أو احذر أن تدع ما فى
جيوب الناس يبقى فى جيوبهم ولا ينتقل الى جيبيك ! الخ الخ ! أليس ذلك لأن
الأصل فى الانسان هو التسلب الى غير ماله والرغبة فى غصبه أو انتهابه أو الاحتيال
على استلابه فالحث عليه تحصيل حاصل ؟

وأحسب أن من الأدلة على أن الأصل فى الانسان هو هذا ، ان فى كل مصلحة
كبيره من المصالح — حكومية أو غير حكومية — نظاماً دقيقاً للمراجعة يضطر

الناس الى الأمانة أرادوا ذلك أم لم يريدوه ، ويحول دون من تحدّثه نفسه بالاختلاس . فأكثر الناس لا يختلسون ، لا لأنهم اشراف أمناء نزهاء ، بل لأن السبيل مكتظة بالوعور والعاقبة غير مأمونة . ولست بمن يستطيعون أن يصدقوا أن هذا الصراف الفقير الذى لعله ترك بيته وعياله دون ما يكفي لقوتهم ، يعف عن رضى بقسمته وقناعة بحاله ، عن قبضة مما يدخل الخزانة التى هو قائم عليها وفى يده مفاتيحها :

ولولا الصعوبة وخوف التورط فيما لا يسهل الخروج منه لغش كل انسان كل انسان . ولكن من العسير أحياناً أن تتركب الترام الى حيث تريد دون أن تنقد العامل ثمن التذكرة . وأشقّ من ذلك كثيراً وأوخم عاقبة أن تسافر على قطار حديدى بلا تذكرة . وانى اعترف انى إذا كنت على شيء من الشرف ، والذمة ، والأمانة ، والنزاهة ، فليس ذلك لأنى خلقت متحلياً بهذه الفضائل ، بل لأنه ينقصنى القدر الكافى من الجرأة والاقدام ، أو بعبارة أخرى لأن نصيبى من الجبن فوق المتوسط ، فليس لفضيلة فى انى لا أنشل ما فى جيوب الناس إذا لاحت لعينى متضخمة بما فيها من أوراق النقد ، ولكن لأنى أجد نشل الجيوب أشق على وأبعد مطلباً من الكتابة باللغة اليونانية التى لا أعرفها . وكثيراً ما تخيلنى التحف الثمينة فى الحوانيت من وراء الألواح الزجاجية فاشتبهى أن تكون لى بلا ثمن ، وأتمنى لو استطعت أن أمد اليها يدي ثم أمضى فى سراح ورواح وأمن واطمئنان . ولكن هذا الخاطر وحده ، دع عنك الفعل نفسه ، يحلل قواى ويفكك أعصابى حتى لأحسّ أن بى حاجة الى من يأخذ يدي ويعيننى على السير . وربما فكرت فيمن يزيفون ورق النقد ويتخذون ذلك حرفة ومتجرأ فيُطير النوم من عنى ليالى عدة هول ما يقدمون عليه من المخاطر . وما أظن بى لو انى كنت نشأت بين اللصوص والسراق ، إلا أن جبني كان قميناً أن يؤدى الى تنبيه الشرطة والحراس

الى ما أنوى حتى قبل الشروع فيه ، لفرط ما أقدر انه كان ينتابني من الاضطراب
والحقيقة أن خراب الذمة يتطلب سكونا في النفس ، وان شئت فقل بروداً
في الطبع ، وجرأة في الجنان ، وقدرة على الاحتمال ، ومضاء في العزيمة ، وليس
لى من ذلك كله نصيب . ولذلك ترانى إذا غشى انسان ، عفواً أو عمداً ، وأعطاني
قطعة مزيفة من النقود لا أجرؤ — إذا فطنت اليها — أن أمد بها كفى الى أحد
على أنها صحيحة ، بل أخفيها عندي أو أنتظر حتى أصير الى طريق مهجور ثم
أطوح بها بكل ما في ساعدي من قوة كما أريد أن أجعل بيني وبينها أطول
ما يمكن من المسافة . وآه إذا مررت بشرطى وهى لا تزال فى جيبي ! آه من
الاضطراب الذى يصيبني ويخيل لى أن أعين الشرطى قد نفذت من الشياى الى
حيث القطعة المخشوشة ، وانه يهم أن يعدو ورائى ليقبض على ! وترانى حينئذ أسير
وأتلقت ، وقد أضرب فى طريق غير طريقى لأتوارى عن هذه العين التى لا تمنعها
كشافة الشياى أن تطلع على ما فى الجيوب من مخشوش !

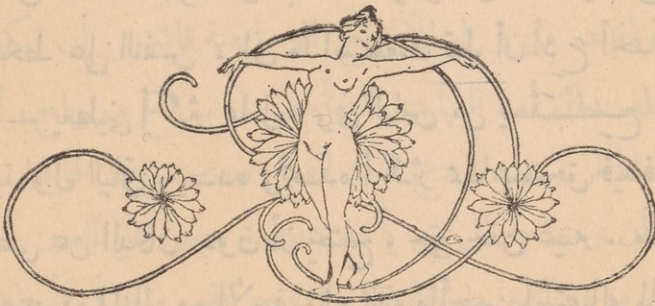
وحدث مرة أنى سمعت رجلاً يباهى بأنه أنقد (جرسون) خادم قهوة قطعة
مزيفة من ذات الخمسة القروش دون أن يفتن اليها ، فحسدته وتمنيت على الله
أن يرزقنى بعض هذه الجرأة والشبات ! وشر من ذلك وأدهى ، وادعى الى
الغيظ والسخط على النفس ، انى ما استطعت قط أن أدع أحداً — تاجراً أو
صرافاً مثلاً — يعطينى أكثر مما لى . وفى الناس من يستبضع ما شاء وينقد
البائع الثمن ويتناول الباقي ويعده ويحده أكثر مما يستحق فيدفعه الى جيبه فى
هدوء تام ويمضى عن الدكان دون أن يحتاج ، حتى جفن عينه . مثل هذا أغبطه
ولكن محاكاته عزيزة المنال مع الأسف ! وتالله ما أحسن استقباله لما يجيئه به الحظ !
ما أبرع ركوبه للهد فى عباب حياته ! ما أشد شكرانه لما يناله بغير كد أو تعب !
واتفق مرة ان كان فى بيتى عمال يبنون حائطا . وكان صاحب البيت قد أنقد

أحدهم الأجرة مقدماً ، فاشتغل يوماً وانقطع أياماً . ثم عاد فسألته ، أين كان ؟ فقال ،
وهو جذلان ، والله يا أفندي الحقيقة أنى بعد أن أخذت الأجرة من عمى
سهرت ليلتى تلك وشربت قليلاً ، ومن حسن الحظ أنى انقذت الخادم ورقة بنصف
جنيه فرد لى ثلاثة وثمانين قرشاً ، ظناً منه انى انقذته جنيهاً ، فحمدت الله الذى رزقنى
من حيث لا أحتسب وأحييتها ليلة فى أثر أخرى

قلت « نعم ، هذا حظ غريب ، ولكن ألم تنازعك نفسك ، ولو لحظة فى ،
أن تخبر الخادم المسكين انه أعطاك خمسين قرشاً فوق مالك ؟ »

فخلق العامل فى وجهى ، وصوب نظره ، وصعدته ثم حول وجهه عنى
والتفت الى عمله دون أن ينبس بحرف . وما أشك فى انه كان أعمق ما يكون
اقتناعاً بأنى مجنون ، ومن العبث الكلام معه .

وقلّ أن تجد من يصارحك بفساد ذمته كما فعل هذا العامل . والناس فى العادة
أكثر ولعاً بالكلام على فساد ذمم سواهم . وكثيراً ما يخيّل لى إذ أحدث واحداً
من سوادّ الناس فى أمثال هذه الموضوعات انى وإياه الرجلان الشريفان فى هذا
الكوكب الخافل بالانذال !





في الشعر الجاهلي

تأليف الدكتور طه حسين

استاذ الآداب العربية بكلية الآداب بالجامعة المصرية

✓ من أشق مباحث الأدب العربي ، ذلك العهد الذي يسمونه « بالجاهلية » ، وإن كان ما أثره الرواة عنه ، وقالوا إنه انحدر إلينا منه ، لا يختلف عن جنى غيره من العصور الإسلامية في شيء . فالروح واحدة ، والنظرة إلى الحياة متفقة ، والوجهة متحدة ، والكلام مستقيم على أوزان وقواف غير مضطربة بين هذه العصور . وأسلوب التفكير نهج غير متعدد ، حتى العبارة نفسها لا يكاد يغيرها تغير جوهرى . فما هو هذا العصر الجاهلى إذن ؟ إنه عصر يعرفه الفقهاء ، ومن يبغون أن يقيموا حداً بين الإسلام وما قبله . أما مؤرخ الأدب فمعتذر إذا أنكر أن له سمة يتميز بها وينفرد . فالجاهلية التى انتهى إلينا ما روى من أخبارها وأيامها هي جاهلية دينية ، واجتماعية إذا شئت ، ولكنها من حيث الأدب شيء آخر مختلف جداً ، لا يسع الأديب إلا أن يقف حيالها متردداً شاكاً بل زافضاً ، كما فعل الأستاذ الدكتور طه حسين فى كتابه « فى الشعر الجاهلى »

ولكل أدب آفته الساذجة وحدائنه المتعثرة كما لكل شيء آخر فى هذه الحياة — يصدق هذا على الجماعات صدقه على الآحاد ، وعلى العلوم والآداب وسائر ما ينشأ فى دنيانا هذه ، ولكن الأدب العربى ليس له أول يُعرف ولا نشأة تُوصف إذ أقدم ما وقع إلينا منه — على قول الرواة — بشحم كلاه ، إن صح

هذا التعبير ، ونعني بذلك أن هذا القديم مستو بالغ أشده ، وإن الأطوار الأولى التي لا بد أن يكون الأدب قد تقلب فيها ومر بها ، كغيره من آداب الشعوب الأخرى ، حتى تنأى شباهاً على النحو المأثور ، نقول إن هذه الأطوار مفقودة ضائعة لا سبيل إلى العلم بها والوقوف عليها إلا تخيلاً ولا بالطبع في التخيل على غرار ما حدث للآداب الأخرى التي وقفنا على أصولها ونشأتها ، وإلا بأن نرسم لأنفسنا خط التطور طبقاً للسنن الطبيعية . فالشعر الجاهلي ، وصف غير صادق ، لأن جاهلية الأدب مطوية مع الأزمان التي غبرت ، وليس من المعقول ، ولا من المقبول ، أن يكون هذا الشعر المأثور أول ما قالته العرب ، لأنه شعر ناضج متساقط الأغراض مطرد النظام ، فيه فن وصناعة ، ثم هو بعد ذلك تعبير فيه خلط بين الأدب والدين .

وليس ثم ما يمنع أن يكون هناك شعر قيل قبل الإسلام ، بل الذي يرفضه العقل هو ألا يكون الشعر قد قيل قبله ، ولكن هل ما يعزى من الشعر إلى من عاشوا في العصر الجاهلي صحيح النسب غير ملزق بهم ؟ وهل إذا سألت هذا الشعر عن نسبه ، يفتنى اليهم ويعتزى بهم أم ينطق تكوينه ومنحاه وأسلوبه بأنه دعيّ دخيل ؟ ؟ هذان هما السؤالان اللذان يلقيهما كل أديب على نفسه . وقد تناولهما الدكتور طه حسين في كتابه « في الشعر الجاهلي » وطرح السؤالين جميعاً ، وكان جوابه الرفض !

ولم يأخذني الدكتور طه على غرة بهذا الكتاب ، فما أعرفني قرأت شيئاً من أخبار هذه الجاهلية أو شعرها أو خطبها إلا نازعني في أمره شك ضعيف أو قوى ، وإلا حكّت في صدري منه أشياء كثيرة أو قليلة . وأشهد أن الدكتور كان بارعاً في بسط رأيه وفي إبراز الشبهات التي تحوم حول هذا الشعر وتضعف الثقة بنسبته إلى الجاهليين ، وفي تأكيدها أيضاً . ومن واجب كل متأدب أن يطلع على هذه

X

الرسالة التي جاءت — على خلاف عادة الدكتور — خالية من كثير من حشوه المؤلف. ونحسب أن لا خلاف في ضرورة هذا البحث مهما تكن النتيجة التي يخرج بها المرء، وأن من الحماقة أن نسترسل في الاستنامة الى ما جاء في الكتب القديمة وان كان كل شيء يدعو الى الريب ويغري بالنقد، وان نوصد بأيدينا في وجوهنا ابواب التفكير مخافة ان يُظن بنا العقوق والتمرد على ما خلف لنا السلف، أو مدفوعين الى ذلك بحكم النزعة الانسانية الى التسليم. فما زال التصديق أسهل من البحث، والاقرار أيسر من النقد، والجمع أهون من الوزن وأمتع وألذ أيضاً. وما من أحد نزاع الى النقد الا اضطر أن يذب بعض ما يقع اليه. وفي هذا الاطراح خسارة متوهمة

والنقد مهمة قاسية، وما أكثر ما تكون بغیضة الى القراء، ولكننا لانعرف احداً آخرى بالعطف، وأحق بان تلين له الأفتدة من الناقد، فهو لا يجد — كالكيماي — كل شيء حاضراً مهيباً في معمله، وليس امامه شيء من تلك الملاحظات المنظمة المدونة التي تغني عن الشهود وتقوم مقام المعاينة، بل عليه أن ينحصر كل ما تقع عليه يده ليستجلي غوامضه ويمحص حقائقه، ان كان ثم حقائق يمكن استخلاصها، وان يخطو بحذر ويتوخى الاحتياط اذ كان العقل الانساني نزاعاً الى التساهل ميالاً الى تناول ما يتطلب الدقة، بغیر احتفال أو تدبر. وما رأيت أحداً ينكر فائدة النقد ومزيته وضرورته، ولكن الاقرار بذلك أسهل من المعاينة. وحسبك أن تفكر في القرون العديدة التي مضت، وعصور المدنية التي انقضت قبل أن يظهر « فن » النقد في العالم، حتى في عصرنا هذا لا يأمن المرء على الطالب أن يقع في الاخطاء القديمة. لأن النقد يحيد بالمرء عن اتجاه الذهن في العادة. وقد تعلم أن الميل اللدنسي للانسان هو التصديق والترديد حتى حين يختلف ما يتلقاه بالتصديق عما انتهى هو اليه من الآراء والملاحظات.

السنا في حياتنا اليومية نتقبل بلا تمييز أو تمحيص ما يتأدى إلينا من الاشاعات والانباء التي لا نعرف لها مديعاً ولا ندرى ما مصدرها ؟ وقد نشذ أحياناً عن ذلك ونجنح الى الشك والتتقيب عن أصل الخبر وقيمته ونحاول امتحانه ، ولكن هذا لا يكون منا الا بدافع من سبب خاص ، اما اذا كان ما يتصل بنا غير مستحيل في ذاته ولا بعيد التصديق ، ولم يبلغنا ما ينقضه أو ينفيه فاننا نزرده ونفرح به ، وقد نضيف اليه ونزيد عليه !

وقد لا يجهل القارئ أن المرء حين يلقي نفسه في الماء تكون حركاته الطبيعية الاولى من شأنها أن تؤدي الى الغرق . وان السباحة معناها اعتياد المرء الامتناع عن هذه الحركات اللدنية والقيام بغيرها . وكذلك النقد ليس بالعادة الطبيعية وإنما هو شيء يُكتسب

(وقد تخالف الدكتور طه اذا عزّ عليك التخلي عما درجت عليه ، أو توافقه على كثير أو قليل مما يذهب اليه اذا آثرت التعويل على العقل والمنطق ، ولكنك لا تستطيع على الحالين الا أن تقدّر جهده والا أن تقر بقيمة هذا البحث الطريف .) وما من ريب في ان الاكثرين يشق عليهم أن ينفضوا أيديهم مما عاشوا مطمئنين اليه ، غير ان الشعر الجاهلي لا يصيبه شيء ، فهو باق كما هو ، لم يحرقه الدكتور ولا سنواه من خلق الله ، وكل ما يجد أن نسبته تنغير أو تصحح . وما أحق ذلك بأن يكون رواية ممتعة . وانها لكذلك في كتاب الدكتور

وهنا موضع التحرز : فلسنا نقول (ان بحث الدكتور طه قاطع في اثبات ما ذهب اليه وما نشايه عليه من الرفض ، ولكننا نقول أن حجته أقوى من حجة القدماء، وان رسالته ليست اكثر من باب فتحه لطالب الأدب الجاهلي اذا أراد أن يصل الى نتيجة يسكن اليها العقل ،) وانها لم تخل من المآخذ ولم تبرأ من السقاط وان أولها خير من آخرها ، وصدرها أمتن من عجزها . ذلك انه لم يوفق في التطبيق

ولم يأت بشيء له قيمة ، ولو زهيدة ، حين أراد أن يتناول الشعر الجاهلي بالتفلية
بعد أن مهد لذلك ببحث أسباب الانتحال ودواعيه

ولا بأس من أمثلة تجلو للقارىء ما نريد

يقول الدكتور في رسالته ان « امرئ القيس يمسنى وشعره قرشى اللغة
لا فرق بينه وبين القرآن في لفظه واعرابه وما يتصل بذلك من قواعد الكلام .
ونحن نعلم ... أن لغة اليمين مخالفة كل المخالفة للغة الحجاز ، فكيف نظم الشاعر
اليميني شعره في لغة أهل الحجاز ؟ بل في لغة قریش خاصة ؟ سيقولون نشأ امرؤ
القيس في قبائل عدنان ، وكان أبوه ماسكاً على بني أسد ، وكانت أمه من بني تغلب
وكان مهلهل خاله ، فليس غريباً أن يصطنع لغة عدنان ويعدل عن لغة اليمين
ولكننا نجعل هذا كله ولا نستطيع أن نشبهه إلا من طريق هذا الشعر الذى ينسب
الى امرئ القيس ، ونحن نشك في هذا الشعر ونصفه بأنه متحذل . واذن فنحن ندور :
نثبت لغة امرئ القيس الذى نشك فيه ! » الى أن يقول « وأعجب من ذلك أنك
لا تجد مطلقاً في شعر امرئ القيس لفظاً أو أسلوباً أو نحواً من انحاء القول يدل
على أنه يميني فهما يكن امرئ القيس قد تأثر بلغة عدنان فكيف نستطيع أن نتصور
أن لغته الأولى قد محيت من نفسه محو تاماً ولم يظهر لها أثر ما في شعره ؟ نظن أن
أنصار القديم سيجدون كثيراً من المشتقة والغناء ليجلوا هذه المشكلة »

فامرؤ القيس يميني ، والشعر المعزى الى امرئ القيس عدناني اللغة قرشياً .
وهذا حسن ، ولكن أحسن منه أن الدكتور حين تناول الآيات المنسوبة الى
امرئ القيس رفض بعضها وقبل البعض الآخر — وان كانت كلها عدنانية
قرشية !! رفض مثلاً هذين البيتين

وليل كموج البحر أرخى سدوله
فقلت له لما تمطى بصلبه
على بأنواع الهموم ليبتلى
وأردف عجزاً وناء بكل كل

وقبل هذا البيت الذى يتلوها :

ألا أيها الليل الطويل ألا أنجلي بصبح وما الأصباح منك بأمثل

فلماذا ؟ أهو يعنى اللغة دونهما ؟ أفیه شيء يخالف لغة عدنان وقریش التى نزل بها القرآن من حيث اللفظ أو الاعراب وما يتصل بذلك من قواعد الكلام ؟ أم وقعت المعجزة وبلغ من تأثر الشاعر بلغة عدنان أن محبت لغته اليمنية من نفسه محواً تاماً فى هذا البيت فقط ؟

وقد وقع الدكتور فى مثل هذا الخطأ عينه لما تناول شعر عبید وعلقمة وعمر بن قتيبة ومهلهل وابن حلزة ، وطرفة بن العبد الخ ، وان اختلفت القبائل . وهو مع جنوحه الى رفض القصص المنحولة يتقبل قصة الفرزدق وان كانت أشبه بالمنحول منها بأن تكون حقيقة ، ونعنى بها زعمهم انه خرج فى يوم مطير الى ضاحية البصرة وانتهى الى غدير فيه نساء ، فقال ما أشبه هذا اليوم بيوم دارة جملج ، ثم انصرف فصاح النساء به « يا صاحب البغلة » وعز من عليه الا ما حدثهن بحديث « دارة جملج » قالوا فقص عليهن قصة امرئ القيس ، وأنشدن قوله :
ألا رب يوم لك منهن صالح ولا سيما يوم بدارة جملج

ومن سقاه أنه يذكر « ابتذال » اللفظ ، ويعنى أنه مأنوس غير حوشى ، ويتكلم على المتانة والجزالة ويريد بها حشو الكلام بالغريب الذى يحتاج المرء فى فهمه الى مراجعة معاجم اللغة . وهو مالا يُغتفر لرجل تذوق الأدب ، بلسه من يدرسه فى الجامعة : ومن ذلك قوله عن قصيدة جدة فى رثاء كليب انها شعر « لاندري أيسطيع شاعر أو شاعرة فى هذا العصر الحديث أن يأتي بأشد منه سهولة وليناً وابتذالاً ؟ » والآيات التى يشير اليها هي :

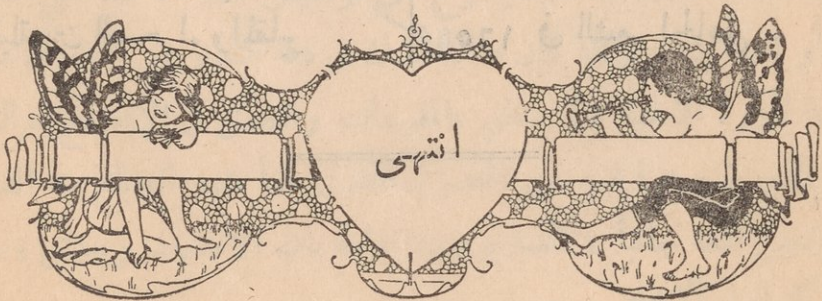
جلّ عندي فعل جساس فيا حسرتي عما أنجلي أو ينجلى

فعل جساس على وجدى به قاصم ظهري ومدن أجلى

يا قتيلاً قوَّض الدهر به سقف بيتي جميعاً من عل
هُدم البيت الذي استحدثته واثني في هدم بيتي الأول
خصني قتل كليب بلظي من ورأى ولظي مستقبلي
ليس من يبيكي ليوميـه كمن انما يبيكي ليوم ينجلي
وهي أبيات ليس فيها ابتذال بالمعنى المفهوم . .

ومن نظرياته ان لغة الكلام عند العرب قبل الاسلام كانت وعرة حوشية !!
انظر قوله « فان في قصيدة ابن كلثوم هذه من رقة اللفظ وسهولته ما يجعل فهمها
يسيراً على أقل الناس حظاً من العلم باللغة العربية في هذا العصر الذي نحن فيه .
وما هكذا كانت تحدث العرب في منتصف القرن السادس للمسيح وقبل ظهور
الاسلام بما يقرب من نصف قرن » فمن أدراك يادكتور ؟ ؟ ويا لها من صورة
معكوسة للغة في ذهن الدكتور !!

وقد أطلنا جداً والمجال لا يتسع للافاضة . ولذلك نختم كلامنا بأن الباب
الثالث من الكتاب أشبه بتخطيط الطالبة منه بابحاث الأساتذة . فليته استغنى عنه .
وان الدكتور ليحسن جداً الى نفسه اذا تحاشى الخروج من النقد العام الذي يسهل
مع التحصيل ، الى النقد التطبيقي أو الدراسات الفردية .



فهرس

صفحة		صفحة	
٨٩	ايحاء التمثيل	٣	المقدمة
٩٥	ليلة	٥	بين القراءة والكتابة
٩٨	الخطابة والكتابة	١٤	على شاطئ بحر الروم
١٠٤	سر غرفة أم وحي صورة	٢١	نظرة اولى فى كتاب
١١١	متاعب الطريق		حديث الاربعاء
١١٧	مجالسة الكتب ومجالسة الناس	٢٩	آراء شتى فى كتاب
١٢٤	لولو !		حديث الاربعاء
١٣٢	نشأة الشعر وتطوره	٣٥	الأساليب والتقليد
١٣٩	المرأة واللغة	٤٤	قليل من الفلسفة
١٤٧	بين السماء والأرض	٥٠	القديم والجديد
١٥٥	المفعول المطلق	٥٥	طه ومجنون لبلى
١٥٨	الذكورة والانوثة	٦٣	التفانيات الذهن
١٦١	الانسان مخلوق غير شريف	٧٠	العمى والغريزة النوعية
١٦٥	فى الشعر الجاهلى	٧٦	المرأة بين بشار وأبى العلاء
		٨٤	ليلة بين الصحراء والمقابر

﴿ القاموس العصرى ﴾

نقلاً عن مجلة التريية الحديثة — العدد الرابع ابريل ١٩٤٨

القاموس العصرى — للاستاذ الياس انطون الياس صاحب المطبعة العصرية.

بين أيدينا ﴿ الطبعة السادسة ﴾ للقاموس الانجائزى العربى و ﴿ الطبعة الرابعة ﴾ للقاموس العربى الانجائزى . وقد كنا قرظنا طبعة القاموس الانكائزى العربى الخامسة فى هذه المجلة ، وكان يخل الينا عندئذ انه لم يعد فى الامكان أحسن مما كان . أما وقد ظهرت الطبعة الاخيرة فقد تبدد ظننا وأصبح لدينا تحفة لامثيل لها فقد زيد فيها عدد المفردات ، وأدرجت طائفة كبيرة من العبارات والجل الاصطلاحية الانجائزية من علمية وفنية وعامة ، وامامها ما يقابلها من الاصطلاحات العربية المألوفة ، وأدخل عدد وافر من الصور والرسوم الدقيقة الواضحة لآظهار المعانى ، حتى بلغت النسخة الانجائزية العربية ٨٠٦ صفحة والنسخة العربية الانجائزية ٨٣٥ صفحة . واذا علمنا ان واضع هذين المجلدين قد اشتهر بالدقة فى العمل والأمانة فى الاخراج والغيرة على التراث الأدى فضلاً عن معونة جهابذة العلماء الذين عهد اليهم مراجعة المفردات منذ أن ظهرت الطبعة الأولى سنة ١٩١٣ ، اتضح لنا ان كل مشغل باللغتين من طلاب وأساتذة وصحافيين وأدباء وشباب ورجال أعمال ، بل كل مثقف ، ينبغى أن يضع على مكتبه هذين المجلدين .

ومن المبادئ المسلم بها أن الرجوع الى قواميس اللغة ، كلها خفى المعنى على القارئ أو الكاتب ، وكلما كان هناك شك فى دقة التعبير من أنجع الوسائل فى مضاعفة الثروة الذهنية فيما يتعلق بالمفردات والتعمق فى الإفصاح والتعبير . والرجل الذى يقنع بما لديه من المحصول اللغوى ظناً منه انه بلغ منه الذروة ، فيلقى قواميس اللغة جانباً ، انما يوصد امامه باب الاجتهاد ويعيش من يده الى فمه « كما يقول الانجائز

﴿ المفتاح العصري ﴾

نقلاً عن مجلة التريية الحديثة

وقد وضع الاستاذ الياس انطون الياس كذلك « المفتاح العصري » لفتح أغلاق المعاجم العربية ، وارشد القارئ الى المادة التي يجد فيها الكلمة التي يريد الكشف عنها . والطريقة التي وضع بها هذا الكتيب الفريد في بابه مبتكرة سهلة ، وطالما وددنا لو كان لدينا مثله منذ أن تعلمنا أن نلجأ الى المعاجم العربية العربية أو العربية الفرنسية أو العربية الانجليزية . فاذا أراد الطالب البحث عن لفظة في أى معجم عربى ، فما عليه إلا أن يطلبها في أول حرف فالثانى فالثالث من حروفها كما هى ، بصرف النظر عن حروفها المقلوبة عن غيرها . واذا تعذر عليه معرفة مصدر الكلمة التي يريد الكشف عنها فما عليه إلا الاستعانة بهذا المفتاح الذى يجب أن يرافق كل معجم عربى . ويقع هذا الكتيب فى ٨٠ صفحة . ونأمل أن يستفيع به كل من يضع على مكتبه معجماً من المعاجم العربية

حصان الهشيم

تأليف الكاتب الكبير الاستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

لا حاجة بنا الى ترغيب القارئ فى اقتناء هذا السفر النفيس فقولفه أشهر من نار على علم . والكتاب يعد درة فى تاج المطبوعات العربية . مطبوعاً طبعاً نفيساً على ورق صقيل وقد جعلنا ثمنه فى متناول الجميع رغماً عن غلاء تكاليف الطبع فى الوقت الحاضر وذلك لترويج انتشاره

مكتبة الاطفال

مكتوبة بطريقة مبتكرة

تجيب القراءة للاطفال ، وتربي فيهم أفضل الاخلاق

للمؤلف د. كامل كبدوني

حكايات للاطفال .. الجزء الاول . الدجاجة الصغيرة الحمراء	١٥
» » » .. الثاني . ام الشعر الذهبي	١٥
» » » .. الثالث . بدر البدر	١٥
» » » .. الرابع . العلبة المسحورة	١٥
قصص جغرافية للاطفال .. الاول . رحلة لفنجستون	١٥
» » » .. الثاني . لفنجستون وستانلي	١٥
قصص مختارة للأطفال .. الاول . وادي الذهب	٨
» » » .. الثاني . صارع الأسد	٨
مكتبة الجيب للاطفال .. الجواد الطيار	٥
» » » .. بساط الريح	٥
جحا قال يا اطفال .. وزه السلطان	٥
» » » .. سوق الشطار	٥
قالت شهر زاد .. بنت الوزير	
..... امير المفاريت	
..... السعيد حسن	
عجائب القصص للاطفال .. ارنب في القمر	

سلسلة المطبوعات العصرية

تطلب من المطبعة العصرية - بمصر (ص . ب ٩٥٤)
(القائمة لكافة المطبوعات العصرية ترسل مجاناً لمن يطلبها)

خواطر حمار (للمرحوم الاستاذ حسين الجمل)
حصاد الهشيم (الاستاذ المازني)
قبض الريح للاستاذ المازني
نسبات وزوابع شعر منثور (مصور)
التعليم والصحة للدكتور محمد عبد الحميد
مركز المرأة في شريعتي موسى وحمورابي
المرأة الحديثة وكيف نسوسها لعبدالله حسين
تذكرة الكاتب ، لتقويم الاخطاء اللغوية
الضعف التناسلي للمرحوم الدكتور فخرى
الامراض التناسلية وعلاجها »
يسوع ابن الانسان (جبران جبران)
» » النبي
» » الجنون
» » رمل وزبد
» » كلمات جبران
» » السابق
مراقى النجاح (الارشندريت بشير)
آراء حرة (دكتور طه حسين بك وآخرين)
رواية تاييس ترجمة احمد الصاوي ، لانا تول فرانس
جريمة سلفستر بونار » »
» مكابد الحب في قصور الملوك ، أسعد داغر
» القصص العصرية (٧٠ قصة مصورة)
» مسارح الازهان (٣٥ قصة مصورة)
» أهوال الاستبداد (خليل بيدس)
» الانتقام العذب (أسعد خليل داغر)
» روكامبول ١٧ جزءاً (طانيوس عبده)
» أم روكامبول ٥ أجزاء » »
» باريزيت ، مصورة (توفيق عبد الله)
» غرام الراهب »
» دار العجائب (لنقولوا رزق الله)
» القلامان الطريدان »
» فاتنة المهدي أو استعادة السودان »

القاموس العصري انكليزي عربي
» » عربي انكليزي
» المدرسي عربي انكليزي وبالعكس
قاموس الجيب انكليزي عربي
قاموس الجيب عربي انكليزي
قاموس الجيب انكليزي عربي وبالعكس
القاموس الحديث فرنسي عربي باللفظ
الهدية السنوية لطلاب الانكليزية
التحفة المصرية لطلاب الانكليزية
حكايات للاطفال ٤ أجزاء (كامل كيلاني)
قصص جغرافية للاطفال جزآن (» »)
عشرة أيام في السودان (لمعالى هيكل باشا)
مراجعات في الادب والفنون (للعقاد)
روح الاشتراكية (لغوستاف لوبون)
روح السياسة » »
أصول الحقوق الدستورية (لابسمن)
الحضارة المصرية (لغوستاف لوبون)
الحركة الاشتراكية (لرضي مكدونلد)
ملقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء
اليوم والغد (لسلامه موسى)
مختارات سلامه موسى »
» نظرية التطور وأصل الامسان
» البلاغة العصرية واللغة العربية
» كيف نسوس حياتنا بعد الخمسين
» مصر أصل الحضارة
» أنا تول فرانس في مبادئه (شكيب ارسلان)
الدنيا في اميركا للاستاذ (امير بقطر)
حضارة مصر الحديثة ، لزعماء الثقافة المصرية
حضارة بابل واشور
اسرار الحياة الزوجية (ن . ح)
جمهورية افلاطون ، طبعة ثانية

المازني، ابراهيم عبد القادر
قبض الريح

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01038860

Elme

rut



20274

M472A

General Library

892.74
M4769A